أكاديمية السلم و العلم
Academy of peace and knowledge

القلم

جوهرُ الإنسانِ الخليفةِ
الذي يُصنعُ على عينِ
سورةِ البقرةِ تقوى وعلماً

تأليف
د. فيصل محسن العلي

تقديم

الدكتور ياسر العيتي　　الدكتور أحمد خيري العمري

2015

القلم

جوهرُ الإنسانِ الخليفةِ
الذي يُصنعُ على عينِ سورةِ البقرة
تقوى وعلماً

د.فيصل محسن العلي

إهداء

إلى وطني الصغير...

أمي وأبي وأخوتي، وأخواتي، وأصدقائي

وإلى وطني الجريح...

سوريا

وإلى...

كل من يعمل على بناء حضارتنا المرتقبة..

الفهرس

كلمة الناشر.................................. ١١
مقدمة بقلم د.أحمد خيري العمري.................. ١٥
مقدمة بقلم د. ياسر تيسير العيتي.................. ١٩
مقدمة المؤلف د. فيصل محسن العلي ٢٣
البقرة سورة العقل والتقوى والعلم.................٢٧

الفصل الأول.................٢٩

كلمات في الاستخلاف

١-التقوى حركةُ الاستخلاف، ورمضان وقودها: ٣١
٢-إيمان بالغيب، شهادة بالاستخلاف: ٣٣
٣-استبدال الفساد بالاستخلاف: ٣٧
٤-استبدال السفه بالعقل: ٤٣
٥-لتبعث من جديد:............................ ٤٣
٦-الذين من قبلنا، لنكن قبلهم: ٤٥
٧- قال لهم وقال لنا:............................ ٥٠
٨- تبعيض الإيمان تخريبٌ للمساجد:..................٥٣
٩- وقود الثبات وعدة الاستعانة: ٥٧
١٠- الشكر من مقومات الاستخلاف:................. ٦١
١١- القراءة هي عين العبادة، وعين التقوى والشكر، وعين العمل: ٦٦
١٢- الصلاة القائمة ذكر وشكر:..................... ٧٠
١٣- البرُّ من مقومات الاستخلاف:.....................٧٤
١٤-الأخوة من مقومات الاستخلاف:...................٧٩
١٥-النداء الأول: حقيقة القوة:...................... ٨٤

١٦- القصاص من مقومات الاستخلاف:........................ ٩٠
١٧- دورة سنوية في الاستخلاف: ٩٣
١٨- عيد ميلادك:.. ٩٧
١٩-الدعاء من مقومات الاستخلاف: السميع العليم ١: ١٠٢
٢٠-الدعاء من مقومات الاستخلاف: السميع العليم ٢: ١٠٧
٢١-الدعاء من مقومات الاستخلاف: السميع العليم٣: ١١٢
الفصل الثاني.........١١٧
آفة الاستخلاف اتخاذ الأنداد
اتخاذ الأنداد ١:..١١٩
اتخاذ الأنداد ٢:..١٢٤
اتخاذ الأنداد ٣:.. ١٢٧
اتخاذ الأنداد ٤:..١٣٢
اتخاذ الأنداد ٥:..١٣٦
نتائج اتخاذ الأنداد...١٣٩
١- فيما يخص التعامل مع الكتاب ١:.........................١٣٩
لا تكتم شهادة رمضان: ١٤٥
٢- فيما يخص التعامل مع الكتاب ٢:.........................١٤٦
٣- الأمية:..١٥٢
٤- قسوة القلب:...١٥٦
٥- كفر النعم:...١٦١
العقل قيد اتخاذ الأنداد: ١٦٤
الإنفاق كهف الأمن والسعادة:.........................١٦٥

الفصل الثالث.......... ١٦٩

صفتا الخليفة العلم والتقوى

أولا-مقدمة:.. ١٧١

١- علم يسبح بحمد الله ويقدس له: ١٧١

٢- إن قومي اتخذوا هذا الكون مهجورا : ١٧٢

ثانيا-العلم:...١٧٦

١- علم الأسماء، القدرة على التمييز:..........................١٧٦

٢- نتيجة وتطبيقات:.....................................١٧٩

٣- القلم:... ١٨١

٤- المعاني المعجمية للقلم وظلالها:..........................١٨٦

٥- عبادة الله بقوة التعلم:...................................١٩٢

٦- وما يسطرون ١:......................................١٩٥

٧- وما يسطرون ٢: ٢٠٦

٨- اقرأ كتابك:..٢٢١

٩- نموذجٌ مما سطروا: ٢٢٤

كلماتٌ على ضفاف مقدمةٍ في مرجع علميّ:....................٢٢٤

١٠- سيّد الأقلام كلها: ٢٢٧

١١- القلم واللغة :......................................٢٣٤

١٢- (ن) والإنسان الخليفة:...............................٢٤٠

١٣- حضارة القرآن واللسان:.............................٢٤٤

١٤- من ظلال الأسماء: ٢٥١

ثالثا- التقوى:...٢٥٩

١- مقدمة:..٢٥٩

٢- قلب البقرة:..٢٦٣

٣ – علم التقوى:..٢٦٦
٤– الأسرة والقتال أصدق تمحيص للتقوى: ٢٧٢
٥–البقرة سورة التقوى:.....................................٢٧٥
٦– المتقون سنة الله في دفع الظلم (تطبيق عملي): ٢٨١
الفصل الرابع..........................٢٨٧

خواتيم

أولاً– الكلمة مشروع استخلاف:................................٢٨٩
ثانياً– دعوات ثلاث: ٢٩٥
ثالثا– عودٌ على بدء، التقوى و العلم، روح وجسد: ٢٩٧
١– العلم:..٢٩٧
٢– التقوى:................................ ....٣٠٣
رابعاً– التقوى والعلم: آية وحديث ٣٠٨
خامساً– لا خليفة بلا تقوى كاملة: ٣١١
١–مدخل:.................................. ....٣١١
٢–أنواع التقوى والفتنة: ٣١٣
فتنة الأشياء كالأنفال والمال والولد، واتقاؤها بتفضيل أجر الله تعالى: ..٣١٤
فتنة التنازع والفرقة، واتقاؤها يكون بالتوحد: ٣١٥
فتنة الضعف، واتقاؤها يكون بإعداد القوة بكل أشكالها:.............٣١٥
٣–تفاصيل:................................. ....٣١٦
٤–أنتم أنتم كلماته:...٣٢٦
٥–التقوى لبناء حضارة القرآن: ٣٣٢
بين يدي الخاتمة..٣٣٥
الخاتمة................................... ....٣٣٧

كلمة الناشر

القلم.... جوهر الإنسان الخليفة الذي يصنع على عين سورة البقرة تقوى وعلماً.....

عنوان كبير يحرّض تفكيرك عندما تقرؤه, ويثير في عقلك تساؤلات عديدة:

كيف يكون القلم هو جوهر الإنسان؟!

وأي إنسان؟...

الإنسان الخليفة، الذي يُصنع على عين سورة من أعظم سور القرآن، سورة البقرة....

يصنع تقوى وعلماً....

التقوى والعلم....الأساسان الركيزتان: ميزتا ذلك الإنسان الخليفة الذي حمّله الله أمانة التكليف، وعمران الأرض.

هما أساسا النهضة التي يرجوها كل مسلم يعاني حسرة وانهزاماً في عالم الجور والفساد والمادية.....

تلك النهضة التي باتت حاجة ملحة، وطوق نجاة لبشرية متعبة، استنزفت طاقاتها في صراعات ومعارك قاسية، ولم تقم حتى الآن بمهمة الاستخلاف التي خلق الله الإنسان لأجلها.. ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(البقرة/٣٠)

ليس هذا الكتاب كتاب تفسير أو تأويل، فالدكتور فيصل لم يحاول تفسير آيات معينة بالطريقة التقليدية التي نعرفها، إنما بحث في مقاصدها ومراميها، وحاول معرفة عبرها وما يمكن أن نتعلم منها في عصر غابت فيه القيم، وضعفت الإمكانات الروحية والإنسانية، وانحسرت فيه الرحمة أمام غول المادية والعقلانية الفجة الأنانية...

إنه كتاب يبحث في التقوى والعلم والقلم... يبحث فيها وفي أساساتها وخصائصها، مستخلصاً ومقارناً ومعبراً عن فهم ونظر، وبحث في سنن الأنفس والآفاق، بطريقة سلسلة ميسرة...

إنه كتاب يبحث في ضرورة إنسانية، في تقوى استخلافية، ليس كتاب ترف فكري ونظر حضاري مدعٍ، بل هو كتاب تشخيص علاجي لأمة تشهد في أيامنا هذه تحولات خطيرة، قد ترفعها إلى أعلى عليين، إن هي استفادت من كنوز دينها وقرآنها بالشكل المطلوب، وقد تهوي بها في درك لا يخرجها منه عبادات تُردد بلا وعي ولا فهم ولا إدراك ولا تقوى.....

ونحن إذ نقدم للقارئ الكريم هذا النتاج الفكري، نأمل أن نسهم في إضاءة تفتح آفاقاً ولّادة لفهم واستيعاب كتاب الله الذي لا تنقضي عجائبه، والذي أنزله الله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان....

هدى للإنسان الخليفة، الذي حمّله الله أمانة التكليف، ودلّه على طرق أداء هذه الأمانة وتقليم قوانينها وسننها...

وفرقاناً يميز المؤمن من خلال آياته معنى التقوى التي تحميه من ضلال الغاية والهدف والأساليب...

فحي على إعمال الفكر والنظر، في الأنفس والآفاق....

وحي على الكتابة والتدوين والتقليم، لسنن الكون وقوانينه....

وحي على استيعاب التقوى الحافظة المانعة للضلال والزلل وهدر الطاقات والإمكانات....

وحي على نهضة إسلامية إنسانية بناءة تكون مصدقاً لوصفه تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس....»

۞۞۞۞۞

مقدمة

بقلم د. أحمد خيري العمري

لأن القرآن لا تنقضي عجائبه .. فإنه لا يزال يتحدث إلينا...

ولأنه لا يزال يتحدث إلينا، فإنه لابد أن تظهر قراءات جديدة، قراءات تكون بأسلوب مختلف ولغة مختلفة، وأحياناً تكون بمضمون مختلف..

لكن هذه القراءات الجديدة تواجه دوماً بنوع من الضيق والحذر بل وحتى المحاربة من قبل الكثيرين، وبعض هذا الضيق والحذر مبرر بلا شك، فالكثير من القراءات الجديدة، كانت قراءات تهدف إلى «تعطيل النص» أكثر منها تفعيله أو بث المزيد من الفاعلية في فهمه..وهو أمر أساء للتجديد كثيراً...

بين هذا الضيق، الذي يصل أحياناً لدرجة محاربة كل قراءة جديدة، وبين تلك القراءة «المتفلتة» هناك قراءات جديدة فعلاً، لا تنسلخ من المنظومة الأصلية، بقدر ما تحاول أن تجد أفقاً جديداً لم تطرقه القراءات التي أنتجت في عصور سابقة..

يواجه هؤلاء أحياناً بنفس الضيق، فقط لأنهم لا ينتمون إلى المدرسة التقليدية رسمياً، أو فقط لأنهم يجرؤون على تقديم قراءة جديدة، لكن هذا لن يلغي حقيقة وجودهم، وحقيقة أنهم يشقون دربهم في الصخر.. وأنهم يتمكنون، ببطء ولكن على نحو أكيد، من إثبات أن التجديد لا يعني التفلت بالضرورة...

وأن التجديد الحقيقي هو التجديد الملتزم بالثوابت..

✡✡✡✡✡

د.فيصل العلي صوت جديد من هذه الأصوات...الأصوات التي تحاول التوازن بين التجديد والانضباط..تحاول أن تجد طريقها وسط حقل الألغام الذي ينصبه الجميع...قراءة ترفض التفلت ولكن أيضاً ترفض الانغلاق...

درس د.فيصل طب الأسنان، فعرف ماذا يعني الحفر فيها..

ثم جاء ليحفر أيضاً في منجم قرآني لا ينضب..فيستخرج منه معان عظيمة..

تخصص في علم الأمراض، وهو العلم الذي يدرس الأمراض «مخبرياً»، فجاء بمجهره من المخبر ليقرأ به القرآن...محاولاً أن يكتشف فيه أمراض مجتمعاتنا وعلاجها في آن واحد..

د.فيصل يكتب كما لو كان يتحدث إليك مباشرة، يكسر الحواجز بينك وبينه، تكاد تتخيله يتكلم حتى لو كنت لا تعرفه ..حتى لو كنت لم تره من قبل ..

د.فيصل هو من هذا الجيل الذي بدأ يتلمس طريقه للخروج..

صوت واعد، لقلم واعد، لجيل واعد..

كتابه هذا هو باكورة إنتاجه، وقد كان نتاجاً رمضانياً بحتاً، تفاعل به في رمضان مع سورة البقرة، فقرأ فيها علامات الخروج والنهوض..

هل هو فتح رمضاني؟، فتح خير من فتوحات ألف شهر؟

ربما..فالجواب عند من عنده خواتيم الأمور سبحانه..

أترك لكم هذا الصوت الواعد ليحدثكم بنفسه...

أحمد خيري العمري

۞۞۞۞۞

مقدمة

بقلم د. ياسر تيسير العيتي

يقول الشاعر والفيلسوف محمد إقبال: «أشد ما أثّر في حياتي نصيحة سمعتها من أبي: يا بني اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك»، ذات رمضان، عمل أخي المبدع فيصل العلي بهذه النصيحة الثمينة، ففتح قلبه وعقله لكلمات الله، تحفه تجليات رمضان الروحانية وأجواؤه الإيمانية، وأعمل نظره في الآيات القرآنية، كصياد اللآلئ الماهر الذي يغوص في البحر العميق ليكشف عن أصدافه ما خفي من دقائق المعاني وبديع الأفكار، فكانت هذه النظرات في سورة البقرة ربطاً لوحي السماء بواقع الأرض، واجتهاداً أراد صاحبه أن يكون لبنة في صرح جيل عملاق بدأت معالمه بالظهور، جيل قرآني يعتز بدينه وعقيدته وتراثه، ويقتحم آفاق المستقبل بخطا واثقة، متقدماً على أرض صلبة من الإيمان بالله والامتثال لأوامره، آخذاً من حضارة الغرب ما يفيده في أداء رسالته في الشهادة على البشرية من غير تقوقع أو انبهار ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة/ ١٤٣).

ما أعجبني في منهج الأخ فيصل أنه يعود إلى أقوال المفسرين، ثم يبني عليها ما يفتح الله عليه من فهم متجدد يربط الآيات بالواقع للنهوض به، فلا هو أدار ظهره لأقوال الأقدمين كما يفعل البعض، ولا هو حصر فهمه بما وصلوا إليه وجمد عقله عندما أنتجته عقولهم، ولعمري هذا هو المنهج الذي نحتاج إليه اليوم بين دعوات تتنكر لكل ما جاء به السلف بحجة التجديد وأخرى ترى أن المتقدمين لم يتركوا شيئاً للمتأخرين وأن مهمة الباحث اليوم تقتصر على تكرار اجتهاداتهم وشرحها وكأن العقل المسلم عقم عن النظر والاجتهاد. وإضافة إلى حدة النظر ورشاقة التفكير يكشف فيصل في كتابه هذا عن موهبة لغوية وذوق أدبي وقلم سيّال يفيض فصاحة وعذوبة.

إن الكتاب يأخذنا في رحلة ممتعة، يستنبط المؤلف من خلالها سنن الله في النصر والتمكين، محذراً من أمراض فكرية وسلوكية تسللت إلى مجتمع المسلمين كما تسللت من قبل إلى بني إسرائيل، فأقعدت المسلمين إلى الأرض، وحالت بينهم وبين القيام بدورهم الحضاري الرائد في مسيرة الإنسانية التي أضنتها حضارة مادية جافة وصلت بالبشرية إلى طريق مسدود مليء بالكوارث والآلام لأنها تنكبت طريق الرحمن واستغنت عن هديه وشريعته، ويبين لنا فيصل أن الأمة المسلمة لن تستطيع النهوض من عثرتها والقيام بدورها الحضاري المتميز ما لم تتبع هذه السنن الإلهية في بناء النفوس السوية والمجتمعات القوية.

أسأل الله أن يبارك لأخي فيصل في أوقاته وجهده، وأن يكون هذا الكتاب مقدمة لحياة حافلة بالعطاء الفكري والأدبي، فيجمع بين عمله كطبيب يداوي علل الناس بأنامله ومصلح يداوي علل الأمة بأفكاره وكلماته، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم/ ٢٤- ٢٥) صدق الله العظيم.

ياسر العيتي

دمشق – ٢٠١٣/١/٣

المقدمة

الحمد لله الذي جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة، ثم علّمنا الأسماء كلها، ليستخلفنا في كونه، فنحمده ونقدّس له، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على إمام المتقين العالِمين، محمد بن عبد الله، وعلى الذين آمنوا معه، آلهِ وأصحابِهِ أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم نُرجع فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، ثم أقول من بعد ذلك:

لقد كان منهجي في هذا الكتاب الرجوع إلى التفاسير التالية: الطبري، وابن كثير، والبغوي، والمنار، والتحرير والتنوير، والسعدي، والتفسير الميسر، ويغلب أن أشير إلى التفسير في متن النص، وقد أثبت أحياناً النصَّ بحرفيته، أو أنقله بتصرف في أحايين أخرى.

إن هذا الكتاب خواطر فاضت بها نفسي، في كنف رمضان، جلستُ فيه إلى سورة البقرة، ولسورة البقرة مكانة شاهقة في نفسي، لما علمته من حديث رسول الله ﷺ عنها، وعن آل عمران، **فقد ثبت** في الحديث الذي رواه الإمام مسلم رحمه الله عن **أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:**

«اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ

أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ» (صلاة المسافرين/١٣٣٧).

وفي هذا الحديث كلماتٌ تتصل بمحور هذا الكتاب، كالشفاعة والقراءة، كلماتٌ تطل من نافذتها على معان فسيحة، معانٍ لو صُنعت على عينها النفوس، لقامت بمهمة الاستخلاف كما أُريد لها، وإني أتساءل: ما هي القراءة التي يريدها النبي عليه الصلاة والسلام؟، إننا نقرأ منذ قرون، لكن القرآن لا يصنعنا!، ما زلنا جثثاً هامدة تتحرك ألسنتها فقط!، ألسنتها تقرأ، لكن عقولها وأيديها أمية، لابد أننا انحرفنا بمفهوم القراءة عن معناه القرآني، وترجمته النبوية.

وإني أتساءل مرة أخرى: لمن سيشفع القرآن يوم القيامة؟، لمن ستشفع سورة البقرة؟، هل سيشفع القرآن لرجل لم يحسن قراءته؟، هناك من اتخذ نداً من دون الله، فحريٌ به أن يهرع إليه يوم القيامة، ملتمساً نصرته وشفاعته، ألم يعمل باسمه في الأرض؟، ألم يتبعه؟، ألم يحتمِ بقوته ونصرته؟، فكيف ستنالك شفاعة القرآن، وأنت أميٌّ به، لا تقرؤه ولا تقرأ باسمه، وتجهل قوانينه وكونه المعنوي، يجب أن يكون كونك النفسي قرآنياً حتى تستعمر الكون المادي باسم الله، لذا لابد أن تقرأ، فالقراءة هنا ليست مجرد ظاهرة صوتية، لا شك أنها صناعة الحياة بأدوات القرآن، قرآن يصنع الإنسان، ليستعمر الأرض والأكوان باسم الله، وهذه ما سنبحر فيه كلما أضاءت لنا سورة البقرة.

اقْرَءُوا الْقُرْآنَ.. اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ.. أمرٌ بقراءة القرآن، وأمرٌ بقراءة البقرة، وكأنها اختصار للقرآن، نعم..لأنها أساسات البيت الشاهق، وجدرانه، وسقفه، وما بقي فهو إضافات ضمن هذا البيت ليخرج بشكله النهائي الجميل.

إن هذا الكتاب يصدق بعضه بعضاً، تتعانق بداياته مع نهاياته، قد تجد فيه الآية أتناولها من جهة ما، ثم تطل عليك في مكان آخر بوجه آخر، وقد تجد الفكرة ذاتها في مواضع كثيرة، لكنها تخادعك في كل مرة بلباس جديد من اللفظ، فأرجو ألا يحاصرك هذا الأسلوب بالملل!.

أحمد الله الذي بنعمتهِ تتم الصالحات، الذي أعانني على هذه الكلمات، ومن شكره أن أشكر كلاً من الدكتورين الفاضلين، الدكتور ياسر العيتي، والدكتور أحمد العمري، الذين منحا كتابي من وقتهما واهتمامهما، وإنه لشرف لي أن يقلّمَ كتابي قلَمَان لهما في ميدان الفكر الشيء الكثير المثير. ومن شكر الله أيضاً، أن أشكر جميع الأصدقاء الذين لم يبخلوا عليّ بدعمهم الأدبي، و كانت مشاعرهم وحروفهم خير مدادٍ لكاتب.

اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئاً أعلمه، وأستغفرك لما لا أعلم.

فيصل محسن العلي

البقرة سورة العقل والتقوى والعلم

إن الاستخلاف يقوم على العلم والتقوى، والعقل كوسيلة إليهما، فتكرار كلمات العلم والتقوى والعقل ومشتقاتها، فيه إشارة بليغة إلى صفات الإنسان الذي يجب أن يكون خليفة في الأرض، وقد يكون من المنطقي أن تكون البقرة -لطولها- هي السورة الأكثر احتواء على مفردات العلم والتقوى والعقل من بين سور القرآن الكريم، ولكنّ تكرار هذه المفردات يبرز محورية قضية التقوى والعلم والعقل وأهميتها، في مهمة الاستخلاف.

الفصل الأول

كلمات في الاستخلاف

١-التقوى حركةُ الاستخلاف، ورمضان وقودها:

جاء في آية الصيام:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة/١٨٣). يبين الله تعالى أن الهدف من الصيام هو التقوى، فرمضان ثمرته التقوى، ولكن هل هناك سلوكيات محددة لها؟..إن التقوى كلمة جامعة لفعل المأمورات، وترك المنهيّات، وسأكتفي بما ورد في مطلع سورة البقرة حول التقوى والمتقين، في هذه الآيات:

﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة/٥-١).

فقد وصفهم المولى تعالى في بداية البقرة بصفات محددة، من إيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، وإنفاق الرزق، وإيقان بالآخرة، وإيمان بالقرآن، وكل ذلك جاء بصيغة الفعل المضارع الدال على الاستمرار، فهم يؤمنون، ويقيمون، وينفقون، ويؤمنون، ويوقنون... يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله، ويؤمنون بما أنزل إلى محمد عليه الصلاة والسلام، ويوقنون بالآخرة .

ولنعد إلى رمضان ونرى صلته بذلك، لقد قلنا إن ثمرته التقوى، وها هو الله يحدد لك مهامك فيه:

فرمضان شهر إقامة الصلاة:

وليست تلك الصلاة الباهتة التي كنا نصليها بلا روح!، في رمضان يتجدد شعورك نحو الصلاة، وتنفض غبار الغفلة والعادة عن روحك، لتعرج من جديد إلى بارئها... فهل فكرت بذلك؟!

ورمضان شهر الإنفاق:

ومما رزقناهم ينفقون: والرزق هو كل ما يُنتفع به، ولا يقتصر على المال، فعلمك رزق، ووقتك رزق، وقوتك العضلية رزق، وذكاؤك رزق، فانفق مما رُزقت في سبيل قضية الإيمان، واستخدم ما رزقت من سمع وبصر وقلب لفهم قضية الإيمان وخدمتها، حتى لا تكون من الذين خُتم على قلوبهم وسمعهم، وأغشيت أبصارهم، سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾(البقرة٦-٧).

أو الذين استوطن المرض في قلوبهم فأورثهم النفاق، يقولون أمنا وما هم بمؤمنين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا

يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(البقرة ٨/١٠)

ورمضان شهر القرآن:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾،﴿والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

وأول شرط لهدايته أن تؤمن به، فإذا آمنت به، كان هاديك، ودليلك الذي يسعى بين يديك في هذه الحياة المتعبة، وبراقك الذي يحملك، فعندما تستكمل عدة التقوى،ستصبح على (هدى) من ربك، ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، فالهدى سيحملك، والهدى هو ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ، فها هو هلال الهدى يطل في بداية الآيات، ويطل في نهايتها، ليعظم بدره خلال الرحلة كلها، فانظر إلى (ذلك الكتاب) بقلب مؤمن غير مرتاب، ليكون سفينتك التي ترسو بك على شطآن الفلاح!. ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

٢–إيمان بالغيب، شهادة بالاستخلاف:

تبدأ سورة البقرة بذكر أوصاف الناس على هذه الأرض، وهم على ثلاثة أصناف، صنفٌ صورته مشرقة جداً وهم المتقون، وآخر صورته مظلمة جداً وهم الكافرون، وهناك صنف ظاهره مضيء، وداخله مظلم، وهم المنافقون، وهم الصنف الأخطر على الرسالات وحملتها،

وتتظاهر الآيات على وصف الملامح النفسية للبشر المؤهلين لحمل رسالة الاستخلاف، كما تكشف صفات الفاشلين في حملها، ثم تذكر نماذج تطبيقية للفشل والنجاح، كبني إسرائيل، وسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وأريد أن أقف طويلاً عند صفات الأمة التي فشلت في الاستخلاف، وأعرضها على صفات المتقين والمنافقين، وهي أمة بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ (البقرة/١-٢).

إن الإيمان بالغيب شجرة التقوى التي تنتظم على أغصانها كل صفات المتقين الجميلة، ونرى في الآيات أن الإيمان بالغيب سبق إقامة الصلاة، لأنها ستكون ثقيلة جداً على قلوب جاحدة بلقاء الله، لأن لقاءه تعالى غيب، فكيف ستقيم الصلاة له وأنت لست مؤمناً بلقائه؟، وقد قال الله تعالى لبني إسرائيل:

﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة/ ٤٥-٤٦).

فكلما أيقنت بلقاء الله، وباطلاعه عليك، شمخ صرح صلاتك، وامتد نور توحيدها إلى كل بقعة يسعى عملك فيها من أرض الله، ومن خلقه. بينما قال بنو إسرائيل لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ

يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾(البقرة/٥٥).

إنه منطق الدواب التي لا تطيع إلا إذا رأت العصا يغازل جلدها السميك!. وهو منطق قديم حديث تبجحت به المادية. وإذا كان الإيمان بالغيب شارة المتقين الأولى، فإن الكفر به هو شارة المنافقين الأولى أيضاً، لأنهم لا يرعون إطلاع الله عليهم، ولا يحتفون إلا بما يملأ حواسهم البلهاء، فهم يظهرون أمام المؤمنين بوجه، بينما تتعرى حقيقة وجههم الآخر في خلواتهم أمام شياطينهم من جن أو إنس، وكلمة (خلوا) تدمغ حقيقتهم إلى القرار، لأن الخلوة معيار صدق الإنسان، ففيها تتهتك حجبه:

﴿وإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾(البقرة/١٤).

وانظر كيف تجسدت هذه الصفة الدميمة في بني إسرائيل أبلغ تجسيد، لتتشابه الألفاظ القرآنية، كما تشابهت الصفات الإنسانية بين المنافقين وبني إسرائيل:

﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة/٧٦).

هاهم يلوم بعضهم بعضاً، لأن بعضهم حدث المسلمين بحقيقة النبي ﷺ المسطورة في توراتهم، فخافوا أن يحاجوهم بهذه الحقيقة عند الله، ويا للغباء!، ويا له من تجلٍّ عجيب لصورة الكفران بالغيب والجهل بالله!.

هل هذا منطق مؤمن يقر باطلاع الله عليه وإحاطة علمه به؟.

وسرعان ما يُصفع غباؤهم وجفاؤهم بالآية التي تليها: ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(البقرة/٧٧)، فهل القضية في اطلاع الناس على حقيقتكم أم في إطلاع رب الناس؟!.

وهل يعجب المرء عندما يرى كل هذه الشرور في الأرض؟، كم أدرك عظمة ذلك الكتاب، الذي جعل أول صفة للمتقين: الإيمان بالغيب، لأن الذين يؤمنون بالغيب لن يفسدوا ويسفكوا الدماء، لأن الغيب شاهد عليهم، وهم على اتصال به في كل صلاة قائمة....

الذين يؤمنون بالغيب:.. نعم. إنهم في كل لحظة يؤمنون بالغيب، ربما لأن الأرض تشدهم إلى طينها فيحتاجون إلى حركة إيمان جديدة تعيدهم إلى صراط الإيمان بالغيب، فيجددون إيمانهم به، أو ربما لأن المداومة على الإيمان بالغيب ترتقي في حركة تصاعدية من أفق إلى أفق أعلى من الجلال والجمال الإلهي، فيحتاجون أن يؤمنوا بالحقائق الجديدة التي ارتقوا إليها. إنّ (يؤمنون) هنا، كحركة الأرض والشمس

والنجوم والمجرات لا تتوقف، إنها اتساق مع هذا الكون المؤمن، إنها طواف مستمر حول الثابت الأكبر من ثوابت الغيب.

ويقيمون الصلاة: الصلة التي تضمن ارتباط الخليفة بمصدر التقوى والعلم.

ومما رزقناهم ينفقون: إنه العمل الصالح كله المستوعب لتسخير الكون، وتعبيده لرسالة الإيمان لأن إنفاقك هنا، اعتراف بمصدر الرزق، فرزقناهم هنا تعود إلى الذات الإلهية، والرزق هو كل ما ينتفع به، أي يستوعب كل نشاطك المادي والأدبي على هذه الأرض.

آية واحدة تكفي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(البقرة/٣).

٣–استبدال الفساد بالاستخلاف:

إن بيان البقرة في صفات المنافقين تنبيه للمسلمين، لأن اليهود من قبلهم أخذوا بها، لذا فقد قام القرآن بتشريح جثثهم النفسية والفكرية والسلوكية، ليتجنب المسلمون هذه العاهات، بعد أن نُقلت إليهم راية الوحي، فهل التزم المسلمون بذلك؟.

ولننطلق إلى صفة أخرى تورق منها بذرة النفاق في بني إسرائيل.

لقد بيّن القرآن أن المنافقين فضلوا الضلالة على الهدى، قال تعالى:

﴿أولئك الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾(البقرة/١٦). وقال في بني إسرائيل: ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(البقرة/٨٦).

إن حمأهم المسنون ضاق بذلك الطعام النفيس المن والسلوى، وأبى إلا أن يقتات على طين الأرض، لذلك سألوا موسى طعاماً أقرب إلى تفكيرهم المادي، فقال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾(البقرة/٦١). وكيف لا يستبدلونه وقد استبدلوا الدنيا بالآخرة!، الآخرة التي أيقن بها المتقون: (وبالآخرة هم يوقنون) .

ومن صفات المتقين أنهم يؤمنون بما أُنزل على محمد عليه الصلاة والسلام وبما أُنزل من قبله، وقد ناشد الله تعالى اليهودَ أن يتحلوا بها، فقال: ﴿وآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾(البقرة/٤١). فاتقون..

إنها التقوى مرة أخرى، المتقون الذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، كما في مطلع البقرة. فماذا كان فعلهم؟:﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُم نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/١٠١)..فاليهود خالفوا صفات المتقين، وفعلوا فعل المنافقين والكافرين، فلو قرأت صفات

المتقين وتخيلت عكسها، وقرأت صفات المنافقين، لتعرفت على صفات بني إسرائيل دون أن تقرأها!.

والعجب العجاب أن المنافقين يرون أنفسهم مصلحين!، ولا يشعرون بفسادهم، ولا يعلمون بسفاهتهم. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾(البقرة/١١-١٢).

وصفة الإفساد في الأرض، هي ما تخوفته الملائكة من هذا المخلوق الجديد الذي سيُستخلف في الأرض: ﴿قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾ (البقرة/٣٠).

فأجابهم الله أنه يعلم ما لا يعلمون، لأنه سيكون من ذرية هذا الجنس الأنبياء والمصلحون والشهداء كما في تفسير ابن كثير، لكنّ المنافقين صدّقوا قول الملائكة، وانحازوا لذلك الجزء المفسد الكاذب المخادع المريض من البشر، الذي لم ينَلْهُ عهد الإمامة ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾(البقرة/١٢٤)، وكان مرضه سبباً لمزيد من المرض: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(البقرة/١٠)، فاستحق الإضلال.

وهنا يكتسب المنافق صفة جديدة وهي الفسق، لاشتراك المسالك الدنيئة بينهما، فالفاسق يفسد في الأرض أيضاً:

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة/٢٦-٢٧).

ولنبحر إلى الجهة الأخرى من عالم النفوس، لنرى ماذا قال الله تعالى لبني إسرائيل في هذه الناحية من النفس الإنسانية. لقد قال لهم كما زدت أصحاب الأمراض مرضاً، سأزيد المحسنين: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة/٥٨).

فماذا كان صنيعهم؟: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ (البقرة/٥٩)

بما كانوا يفسقون..إنه الفسق إذن..والفاسق مفسدٌ في الأرض أيضاً كالمنافق، وانظر ماذا قال الله بعدها: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة/٦٠)...

ولا تعثوا في الأرض مفسدين... لكنهم أفسدوا، وكانوا الأمثلة البليغة للنفاق والفسق، فاستبدلهم الله عز وجل، لأنهم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، والدنيا بالآخرة التي لم يوقنوا بها، فكيف سيتقون حسابها؟.

﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(البقرة/٤٨).

فما هو نصيب المسلمين من هذا الخِلال الخسيسة؟، هم لم يكفروا... ولكن هل أصابتنا أدواء بني إسرائيل والمنافقين، حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه؟.

٤-استبدال السفه بالعقل:

وهاهم المنافقون مرة أخرى، يُشرعون ادعاءاتهم الكاذبة، ويعلنون صفات ليست لهم، إذ يرون أنفسهم أولي ألباب، وما سواهم من المؤمنين سفهاء يجهلون مصالحهم، لأن السفيه هو الذي يجهل مصالح نفسه، ويسعى فيما يضرها، على عكس العاقل الذي يعرف مصالحه، ويسعى في دفع ما يضره، وهذا ما يتوهمه المنافقون، فيرون سفههم تعقلاً!.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾(البقرة/١٣). وعلى بعد دقائق من هذا الفضاء القرآني، تصطدم بهذه الحقيقة شامخةً في بني إسرائيل شموخ حضيضهم إلى الرذيلة، الذين لم يخفوا حقائق كتابهم وهداياته فحسب، بل أعلنوا خلافها، متهمين من أظهرها منهم للمسلمين بعدم التعقل!، كي لا يخاصموهم فيها عند الله، وهي حقيقة النبي المسطورة في توراتهم..

ويْحكم!..الله الذي أنزل عليكم الكتاب، مطلع عليكم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة/٧٦)...هذا هو العقل عند بني إسرائيل!، وهو موروث نفاق جليل، وكفر بالغيب أصيل.

إن نزول الكتاب إليكم وتلاوتكم لحقائقه وهداياته، يجب أن يكون معيناً لكم على التعقل والتفكر والإيمان، فكيف يكون إخفاء ما فيه من حقائق وبينات عن الآخرين هو العقل!، والله منزله ومطلع عليكم، لذلك فقد وبّخهم القرآن في مشهد آخر بقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة/٤٤)..

إن تلاوة حقائق الكتاب لم تمنحهم أي عقل، مع أنهم فهموه!: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/٧٥)...لقد عقلوه، ثم يرون خلافه هو العقل..أفلا تعقلون؟!.

ولننطلق إلى صفة أخرى للمنافقين، حمل لواءها من بعدهم يهود، وهي الاستهزاء..قال تعالى:﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة/١٤-١٥).

ولا أدري كيف لعاقل أن يستهزئ بالله وعباده المؤمنين، أو يخادعهم!. حتى هنا تتجلى السفاهة في أوضح صورها!. ومضيت أنقب عن هذه الآفة النفسية (الاستهزاء) في جثث بني إسرائيل، ويحدوني يقيني أن تلك النفوس الخسيسة، لن تخلو منها، وفعلاً..وجدتها! قال تعالى:﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ (البقرة/٥٨-٥٩)..

لقد أمرهم العفوّ الكريم أن يدخلوا هذه القرية خاضعين ذليلين، وأن يقولوا:حطة، أي أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرته، لكنهم بدلوا هذا القول وقالوا:حبة في حنطة[١]، استهانة بأمر الله واستهزاءً! وهذا هو استهزاؤهم القولي، أما الفعلي: فقد دخلوا يزحفون على أدبارهم!

٥-لتبعث من جديد:

بعد أن ذكر القرآن الكريم أنواع الناس، من متقين وكافرين ومنافقين، و بيّن صفاتهم، اتجه إليهم بهذا النداء العام إلى الإيمان:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة/٢١).

١- تفسير السعدي.

وها هي التقوى تبرز من جديد، لتؤكد أن النوع الأول من الناس هو المسؤول عن الأرض – وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة – وهو المعني بذلك الكتاب لا ريب فيه، إنه هدى لهم، وتؤكد الآية أنه لا تقوى من غير معرفة الله والارتباط به، والسير على هداه، لأن العبادة، تعني أن تعرف هذا الإله جيداً، وتعلم صفاته العلى وأسماءه الحسنى..

ولكن مَن يملك هذه المعلومات عن خالق السموات والأرض؟، لا مصدر لذلك إلا هو، فهو أخبر تعالى عن نفسه في وحيه. إذن، لابد أن نعود إلى وحيه، إلى قرآنه، إلى ذلك الكتاب لا ريب فيه، لنتعرف على ذلك الرب العظيم، ونعتلي هداه إلى شطآن الفلاح ..

أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون.. إنهم المتقون. وإذا ذُكر الكتاب، أو القرآن، لابد أن نذكر معه شهره، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس، **ولكن أي ناس؟!...(هدى للمتقين)..فهل تعجب إذا ختمت آية الصيام بمثل ما ختمت به آية الدعوة إلى عبادة الله:**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة/183).

ولو فكرنا بعقل رياضي، وحذفنا الطرف المشترك في المعادلتين، لحصلنا على النتيجة التالية:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ

وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة/٢١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(البقرة/١٨٣) وكل من طرفيّ المعادلة = لعلكم تتقون.

وكأن الصيام يختزل العبادة كلها، أليس هو شهر الصلاة والإنفاق والقرآن، وهي صفات المتقين الذين يهدف رمضان إلى صناعتهم، وقد قلنا إن جوهر العبادة أن تعرف المعبود على حقيقته في وحيه، لا كما تتخيله في ذهنك..

فرمضان شهر المعرفة والعلم، والتعرف على الله والتقرب إليه، وقد قلنا إن المصدر الوحيد لكل ذلك هو وحي الله، هو كتابه، هو قرآنه، لذلك كان رمضان هو شهر القرآن، ليس لأنه نزل فيه فقط، بل لأنه يجب أن ينزل عليك أيضاً من جديد، يجب أن تتدبره وتفهمه، لتعرف الله الذي أنزله، فتتقيه، وتعرف مهمتك التي كلفك بها، لتنال شرف الاستخلاف، وتجعل الأرض جنة للحق والخير والجمال، لتفوز بجنة الآخرة التي أيقن بها المتقون، وتتجنب سبيل المفسدين من قبلك، من كافرين ومنافقين وفاسقين، وتتبع سبيل المؤمنين من قبلك من متقين مؤمنين.

٦-الذين من قبلنا، لنكن قبلهم:

ساءلت نفسي وأنا اقرأ هذه الآية:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة/٢١) لماذا قال الله

تعالى: خلقكم والذين من قبلكم؟، ما الحقيقة التي يريد أن نفهمها؟، وهل أمره لنا بالعبادة يحتاج أن يذكرنا بخلق من قبلنا؟. فكرت وعاد فكري مهزوماً، لكنني موقنٌ أن القرآن سيهديني، فمضيت تحت أفيائه، لأجد زهرة أخرى تشبه الأولى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة/183)..

كما كتب على الذين من قبلنا أيضاً!، ها هي تظهر مرة أخرى، فخطر ببالي: أن الله يريد أن يلفتنا إلى مواقف من قبلنا تجاه قضية الإيمان والوحي والرسل، ما سلوكاتهم؟، ما أقوالهم؟ وما أمراضهم؟،لنتجنبها ونتبع سبيل المؤمنين منهم، ولذلك فقد أطال في الحديث عن بني إسرائيل، وعن عاهاتهم الفكرية والنفسية والسلوكية، فنحن حلقة من حلقات البشرية، قبلها حلقات وحلقات، فالذي خلقنا خلقهم، والذي أنزل علينا، أنزل عليهم، والذي كتب علينا كتب عليهم، فهل سنفعل فعلهم، ونقول مثل قولهم، وإلى أي فريق سننحاز؟ المتقين أم الكافرين والمنافقين؟.

فبنو إسرائيل ورثوا الكافرين والمنافقين، وآدم وإبراهيم ورثوا المتقين، فماذا عن المسلمين؟. ولذا فقد كانت هذه الصفة من صفات المتقين في مطلع سورة البقرة: ﴿والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(البقرة/٤).

يجب أن تؤمن بما أنزل من قبلك، لتفهم موقف المؤمنين به، والكافرين، وتقتدي بسيَر، وتجتنب أخرى، فإذا كان الرب واحداً، وآمنت به، فما معنى أن تؤمن بما لديك وتكفر بما لدى غيرك والله مخبرك بحقيقته في كتابك؟!..

وهذا قضية فشل فيها أهل الكتاب فشلاً رهيباً: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة/١١٣). انظر كيف فرقوا الدين، ولديهم كتبٌ تصدق بما لدى كل منهم!.

(والذين لا يعلمون) هم كفار العرب، كما جاء في بعض التفاسير، قالوا في نبوة محمد ﷺ كما قال أهل الكتاب عن بعضهم البعض، وانظر كيف أن عدم انتفاع أهل الكتاب بكتابهم جعلهم يستوون مع الجاهلين الذين لا يعلمون!.

وكأن كفار العرب قد ورثوا تلك المساوئ النفسية عمن قبلهم من يهود نصارى!..﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة/١١٨).. تشابهت قلوبهم، فتشابهت أقوالهم، وتشابهت سلوكاتهم، وتشابهت مصائرهم أيضاً، فالله قد بيّن الآيات

لهم ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ﴾، لكنهم ابتدعوا هداية أخرى وقصروها عليهم، وكفروا بما وراء ذلك (وهم يتلون الكتاب)!.لأنهم ليسوا من القوم الذين وصفهم الله بقوله: وبالآخرة هم يوقنون.

وتبرز هنا صفة عدم الإيمان بالغيب في كفار العرب ﴿الذين لا يعلمون﴾ كما برزت في بني إسرائيل من قبل، إذ قالوا ﴿لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ﴾، وقد قال بنو إسرائيل من قبلهم قريباً من قولهم: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، أقوامٌ تتوارث الأمراض نفسها..تشابهت قلوبهم!.

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ﴾ (البقرة/١٣٥).. وهنا يتجه المولى إلى المسلمين محذراً إياهم هذا المسلك المريض، فيقول لهم: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة/١٣٦).فإن آمنا بما أنزل من قبلنا، فقد أخذنا العبرة منهم، واتقينا أمراضهم، وبنينا إيماننا الراسخ، وهذه هي الثمرة..

فربنا وربهم واحد: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (البقرة/١٣٩)..هذا الرب هو نفسه (التواب الرحيم) الذي غفر لمتقٍ قبلنا، أخطأ ثم أناب واعترف بذنبه..﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة/٣٧).

وهو ذاته التواب الرحيم الذي غفر لأمة قبلنا، لكنها لم تنجح في الاستخلاف فيما بعد.. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة/٥٤).

وهو ذاته التواب الرحيم الذي طلبت مغفرته أمة أخرى، نجحت في الاستخلاف، إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة/١٢٨).

وانظر كيف أن النظر في تجارب من قبلنا يعلمنا صفات الله، ومقتضياتها في خلقه، وهذه ثمرة أخرى، فلقد عرفنا ما معنى التواب الرحيم عن طريق تلك الآيات، وعرفنا رحمته وصبره أمام تلك الطباع الخسيسة، والمسالك العنيدة البليدة لشعب كبني إسرائيل، ورغم ذلك منحهم الله الفرصة تلو الفرصة.. فما أحلمك يا رب وأرحمك!.

ويأتي هذا الدعاء الحار في خاتمة البقرة، ليؤكد ما قلناه: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٢٨٦).

وترى المسلمين في هذه الدعوات الصادقة، يرجون ربهم ألا يحمل عليهم إصراً، وألا يكلفهم فوق طاقتهم، كما فعل مع الذين من قبلهم

من بني إسرائيل، حيث شدد الأمر عليهم، ولكن هذا يقتضي أيضاً، ألا نسلك مسالك بني إسرائيل، حتى لا يعاملنا الله كما عاملهم، فالدعاء سلوك وعمل، فإن كانت هذه دعواتكم يا مسلمين، فانتبهوا لأعمالكم، ولا ترثوا أمراض من قبلكم، بل كونوا مع المتقين!.

٧- قال لهم وقال لنا:

بعد أن انتهى التلميح، جاء التصريح....

لقد سرد القرآن الكريم سيرة بني إسرائيل مع موسى عليه الصلاة والسلام، وقد بيّنت لنا تلك السيرة المظلمة كثيراً من أمراضهم الفكرية والسلوكية، وكأنه يلمح للمسلمين: حذار أن تشابهوا القوم في رذائلهم حتى القولية منها، وها هو القرآن العظيم، يعلنها صراحة في أكثر من مناسبة، محذراً المسلمين، قال تعالى:﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ ﴾(البقرة/١٠٨)

إياكم أن تتبدلوا الكفر بالإيمان لأن بني إسرائيل ﴿من قبلكم﴾، تبدلوا الدنيا بالآخرة: ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(البقرة/٨٦). واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير: ﴿قال أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾(البقرة/٦١)..

وهذه خصلة نفاق أصيلة وردت في المنافقين: ﴿أولئك الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ (البقرة/١٦).

سبحان الله ما أظلم البشر!، يرزقهم الله الإيمان فيستبدلون الكفر به، قال الله لبني إسرائيل: قولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين، فبدلوا الكلمة وقالوا: حنطة، استهزاءً.. ﴿فبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾(البقرة/٥٩). بدلوا فتبدلت معهم نواميس الكون، فالسماء التي كانت تنزل المطر ليخرج الرزق للناس ويقيم أسباب حياتهم ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَنداداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/٢٢)أصبحت هي ذاتها مصدر الرجز الذي يسحقهم: ﴿فبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾(البقرة/٥٩). ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(البقرة/٥٧).

وها هي نداءات الله إلينا، تتشابه مع نداءاته إلى الذين من قبلنا، فهو الذي خلقنا وخلق الذين من قبلنا، وأنزل علينا وعليهم، وكتب علينا وكتب عليهم، ورزقنا ورزقهم....

قال تعالى لهم، لبني إسرائيل: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾(البقرة/٤٠).

وقال لنا: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾(البقرة/١٥٢).

قال لهم: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(البقرة/ ٤٥).

وقال لنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(البقرة/١٥٣).

قال لهم: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾(البقرة/٤٣).

وقال لنا: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(البقرة/١١٠).

قال لهم: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾(البقرة/٤٨).

وقال لنا: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾(البقرة/٢٨١).

٨ . تبعيض الإيمان تخريبٌ للمساجد:

أريد أن أقف عند نداءات الإيمان التي خاطب الله بها المسلمين في سورة البقرة، فقد رأيت أن كل تكليف تلاها، كان من التكاليف التي فشل فيها بنو إسرائيل، ونرى هنا، أن الله تعالى خاطبنا: يا أيها الذين آمنوا..لأن الإيمان هو المحرك لفعل كل شيء، لذلك لم ينسب بني إسرائيل إلى هذا النسب العلوي!، بل خاطبهم بنسبهم الأرضي، فقال: يا بني إسرائيل..لأنهم لم يؤمنوا حقيقة، وفضلوا نبات الأرض على رزق السماء!..

وقد عاب الله تعالى عليهم صفة الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر، فقال:﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(البقرة/٨٥).

وأمر المسلمين أن يحذروا هذا الكفر اللبق!: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(البقرة/ ٢٠٨) ..أي ادخلوا في جميع شرائع الدين، ولا تتركوا منها شيئاً.

وندرك هنا أن بني إسرائيل اتبعوا خطوات الشيطان فأزلهم. وكلمة (خطوات) لا تدل على زلل عارض، بل على اقتفاء حثيث خطوة

بخطوة، فما معنى أن تؤمن بالله، ثم تقبل له أمراً، وتكفر بآخر؟!، إن كفرك هو هو لن ينقص ذرة، هل تريد أن تقترح على الله، فتأخذ ما يغازل هواك، وترفض ما يقلقه أو يردعه؟!.

إن هذه الصفة ذاتها، فرعٌ عن شجرة الصفة الأولى التي تحدثنا عنها في موقف سابق، وهي صفة استبدال الكفر بالإيمان، والضلالة بالهدى، والدنيا بالآخرة، والذي هو أدنى بالذي هو خير، والعذاب بالمغفرة، التي امتاز بها المنافقون وخلفهم فيها بنو إسرائيل، وحملها من بعدهم مسلمون!.

الحقيقة أن كثيراً من المسلمين قد أصابتهم هذه العاهة!، ألم يستبدلوا الشيوعية بالإسلام؟، ومن بعدها القومية، والعلمانية، والقبلية والمذهبية والحزبية والإقليمية، وقامت أنظمة كاملة على هذه الأفكار، في السياسة والاقتصاد والعلم والفن والأدب، وحملت هذه الصفة عقول كثيرة، وخدمتها سواعد غفيرة، بل بُذلت الدماء رخيصة في سبيلها، وانحسر الإسلام إلى المساجد والعجزة والمنسحبين من الحياة، وصار رسوماً وطقوساً، تزدان بها الأجساد، وتغفو على صخبها الأرواح. أصبح غريباً يكسوه الغبار في عقول المسلمين ونفوسهم، كالمصاحف المغبرة في بيوتهم، وصار التدين بضع صلوات وأزياء، معزولاً عن أسباب الحياة، وما يمت إليها من حيوية، وإقدام، وكأن الإسلام لم يأتِ ليسوس الدنيا!.

ومن المهازل والسخافات، والجهل العريض بالله ودينه، أن ترى مسلماً علمانياً، يرضى بالله خالقاً، ويكفر به مشرعاً، أو مسلماً شيوعياً، قد يصلي صلاة محمد، لكنه يعتنق دين ماركس، أو مسلماً قومياً، يفتخر بدم محمد، ويكفر بمبادئه وشريعته، ويقدم نسب الدماء حتى ولو كانت كافرة على أخوة الإسلام المؤمنة، أو ترى فتاة تصلي ولا تؤمن بالحجاب، أو زوجاً لا يصلي، ويأمر زوجته بالحجاب، أو العكس، أو شاباً يصوم ولا يصلي، أو شيخاً يصلي ولا يؤتي الزكاة، أو ترى الإسلام يحكم الأحوال الشخصية فقط، في مجتمع مسلم نظامُ حكمه شيوعي أو علماني أو كسرويّ!.

أليس هذا هو الإيمان بجزء من الكتاب والكفر بجزئه الآخر؟.

أليس هذا هو تبدل الكفر بالإيمان، الذي برع فيه بنو إسرائيل، فكان نصيبهم خزيٌ في الدنيا وعذاب في الآخرة؟.

فهل تعجبون من خزي المسلمين اليوم؟!.

لم يظلمنا الله ولكن أنفسنا ظلمنا، ودعك من القناعات النظرية، فسلوك الأفراد هو الذي يعنيني فكثير من يغلّب المصلحة على المبدأ، وينتصر لابن عائلته أو عشيرته أو مذهبه أو حزبه، أو دولته، على الآخر، حتى ولو كان مظلوماً، فيظلمه ويظلم معه الإسلام..

هذه مظالم تضج بها المجتمعات الإسلامية، حتى بين الجماعات الإسلامية نفسها، وإذا قال اليهود: سمعنا وعصينا، فإن المسلمين منذ قرون، منهم من لم يسمع، ولذا لن يطيع لأنه جاهل، ومنهم سمع وعلم ولكنه لم يطع، فهذا نسبه إلى يهود، وليس إلى محمد ﷺ!.

إن تبعيض الإيمان يعدل عند الله تخريب المساجد وتدميرها ومنع اسمه أن يذكر فيها، ويظهر الدليل في خاتمة الآية التالية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾البقرة..

تدبرها واعدلها بهذه الآية:﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾البقرة٨٥.

ستجد أن تخريب المساجد ومنع ذكر الله فيها، ينتهي بصاحبه إلى المصير نفسه الذي يفضي إليه تبعيض الإيمان، وهو خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

إن تبعيض الإيمان ظلم، ودليل على أن الإنسان لم يعلن ولاءه الكامل لله، بل في قلبه ند آخر، يغريه بأخذ ما يوافق هواه، ونبذ ما يخالفه، ومن يوالي غير الله فلن ينصره، ونصيبه الخزي، وهذا المعنى

تصدقه آيات أخرى، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(آل عمران/١٩٢)

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ (فصلت/١٦).

٩ . وقود الثبات وعدة الاستعانة:

وإلى نداء إيماني آخر.. لقد قلنا إن كل نداء إيماني للمسلمين يعقبه تكليف أو تكاليف قد فشل فيها بنو إسرائيل، وأمر الله المؤمنين بها، بعد أن نسبهم إلى الإيمان العلوي، فقال: يا أيها الذين آمنوا...

ومن هذه النداءات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة/١٥٣) ولنتذكر آية بني إسرائيل: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (البقرة/٤٥-٤٦). ولنضم إليهما آية تغيير القبلة عند المسلمين: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة/١٤٣).

كما أمر الله بني إسرائيل بالصلاة، فقد أمرنا بتغيير قبلتها، ليرى من يستجيب ويطيع، وينجح في اختبار الطاعة بلا لجاجة أو عناد، ويؤكد الله تعالى أن كلا الأمرين كبير إلا على الخاشعين (في بني إسرائيل) وإلا

على الذين هدى الله (في المسلمين)، لأنه عندما خاطب المسلمين قال: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ ﴾، وعندما خاطب بني إسرائيل قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

فما وجه الترابط هنا؟..الرابط هنا هو التقوى.

فالذين (هدى الله) و(الخاشعون) هم متقون، لأن الخاشعين يؤمنون بلقاء الله وهذا من الإيمان بالغيب وهي صفة المتقين الأولى:﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(البقرة/١-٣).

والذين هدى الله هم متقون أيضاً، إذ كيف هداهم؟: ﴿..قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى..﴾(البقرة/١٢٠)، وما هدى الله؟.. ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة/٢).

ولنشاهد التطبيق العملي لهذا الكلام في قصة طالوت وجالوت، عندما اجتاز طالوت ابتلاءَ النهر، هو والذين آمنوا معه، ومحّص الموقفُ الأقوالَ والفِعال:

﴿فلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة/٢٤٩)..

من الذي ثبت؟..الذين يظنون أنهم ملاقو الله، ومن هم؟.. إنهم الخاشعون: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(البقرة ٤٥-٤٦)، وما ميزتهم؟..إنهم يستعينون بالصبر والصلاة، فهم كبار بها، وكبيرة على غيرهم، فهل تعجب إذا كانت خاتمة قول القوم: ﴿وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾..لا غرابة، لأنهم استعانوا به، وهل تعجب أيضاً من مجيء ذكر القتال وأنواع الابتلاءات بعد آية الصبر والصلاة التي أمر الله بها المسلمين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾(البقرة/١٥٣-١٥٦).

الصابرون الذين يقولون: ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ آية المسلمين.. والخاشعون الذين يظنون أنهم ملاقو الله، ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ آية بني إسرائيل الأولى تحدثنا، والثانية حدثت بني إسرائيل.

فالصبر والصلاة قد أعانا قومَ طالوت في هذا الموقف العصيب، موقف القتال الذي كُتب عليهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ

هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(البقرة/٢٤٦).

وها هنا موعظة لنا، لقد تولى كثير منهم لما كتب عليهم القتال، لأنهم لم يستعينوا بالصبر وبالصلاة فكانوا من الظالمين: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ -أي الموت- أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ﴾(البقرة/٥٩).. كبلهم ظلمهم، ولقد أمرنا الله بالاستعانة بالصبر والصلاة مثلهم، لأنه أيضاً كتب علينا القتال، وجاء ذكره أيضاً بعد آية الاستعانة بالصبر والصلاة:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/٢١٦)..

لن نستطيع قراءة القتال المكتوب علينا إلا بالصبر والصلاة الذين يثبتان الأقدام حين البأس، فحذارِ أن نرث صفات بني إسرائيل فيمنعنا ظلمنا من البذل والثبات، وقد قال الله تعالى أنه سيكون منا ظالمون.. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(البقرة/١٢٤). ووضح الأسباب والصفات التي تجعلنا ظالمين، وهي ظلمات كثيرة وقع فيها بنو إسرائيل، وها نحن نذكر طرفاً منها، وسنحاول أن نستقصي البقية..

وشتان ما بين من يقول له الله تعالى إن الصلاة كبيرة عليك لأنك لا تؤمن بي، ولا تصدق بلقائي، وبين من يقول له يا من آمنت بي، استعن بالصلاة.

ولا شك أن هذا ينطبق على كل مسلم آمن نظرياً ولم يخالط اليقين قلبه، لأن تصرفات كثير من المسلمين لا توحي بأنه مؤمن بالوقوف بين يدي الله، وإلا فما تفسير من يقتل ويظلم ويخدم الظلمة، ويغش ويسرق ويجبن، ويرتكب الموبقات بقلب بارد، ويموت وهو على هذه الحال!، هذا نقول له: أنت من أحفاد اليهود، لأن النسب نسب الأفكار والأعمال لا الدماء، فسلمان منا آل البيت، وتبت يدا أبي لهب!.

١٠-الشكر من مقومات الاستخلاف:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(البقرة/١٧٢).

وهذا نداء إيماني آخر، يتوجه به المولى تعالى إلينا، فيما يخص نعمه التي أنعم بها على عباده ليعلمنا كيف نتعامل معها، ولكن هناك درس عملي سبق هذا الخطاب المباشر، وتكفي اللبيب إشارة مفهومة وسواه يدعى بالنداء العالي، وهذا الدرس العملي هو موقف بني إسرائيل من النعم الكثيرة التي أنعم الله بها عليهم...

ولنستعرض تلك الآيات:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة/٥٧)، إن ظلم هذه النعمة، وعدم شكرها، لم يضر الله شيئاً، بل عاد ظلماً على أنفسهم، لأنه كان سبباً في سلبها منهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾(البقرة/٥٨)..

فهل شكروا هذا الرغد العريض؟..هيهات!، لقد قابلوه بالفسق والاستهزاء، فأرسلت عليهم السماء التي كانت ترزقهم، أرسلت رجزاً يستحقهم: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾(البقرة/٥٩)..

نعم، إنهم الذين ظلموا، ظلموا أنفسهم: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(البقرة/٦٠)

هل جزاء النعمة أن تفسد في الأرض أم تجعلها لعمارتها، وتستخدمها فيما يرضي الله؟، إن الله يرزقك لتبني جسمك، وتبني أرضه بالخير، وتؤدي واجب الشكر، وإنك لتعجب من طول قائمة النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل!، فبعد كل(إذ) هناك نعمة، لو أردت أن أعددها لطال الحديث، ولا يوازي عجبك هذا، إلا عجبٌ آخر من طول جحودهم وكفرهم وعصيانهم على كثرة تلك النعم!.

لذلك أتى إلينا هذا النداء العالي:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(البقرة/١٧٢). كأنه يلمح إلى أن من قبلكم لم يعبدوني حق عبادتي، لذلك لم يشكروا نعمتي.

وقال أيضاً: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾(البقرة/١٥٢).. وكأني به يقول أن من قبلكم لم يذكرني حق ذكري، ولم يشكر نعمي بل كفرها، وكفرني.

هنا يتجلى لكَ أن الشكر عمارة للأرض لأنه من لوازم عبادة الله ﴿وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، وليس بضع كلمات يهرف بها لسانك.

وهنا معنى عظيم ميز الله به هذه الأمة..فقد قال: فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ، بينما قال لبني إسرائيل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ..﴾ (البقرة/٤٠)..

لم يقل لهم: اذكروني، بل:اذكروا نعمتي، لأن الدابة لا تستجيب إلا إذا أغريتها بالعلف!، وليتهم استجابوا، حتى الدواب كانت أفضل منهم!.

ومن لطائف تفسير هذه الآية أنها تشير إلى نعمة إرسال الرسول عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾(البقرة/١٥٢) .

قال مجاهد في قوله ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم﴾ يقول: كما فعلت فاذكروني(٢).

إن نعمة الهداية هي ذروة النعم، لكن بني إسرائيل كفروا هذه النعمة: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(البقرة/٢١١).

فمن عرف المنعم وعبده، لابد أن يشكر نعمته عن طريق القيام بمهمة الاستخلاف، أما أن تغرق في النعم وتنسى ربها وشكره، فهذا مسلك تترفع عنه كثير من الدواب.

وتأتيك – بعد هذا النداء الإيماني– آية تحريم الميتة والدم والخنزير....

٢–تفسير ابن كثير.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(البقرة/١٧٤).

كأني به – تعالى وهو أعلم – يشير إلى أن من البشر من يبيع آيات الله ويكتمها، ليشتري بها حطام الدنيا، ويأكل الحرام، هذا ما توحي به آية: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارِ﴾، المسبوقة بـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ ويشترون به ثمنا قليلا﴾، لذا فقد قال قبلها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾..

يريدنا أن نأكل من الطيبات ونشكر، ونتجنب مسلك بني إسرائيل وقد قال لهم:

﴿وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾(البقرة/٤١).

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾(البقرة/٧٩).

وما هو ذلك الثمن القليل؟: ﴿أُولَـئِكَ الَّذِين اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(البقرة/٨٦).

إن شكرك لرزق الله في الدنيا، سيجعلك تنال شبيهه في الآخرة، وهيهات أن يشبهه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(البقرة/٢٥).

أما كفرك لرزق الله وهداياته، واستدبار كتابه من أجل أن تأكل من حطام الدنيا، سيجعلك تأكل هذا الحطام ناراً في بطنك في الآخرة، والجزاء من جنس العمل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(البقرة/١٧٤).

١١ – القراءة هي عين العبادة، وعين التقوى والشكر، وعين العمل:

اقرأ = اعبد. لكن، اعبد = اتقِ واشكر.

هذا يؤدي إلى أن: اقرأ = اتق واشكر.

اقرأ تعني اعبد، لأنه عندما أمر بالعبادة ذكر أنه الرب والخالق:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(البقرة/٢١).

وعندما أمر بالقراءة ذكر أنه الرب والخالق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

وهذه المقابلة تفضي إلى أن اقرأ = اعبد، وقد بيّن تعالى أن التقوى والشكر من لوازم عبادته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة/٢١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(البقرة/١٧٢).

وفي آيات العلق إشارة إلى ذلك، عندما قال تعالى: اقرأ باسم ربك، إذ كيف ستقرأ باسمه من غير تقوى، إنها قراءة باسم الله، ووفق معاييره ومنهجه[٣].

اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، أي اقرؤوا باسمه لعلكم تتقون.

أما الشكر فيتضح في أمر القراءة الثاني:

اقرأ وربك الأكرم: إنها إشارة إلى نعم هذا الرب الأكرم التي أسبغها على بني آدم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء/٧٠) .

٣-هناك قراءة أخرى لهذه الآية ستأتي في أوانها.

هذا الرب الذي جعل من العلق إنساناً يعلم، جعل له السمع والأبصار والأفئدة ليعلم، وكيف سيعلم بدون ذلك، بدون وسائل التعلم ومنافذه المتمثلة في الدماغ وحواسه، أليس في ذلك حضٌ على الشكر؟:

﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل/٧٨).

وكلمة الأكرم توحي إليك أنه كلما قرأتَ ستكون قراءتك سبباً لمزيد من العلم والنعم، كأنه يقول اقرأ ولا تخف أو تبالِ، فربك هو الأكرم، كلما قرأتَ، علّمك ما لم تعلم، وأفاض عليك من نعمه..

اقرأ وربك الأكرم الذي جعل لك السمع والأبصار والأفئدة، وعلمك من قبل أن تسأله، ألم يعلم أباك الأسماء من قبل، وانحدر علمها إليك؟: بلى، لأنه الأكرم، فكيف إذا قرأت؟.

اقرأ مع ربك الأكرم، فكرمه كفيل بأن يعلمك ما لم يخطر على قلبك، فتتعلم ما لم تعلم، وهذا المزيد من العلم والنعم الذي تحصل عليه بالقراءة هو ثواب القراءة الشكر، لأن الشكر وحده هو من يأتي به، قال تعالى:﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(إبراهيم/٧).

وقد أسلفنا أن الشكر من لوازم العبادة كما في الآية١٧٢، وبيّنا أن القراءة تعني الشكر، ولابد أن نبيّن أيضاً أن الشكر هو العمل الصالح عينه، قال تعالى:

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(سبأ/١٣).

وقال أيضاً: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾(النساء/١٤٧)، وكم من آية في القرآن اقترن فيها الإيمان بالعمل؟، ولنضرب مثلاً من سورة البقرة نفسها: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة/٨٢).

وانظر إلى هذه المعادلة: شكرتم وآمنتم = آمنوا وعملوا..

ستجد أن الشكر هو العمل، وهو الذي أراده الله منك يوم جعل لك السمع والأبصار والأفئدة: ﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل/٧٨).

فالشكر استخدام هذه القوى المجعولة ﴿السمع والأبصار والأفئدة﴾ للعمل باسم الله، للقراءة باسمه لعبادته. فهل يقابل الأكرم بغير الشكر؟!، خذ من صفة الكرم كرمك، أكرمْ ليكرمك، ولا تنس هذه المعادلات!: اقرأ = اتق واشكر = اتق واعمل = اعبد.

إن القراءة وما تعنيه من معاني العلم والعمل هي سبيل العبادة..

لماذا لم يقل اقرأ وربك الأكرم الذي رزقك كذا وكذا، كان بإمكانه أن يذكر أي نعمة تدل على كرمه البالغ، لكنه لم يذكر إلا العلم والتعلم، لأنه السبيل الأصيل إلى كل شيء، هو النعمة التي ستعرفك بالنعم الأخرى لتشكرها، وهذا المعنى تؤكده آيات الاستخلاف، عندما قال تعالى: وعلم آدم الأسماء كلها، مع أن السياق يقتضي رداً يتناسب مع مفهوم الملائكة، وهو التسبيح بحمد الله والتقديس له، بل كان الجواب: وعلم آدم الأسماء كلها، لأن هذا العلم يجب أن يقود إلى تسبيح الله وتقديسه، وسيأتي تفصيل ذلك في أوانه..

١٢ – الصلاة القائمة ذكر وشكر:

قال تعالى: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

إن الإيمان بالغيب يجب أن ينعكس صلاة قائمة تملأ الأرض ذكراً لله وشكراً، وهي لن تقوم إلا بهدي الكتاب الذي يرسم خرائط العمل للمؤمنين، لذا فإقامة الصلاة متلازمة وتلاوة الكتاب– أي اتباعه– قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾(العنكبوت/٤٥).

إن للصلاة مقصدين، الأول أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، والثاني أنها ذكر لله. وهو أكبر من المقصد الأول[٤].. والذكر هنا لا يعني تلك الظاهرة اللفظية فقط، التي أدمن عليها مسلمو اليوم، ومعاذ الله أن ننكرها، فالقرآن والحديث النبوي صريحان في النص على التلفظ بأذكار معينة، لكن هذا ليس إلا جزءاً من حقيقة المشهد..

وسنعرض الآن أجزاءً أخرى، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة/١٥٢).

إن الذكر ملازم للشكر، اذكروني واشكروا لي.. والشكر هو العمل الصالح كما أسلفنا، هو عمارة الأرض وفق منهج الله، هو العمل الذي يقوم على التقوى والعلم، الذي يملأ أقطار نفسك قلباً ولساناً ويداً.. أي أن ذكر الله – أو الصلاة القائمة – سيثمر الإيجابية التي تنطوي على المبادرات وفعل الخيرات، وهي الثمرة الأكبر من الدفع السلبي للمنكر والفحشاء﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، فذكر الله بما ينطوي عليه من خيرات كثيرة سيقطع الطريق على كل فحشاء أو منكر..

فشتان بين من يكف يده عن الناس فلا يسرق (انتهى عن المنكر)، وبين من يتجاوز ذلك إلى التصدق على الأرحام والفقراء والمساكين

٤- مدخل إلى مقاصد الشريعة، للأستاذ الدكتور أحمد الريسوني، ص١٣.

(ذكر الله وشكره)، وفي كلٍّ خير, لكن أيهما أعلى وأجلّ، فالأول يحد من الفساد، لكن الثاني يحد منه ويزيد في الخير؟.

وهذه المعاني تصدقها وصية النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين قال: ﴿يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَقَالَ: أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ﴾.. إن الاستعانة بالصلاة (واستعينوا بالصبر والصلاة) استعانةٌ بالله (إياك نستعين)، ولكن تستعين به على ماذا؟.

ويجيبك الدعاء: أي تستعين به على ذكره وشكره وحسن عبادته، والذكر والشكر عنوانان جامعان لكل عمل الخليفة في هذه الأرض!، فأنت في كل صلاة تطلب معونته تعالى ليعينك على مهام الخليفة، ثم يأتي هذا الدعاء الذي علمه النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ رضي الله عنه ليقوله دبر كل صلاة، ليؤكد هدف الصلاة القائمة في الذكر والشكر، الذكر الذي يعني الإيمان بالغيب والارتباط بالله تعالى(التقوى)، والشكر الذي يعني العمل الذي تبر به الإنسان وتسخر به الأكوان مستخدماً ما وهبك الله تعالى من سمع وأبصار وأفئدة وأرزاق كثيرة (ومما رزقناهم ينفقون)، وهذا التسخير لن يكون بلا (العلم)، فالصلاة هنا وسيلة لبناء الحضارة الربانية، وسيلة لضبط نبض قلبك على ذكره، وعمل عقلك ويدك على شكره..

كأنك تتزود من صلاتك بالطاقة، ثم تعمل دبرها على عمارة الأرض باسم الله، وهذا هو عين الذكر والشكر، أو التقوى والعلم، فما معنى أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك ما إن تفرغ منها؟!، أليس في هذا، طلب منه تعالى أن يجعل صلاتك قائمة مثمرة؟.

وهل حسبت أن اطمئنان قلبك يأتي بحركة لسانك في بعض الأذكار؟..هيهات!، وانظر في هذه الآية البديعة:﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾(الرعد/٢٨-٢٩).

من هم الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ؟..إنهم: الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ.

أي أن: الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ = الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ.

وتذكر أننا استنتجنا في الفقرة التي قبل هذه الفقرة أن:

آمنوا وعملوا الصالحات = شكرتم وآمنتم.

وإذا انقطع الإنسان عن ذكر الله قلباً ولساناً ويداً- أي لم تقم صلاته - فستخلو الطريق لإبليس ليفعل فعله، فيمنع الإنسان عن فعل الخيرات، بل يأمره بنشر الفساد، أي لا يكتفي بالسلبية تجاه الخير، بل ينتقل إلى الإيجابية في فعل الشر، قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/١٦٩).

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٦٨).

وهذا المعنى ينطبق على الإنسان والحضارات، أي أن غياب حضارة التقوى التي تنشر الخير وتكبت الشر، سيخلي الطريق لحضارات الطاغوت(٥)، التي تنشر الفساد في الأرض وتسفك الدماء.

فهل أدركت أن صلاتك مشروع حضارة سامقة، وأن هذه الحضارة تبدأ من شؤونك الشخصية الصغيرة.

إن الحضارات الكبرى لن تبنى إلا عندما تصبح همّاً يومياً لكل فرد من أفرادها، أي أن يكون معظم أفرادها على وعي برسالتها، فتصبح جزءاً من عملهم اليومي، وكأنهم مشاريع صغيرة، على طريق تحقيق المشروع الكبير..

١٣-البرُّ من مقومات الاستخلاف:

وإلى نداءات إيمانية جديدة، فشل بنو إسرائيل في أدائها، وخصنا الله بها، بعد ذلك النداء العلوي الحاني: يا أيها الذين آمنوا.. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(البقرة/٢٥٤).

٥- سيأتي تفصيل أكثر حول هذه الفكرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٢٦٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(البقرة/٢٦٧).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(البقرة/٢٧٨).

إن أي تأمل بسيط في الآيات السابقة، ينبئك أن الشكر هو اللحمة التي تربط نسيجها جميعاً، وقد أشار الله تعالى إليه إشارة بلا تفصيل في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(البقرة/١٧٢).

لكنه حدد في هذه الآيات أحدَ أشكاله، وهو الإنفاق، وحض على أخلاقه المتمثلة في بذل الطيب المحبوب إلى النفس، وفي تجنب المن والأذى، فإذا كانت غايتك وجه الله وابتغاء مرضاته، فلماذا تمن على من تصدقت عليه، أو تؤذيه بقول أو فعل، فتنسب الإحسان إليك؟، فمن الذي رزقك وقوّاك على الكسب؟، ومن الذي أعانك على شح

نفسك فأنفقت؟. كما حض الله تعالى على ترك الربا الذي يعاكس الإنفاق. وهذا هو شكر النعم الذي تحدثنا عنه في النداء الإيماني السابق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(البقرة/١٧٢). كلْ و تنعّم، ولكن لا تنسَ الجياع، لا تنسَ أن تبذل للحق في معركته الأزلية الأبدية مع الباطل، حدث بنعمة ربك بالإنفاق، ولا تجعل حظك من الشكر حركةَ اللسان فقط، لأنها مؤونة سهلة، ولقد فشل بنو إسرائيل في شكر نعم الله عليهم كما أسلفنا.

ولنتناول الموضوع من زوايا أخرى....

إن ما ذكرته النداءات الإيمانية عموماً، يضم طائفة من الأعمال الصالحة، وتفصيلاتٍ لعنوان مجمل هو (البر) الذي شرحت تفصيلاته هذه الآية الرائعة، قال تعالى:

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾(البقرة/١٧٧).

كما تضمنت آية البر الحث على إقامة الصلاة والصبر الذي تضمنتهما آية سابقة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(البقرة/١٥٣)، التي ناقشناها سابقاً، وبّينا كيف فشل بنو إسرائيل في الاستعانة بالصبر والصلاة - إلا قليل منهم.

كما حثت آية البر على الوفاء بالعهد، ويشمل ذلك جميع أنواع العهود بدءاً من العهد مع الله إلى العهود مع البشر، كما جاء في التفاسير.

ولنرَ مسالك بني إسرائيل في هذه القضايا. قال تعالى مخاطبا القوم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ **بِالْبِرِّ** وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة/٤٤).

من الواضح أن كتابهم كان مليئاً بالحض على أعمال البر من إنفاق وإقامة صلاة وإيتاء زكاة، والتخلق بصفاته، من إيمان وصبر ووفاء بعهد، فالقوم يتلون الكتاب، ويعرفون ما فيه، لكنّ حظهم من البر هو نفاق ألسنتهم، وخواء قلوبهم من أي يقين، وجوارحهم من أي عمل، كما أن القوم قد عُرفوا بأكل الربا..

وقد بيّن المولى تعالى بعضاً من تفصيلات البر في آية أخرى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ

الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ﴾(البقرة/٨٣)

نعم، قد تولوا.. فكم متولٍ منا– نحن المسلمين – عن هذه القضايا؟.

ولنرَ موقفهم من الوفاء بالعهد: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(البقرة/٤٠).. هنا تلميح أنهم لم يفوا بعهودهم في القديم، وها هو يحثهم على الوفاء بها في الحديث، فقد ذكّرهم الله تعالى بالعهد الذي أخذه عليهم في كتابهم على إتباع النبيﷺ، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(البقرة/٩٩–١٠٠).

وبماذا وصف الفاسقين؟ لقد قال عنهم: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(البقرة/٢٧).

فاليهود لا عهد لهم، فماذا عن عهدنا مع الله الذي أخذه علينا في القرآن؟ أليس نصيبنا منه حركة الألسنة وخواء الأفئدة، ألم يصبح ديننا مراسيم، وطقوساً؟.

إن لم نتجنب خيانات بني إسرائيل من قبلنا، ونكثهم لعهدهم مع الله، فإن ظلمنا سيجعلنا معهم، ويجعل نصيبنا من ديننا ونبينا الأماني، وإليك النذير: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة/١٢٤).

١٤-الأخوة من مقومات الاستخلاف:

بعد صفحات فساح من الحض على الإنفاق (ثلاث صفحات تقريباً)، في أكثر من نداء إيماني (يا أيها الذين آمنوا)، تأتي أطول آية في القرآن، وهي آية المداينة، يعلوها نداءٌ إيماني أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٨٢).

وإن المرء ليعجب حقاً من ذلك الخطاب الطويل في الحض على الإنفاق، والتخلق بآدابه.. لماذا يا ترى؟.

يبدو أن منعه كان من أكبر رعونات بني إسرائيل، وكيف لا، ومنعه يعني أنك لم تشكر نعم الله، إن عدم الشكر يعني أنك لم تعبده!: (واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون).

ولو فكرنا لوجدنا أن الإنفاق من أهم العوامل التي تبني المجتمعات بناءاً مادياً ومعنوياً.. معنوياً: لأنه يقوي الترابط بين المسلمين، ويستبدل المحبة والتراحم والإخاء، بالحسد والبغضاء والحقد. ومادياً: لأن الإنفاق في سبيل الله يبني القوة التي تدفع الظلم، وتنشر الحق، وتحمي الكيان الإسلامي من المتربصين به.

ولنعد إلى آية المداينة، لقد جاءت بعد الحض على الإنفاق والتصدق، وهو قمة الإيجابية والإحسان، وبعد النهي عن الربا وهو قمة السلبية والكفران.

ولا شك أن التداين من الأسباب التي تقوم عليها الحياة، وهو باب من أبواب الإعانة يقدمها المسلم لأخيه المحتاج، لكن بشرط أن يحاط هذا الدَين بسياج من القانون (كتابته والإشهاد عليه) وبسياج من التقوى ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٨٢)، حتى لا تضيع الحقوق، وتسود الخصومات، ويتحول التداين إلى سبب فرقة وتناحر.

يجب أن يعضد التداين الإنفاق والتصدق، وإن كان أقل رتبة عنهما، فالتداين قد يظاهر مع الربا بالمضرة، إن لم يكن كما أمرنا الله، وقد يعين كالإنفاق، والربا والبخل من شيم بني إسرائيل، فالدَّين الذي لم يُضبط، يسيء إلى الأخوة بين المسلمين، ويهدم بنيان التقوى، فإن لم تنفق وتتصدق، فلا تتعامل بالربا، وتأدّب بضوابط الدَّين،

وهذا أضعف الإيمان في هذه القضية. ولنرَ كيف يتعامل بنو إسرائيل مع بعضهم البعض: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(البقرة/٨٤-٨٥)

لقد أمرهم الله بألّا يقتل بعضهم بعضاً، وألّا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، فماذا فعلوا؟:

جاء في تفسير ابن كثير: (كانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينه ونص كتابه، ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال).

وما أقسى الخروج من الديار!، إن التعلق بالديار والأوطان، يجري في القلوب كالدماء، وجرم الإخراج منها كسفك الدماء، لذا فقد ورد

الإخراج مجاوراً للسفك في الآية، وهو من نكث المواثيق التي أخذها الله تعالى على بني إسرائيل. وللأمر شجون أخرى:

قال تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾.

إن الجهاد في سبيل الله هو عينه الجهاد بسبب الإخراج من الديار والأبناء، وتساءلت في نفسي لماذا لم يقولوا: وقد أخرجنا من ديننا وعقيدتنا مثلاً؟!..ولكن، لا.

إن الإسلام دين يحترم فطرة البشر وحقيقتهم، والسكن في الديار هو الجو الذي يرسخ فيه الدين، وتغرس فيه الفضائل وتصان، فالحفاظ عليه حفاظ على الدين نفسه.

وأجد قريباً من هذا المعنى في هذه الآية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٤٣-٢٤٤).

فهناك من يهجر دياره فراراً من الموت رغم قدرته على إعداد العدة (وهم ألوفٌ)، لكن الله يفجعه بالمصير الذي فر منه!: (فقال الله لهم

موتوا)، والموقف الصحيح يقتضي أن تثبت وتأخذ بالأسباب المتاحة، وأشير إليها هنا بـ(السميع العليم)، لأنها تعني الدعاء والاستعانة بالله، والدعاء قول وعمل، حالة قلب، وحالة أيد، كما سيمر معنا لاحقاً.

وأنا مع التفسير الذي يرى أنهم خرجوا من ديارهم خشية الموت من القتال وليس الطاعون، لأن الأمر بالقتال جاء بعدها، وهذه ما تصدقه آية: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا..﴾.

وتستطيع أن تسافر بفكرك في أرجاء العالم الإسلامي، لترى المسلمين كيف يظاهرون أعداء الإسلام – من يهود ونصارى – على بعضهم البعض، ويكونون سبباً في قتل إخوانهم وفي إخراجهم من ديارهم، هل هذا هو الإنفاق الذي حضنا الله عليه، لنزكي أنفسنا، وإخواننا، ونقوّي كياننا وسلطاننا؟، أم أنه ميراث بني إسرائيل؟.

والغريب أن هؤلاء المسلمين يصلّون ويصومون ويحجون ويعتمرون!، أي يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وما هي النتيجة؟....

إليكم الجواب: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(البقرة/٨٥) فلنستمتع بخزينا!.

١٥-النداء الأول: حقيقة القوة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ،وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(البقرة/١٠٤).

جاء في التفاسير أنها دعوة لمخالفة بني إسرائيل في تلك الكلمة، لما فيها من معنى قبيح عندهم ينطوي على السب والاستهزاء وقد كانوا يلوون ألسنتهم بها، ليستهزئوا بالنبي عليهم لعنة الله.

وقال صاحب المنار:(أي لا تكونوا كهؤلاء الغلاظ القلوب الذين قصصنا عليكم خبرهم، أو الذين عرفتم سوء أدبهم مع الأنبياء، بل اجمعوا بين الطاعة والأدب).

لكن الكلمة انتهى عصرها، فما نصيبنا - نحن- منها؟.

الذي أميل إليه من التفاسير ما جاء في تفسير الطبري والمنار(بتصرف): أن الله منع الصحابة من قولها لما فيها من معنى الندية والمساواة، أي ارعنا نرعك، وهي في اللغة تعني المفاعلة أي تفعل بنا ونفعل بك، وهذا سوء أدب مع رسول الله، لأن تبجيله وتوقيره مرتبط بتعظيم الله الذي أرسله، وهذه من رذائل بني إسرائيل، أمرنا الله أن نتجنبها، وفي هذا توجيه لنا، لنأخذ ديننا بقوة، ونتعلمه بأدب وانقياد، دون استهزاء وغلظة، كما فعل بنو إسرائيل.

وقد تتبعت هذه الصفة في بني إسرائيل، ووجدت لها ملامح قرآنية واضحة، حيث يظهر استهزاؤهم، وقلة أدبهم مع موسى عليه الصلاة والسلام في قصة البقرة، فعندما قال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، قالوا: أتتخذنا هزواً؟!.

هل يمكن لمؤمن أن يقول لنبي مرسل هكذا!؟، كيف ظنوا أنه قد يستهزئ بربه أو يكذب عليه، فينسب إليه أمراً لم يأمر به وهو نبي منزه عن هذا الاستهزاء والكذب، ألم يؤمنوا بنبوته؟!، لكن كما قال الشاعر:إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه.

ولقد بينا أن الاستهزاء صفة أصيلة فيهم، ورثوها عن المنافقين، و بدهيٌ أن يظنوا أن نبيهم يستهزئ بهم، فكل امرئ يرى في الناس ما يمتلئ بقلبه من رذائل أو شمائل، فالكاذب يظن الكذب سهلاً عند الآخرين، لذلك لا يصدقهم، وكذلك المستهزئ.

وهناك آية أخرى في قصة البقرة، تشير إلى سوء أدبهم ورعونتهم، فبعد جدال طويل مع موسى، وعناد واستكبار حول أوصاف البقرة قالوا له: (الآن جئت بالحق)!.

ويْحكم!، وماذا كان يقول قبله؟!، هل هو الباطل؟!، انظر إلى لمزهم لنبيهم بالكذب!، هذه إشارات تدل على أن القوم مؤهلون للكذب على الله، ولديهم قابلية لتحريف كتابه. وجملة (إن الله يأمركم) تخلع

نياط القلب لكل مؤمن صادق..إن (الله) يأمركم..الله يا ناس!، وظلوا يرثون هذه الرذائل كابراً عن كابر ....

وتظهر هذه الصفة في الملأ منهم، من بعد موسى: عندما قال لهم نبيهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٤٧).

يقول لهم نبيهم: إن الله قد بعث لكم، فيردون: أنى يكون له الملك ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال؟! أتشترطون على الله، وتلزمونه بمقاييسكم؟!، ما هذا التطاول والاستكبار الإبليسيّ؟!.

وكأن القوم يتواصون بهذه الصفات ويوصون أبناءهم، فاليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ، كانوا يقولون راعنا ويلوون ألسنتهم بها ويتضاحكون استهزاء، ولا عجب، فأسلافهم قالوا: حنطة واستهزؤوا بأمر الله من قبل، لذلك لم أعجب أن الله أخذ عليهم في الميثاق أن يقولوا للناس حسنى، فالقوم ألسنتهم طويلة، وغير مؤدبين: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ﴾(البقرة/٨٣).

هل هذه كانت وصية يعقوب لهم؟: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة/١٣٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾(البقرة/٩٣).

قال لهم: خذوا ما آتيناكم بقوة (واسمعوا)..قالوا: سمعنا وعصينا. وقال لنا: لا تقولوا راعنا (واسمعوا)..قال أسلافنا: سمعنا وأطعنا.وجاء بعد مقولته لهم: واشربوا في قلوبهم العجل(بكفرهم).وجاء بعد مقولته لنا: (وللكافرين) عذاب أليم.إن هذه الخلال بريدٌ للكفر، فحذار يا أيها المسلمون، يا أيها الذين آمنوا..

ونجد – إذا قابلنا– بين طرفي الآيتين: (خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) آية بني إسرائيل = (لا تقولوا راعنا واسمعوا) آية المسلمين، أي خذوا دينكم بقوة يا أيها المؤمنون، وتأدبوا في أخذه من نبيكم، أو من ميراثه بعد موته. فاليهود لأنهم مستهزئون قالوا لموسى: أتتخذنا هزواً. ولأنهم يكذبون ويفترون الباطل، قالوا له: الآن جئت بالحق، وكأن قبله الباطل!. ولأنهم لووا ألسنتهم بكلمة راعنا: فقد حرفوا كلام الله!.

قال تعالى لنا: قولوا انظرنا واسمعوا... وكلمة (انظرنا) لا تعني فقط مخالفة قول اليهود كما أسلفنا، بل هي بوابة لاحترام قرآننا وسنة نبينا، وما تضمنا من أوامر وأدبيات، وألا نشترط على الله، ونقرر له ماذا يفعل ويشرع كما فعل يهود، هل يليق أن تقول للنبي مثلاً: اسمعني كي أسمعك، وتجعل نفسك نداً له؟، يجب أن تقف أمامه كالتلميذ المؤدب.

واسمعوا:

بوابة للطاعة بلا استكبار وتمرد، وهذا هو ميراث نبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(البقرة/١٣١)، وهذا ميراث أسلافنا الكرام: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة/٢٨٥).

نعم.. سمعنا وأطعنا، وهذه هي الحكمة من النداء الإيماني الأول، أن نأخذ أوامر الدين بقوة، ونخالف اليهود في سيرتهم المريضة مع نبيهم، لأن النداءات الإيمانية التالية كانت كلها تكليفات من ضمن الدين، فكان من المناسب أن يأمرنا الله تعالى أن نأخذ كتابنا بقوة، ونتجنب الجدل والاستهزاء، وما إلى ذلك.

لكنَّ كثيراً من مسلمي اليوم لم يسمعوا ولم يطيعوا، وما أكثر المستهزئين منهم بالدين وبالأحكام والحدود، والمستكبرين عليها.

قال لي أحدهم: (أنا لست مقتنعاً بالصيام، كيف لك أن تمنع معدتك عن الطعام ثم تملأها بمقادير ضخمة منه بعد كل تلك الساعات، هذا مضرٌ وغير معقول، ودعك من سخافات الشعور بالفقراء التي تزعمون تحققها بالصيام)! قلت له مباشرة: أو لستَ مسلماً؟ وذهب حديثي هباء في أودية غفلته وغروره السحيقة..

إن هذا التائه لم يفقه دينه، ولم يفقه أن الإسلام أن تخضع لله، كيف تسلم به رباً ثم تعترض على أمره؟!، ولا غرابة فله سلف من قبله، شابه قلبه قلوبهم، فقال مثل قولهم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾.

وهو يقول كيف نصوم وهو يضر بالمعدة!، هذه ليست حالة فردية بل عنواناً عريضاً لجماعات كثيرة، فكثير من مسلمي اليوم كاللقطاء الذين لا يعرفون شيئاً عن دينهم إلا أمانيّ، وهذه رذيلة أخرى من رذائل بني إسرائيل، سنناقشها في وقتها.

١٦ . القصاص من مقومات الاستخلاف:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(البقرة/١٧٨).

لقد جاءت آية القصاص بعد آية البر، قال تعالى:

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(البقرة/١٧٧)

حيث أمر الله تعالى بالإنفاق في وجوه كثيرة مما يعزز الإخوة بين المسلمين.

ومفرداتُ البر – وعلى رأسها الإيمان بالله واليوم الآخر– وصفات علاجية تحفظ المجتمع وتنشر المحبة والخير وتشد أجزاءه إلى بعضها البعض برابط من التراحم والتلاحم، فالبر هو محطة التصفية الأولى لتنقية المجتمع من أمراضه، ولكن هذا لا يمنع من وجود المارقين الخارجين على هذه المواثيق الراقية، المفسدين للحياة..

ومن أعلى أنواع الفساد القتل وسفك الدماء، وهنا يأتي دور القصاص، كمحطة تصفية ثانية، ليستأصل المرض ويقيم الحياة،﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(البقرة/١٧٩).

ونجد أن الله تعالى–حتى في القصاص – يفضل العفو على القصاص، حيث استعمل لفظة (الإخوة) لاستدار العطف والتراحم بين المسلمين: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ .

وهذا الترتيب بين آية البر وآية القصاص، يشير بوضوح، أنه لا حدود قبل إشباع ضرورات الناس وإقامة أسباب الحياة الكريمة لهم، فكيف تقطع يد السارق مثلاً، وهو جائع، فلو أخذ المسلمون بآية البر لتلاشت أمراض كثيرة، وعلى رأسها القتل والسرقة والزنا، لأن هذه الكبائر هي نتائج لمقدمات كثيرة تفتك بالمجتمع، وعليك أن تعالج أسبابها الصغيرة التي أدت إليها، وكثير من جرائم القتل تحدث بسبب أكل الأموال وضياع الحقوق، واختفاء الإنفاق والتصدق الذي يزكي النفوس ويزيل الأحقاد وينشر المحبة بين الناس.

لكننا اتبعنا سنن بني إسرائيل في منع البر، ألم يقل تعالى لهم:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾(البقرة/44).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ﴾(البقرة/٨٣).

وبعد أن منعوا البر، فتكت بهم أمراض هذا المنع، فكان لابد من الحدود، ومنها القصاص في القتلى، لأن منع البر سيؤدي إلى الظلم والقتل وأكل الأموال، لكنهم حتى في القصاص لم يعدلوا!..

فقد جاء في تفسير ابن كثير حول آية القصاص ﴿كَانَتْ بَنُو النَّضِيرِ قَدْ غَزَتْ قُرَيْظَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقَهَرُوهُمْ، فَكَانَ إِذَا قَتَلَ النَّضَرِيُّ الْقُرَظِيَّ لَا يُقْتَلُ بِهِ، بَلْ يُفَادَى بِمِائَةِ وَسْقٍ مِنَ التَّمْرِ، وَإِذَا قَتَلَ الْقُرَظِيُّ النَّضَرِيَّ قُتِلَ بِهِ، وَإِنْ فَادَوْهُ فَدَوْهُ بِمِائَتَيْ وَسْقٍ مِنَ التَّمْرِ ضِعْفِ دِيَةِ الْقُرَظِيِّ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ فِي الْقِصَاصِ، وَلَا يَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ الْمُحَرِّفِينَ، الْمُخَالِفِينَ لِأَحْكَامِ اللَّهِ فِيهِمْ، كُفْرًا وَبَغْيًا﴾.

وسبحان الله!..إن سفك الدماء هو ما تخوّفته الملائكة من هذا الوافد الجديد:

﴿قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾ (البقرة/30)

فماذا فعل بنو إسرائيل؟ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (البقرة/85).

وما أجمله تعبيراً، أن يقول الله عز وجل لا تسفكون دماءكم ولا تقتلون أنفسكم، إن قتل المسلم لأخيه المسلم يعدل قتله لنفسه، لأنه يقتل إخوة المسلمين، ويمزق جسدها شر ممزق، وكذلك إخراجه من داره، وحديث النبي ﷺ يصدق هذه الآية: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى شيئاً تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

فعندما تقتل أخاك، كأنك تمسك السكين بيدك وتطعن عضواً آخر من جسدك، فلا تقتلوا أنفسكم!، وإذا كان في القتل موت، فإن في القصاص حياة، لكنّ بني إسرائيل لم يعدلوا في القصاص ونحن عطلناه!.

١٧- دورة سنوية في الاستخلاف:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(البقرة/١٨٣)

لقد سُبقت آيةُ الصيام بأربعة نداءات إيمانية إضافة إلى آية البر:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(البقرة/١٠٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(البقرة/١٥٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(البقرة/١٧٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(البقرة/١٧٨)

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(البقرة/١٧٧).

وقد قلنا إن البر هو محطة التصفية الأولى لأمراض المجتمع، ومناخ خصب لنمو بذور الأخوة بين المسلمين، يتلوه القصاص، كمحطة تصفية ثانية، تزيل الأعشاب الضارة التي قد تتطفل على جنّات البر المبهجة، وأرى أن موقع القصاص من البر، كموقع الدَّين من الإنفاق، أي إن القصاص والدَّين محض عدل، بينما البر والإنفاق فضل وإحسان، وكما تقدمت آيات البر والإنفاق والتصدق على آيات

القصاص والتداين، فالفضل والإحسان مقدمان – لاشك – عند الله، للتعامل بين المسلمين.

وبعد هذه الآيات (النداءات الإيمانية وآية البر) يأتي الصيام، كدورة مكثفة لأعمال البر، فقد ختمت آية البر بـ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، وختمت آية الصيام (لعلكم تتقون).. وكأن الصيام وسيلة للبر، ففيه من الدروس والتدريبات ما يجعلك متقياً، وهذه النتيجة (المتقي) هي خاتمة آية البر، ولو تأملنا في مفردات البر التي ذكرتها الآية الكريمة لوجدناها تفصيلات لصفات المتقين التي ذُكرت في مطلع سورة البقرة، فلا غرابة أن تكون خاتمتها..وأولئك هم المتقون:

﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ = ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ = ﴿لكن البرمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ﴾ .

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ = ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

﴿والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ = ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ ...وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾.

ولو تأملنا أيضا في النداءات الإيمانية التي سبقت آية الصيام، لوجدناها تنضوي تحت لواء البر، ففي النداء الأول حضٌ على أخذ كل تفاصيل الدين بقوة، بطاعة وأدب، وفي النداء الثاني حضٌ على الاستعانة بالصبر والصلاة، وفي النداء الثالث، حضٌ على شكر نِعَم الله بالإنفاق، فكأن هذه النداءات كالجداول الصغيرة تلتقي من جهات مختلفة لتشكل نهر البر العظيم، أو كأنها نداءات لينة تنساب هادئة حتى يعلو هديرها في شهر الصيام..

فهو دورة البر المثلى، فأولى ثمراته التدرب على مراقبة الله تعالى وهذا هو (الإيمان بالغيب)، فما الذي يمنعك من الأكل والشرب وأنت وحدك؟. وهو شهر الإنفاق، كان عليه الصلاة والسلام من الجود كالريح المرسلة في شهر رمضان، وهو شهر الإقبال على القرآن، وهو شهر الصلاة، وشهر الصبر. وفيه تتعلم على الوفاء بالعهد مع الله، حيث تنوي من اليوم الأول على الصيام والقيام إلى نهاية الشهر، وتفطر وتصوم في وقت محدد، إنه بر في بر، وتقوى في تقوى ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ (البقرة/١٨٩).

وقد بيّنا في كلمات سابقة كيف فشل بنو إسرائيل في أعمال البر، وفي هذا دليلٌ على أنهم لم يستفيدوا من صيامهم، لخلوّ رصيدهم من أي تقوى وبر، بل سيرتهم ملأى بسفك الدماء والربا وكثير كثير من رذائل النفس واليد.

١٨- عيد ميلادك:

قال تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(البقرة/١٨٥).

إن هذا الشهر عيد ميلاد القرآن، وعيد ميلاد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، إنه النعمة العليا، نعمة الهداية.

فالحمد لله الذي هدانا إلى أحكام رمضان، أحكام شهر الهدى، فهو هدى ضم هدى (القرآن)، وبينات من الهدى، ويجب أن نشهده بصيامنا، لأنه شهرٌ شهد نزول القرآن، وما رمضان إلا وسيلة إلى القرآن، و لما كان هدى للمتقين، فإنه لا بد لهم من وقفة أو وقفات من عمر الزمن مع هداهم، يجددون أرواحهم بالاتصال بروحه، ليصقل خصائصهم ويرفع ما درَسَ من قواعدها بسبب أهواءِ النفس، وعواصف الحياة والأحياء، ويرمم ما صدعته الذنوب والغفلات، لكي يحملوا هذا الهدى إلى الناس، فيكونوا من الناس، ككتابهم منهم، منارات بر وتقوى، هو هدى لهم، وهم هدى للناس، هو فرقانهم، ليصبحوا فرقاناً للآخرين يقتدون بهم، ويسلكون سبيل الرشد.

(وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ):

فالتكبير ذكر لله لأنه أرشدنا إلى ما فيه هدايتنا، اذكروا الله وعظموه وانسبوا إليه الفضل، إنها فرحة الإنجاز بعد أداء المهمة، بعد إنهاء هذه الدورة التدريبية في فن الهدية، ومهارات البر والتقوى، لتثمر البر والشكر، لتنقل الهداية إلى غيرك، وتحيي الأخوة ببرك، وهناك من تعلو صيحاته مع تكبيرات العيد، وهو مشاحن لأخيه، ولا يرضى أن يصله، وربما كانا طوال رمضان يصليان في مسجد واحد!..

وما أشبه هذه الخاتمة بخواتيم الحج، الدورة التدريبية الأخرى بعد رمضان، قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ﴾(البقرة/١٩٨). ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُم أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾(البقرة/٢٠٠) .

ولا غرابة، فالحج وسيلة أخرى من وسائل البر والتقوى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾(البقرة/١٩٧). ﴿وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ **اللّهَ** وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(البقرة/٢٠٣).

لقد أوحت إليّ هذه الآية أن العبرة في جوهر الأشياء لا في صورها، الأهم هو النتائج لا الشكليات، والمثال هنا: أن التقوى هي الأساس، فمن تعجل ومن تأخر لا ضير في ذلك مادام متقياً.

(ولعلكم تشكرون):

إذا هداكم الله وأصبحتم من المتقين، فالشكر أن تنقلوا هذه الهداية لغيركم من الناس، ألم يقل (هدى للناس).. أم سوف تستأثرون بالهدى لأنفسكم، وتجعلون الرب وقفاً عليكم أو على جنسكم، كما فعل بنو إسرائيل: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة/١١١). أليس من شكر المال أن تنفق منه في سبيل الله، فمن شكر الهداية أن تنقلها لغيرك.

وكما جاء (ذكر الله وشكره) بعد هداية رمضان وتبيان رخصه وعزائمه، فقد جاء ذكره وشكره أيضاً بعد ذكر سبب الهداية وحامل الهدى عليه الصلاة والسلام:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾(البقرة١٥١/١٥٢).

وانظر إلى الآية التي قبلهما: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ

لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(البقرة/١٥٠)..ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون، وقد قال تعالى عن النبي في مكان آخر: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(الشورى/٥٢).

وعلى الأمة أن تهدي من بعده إلى صراط مستقيم، فهل هي كذلك الآن؟، إن المسلمين اليوم هم السبب الجامع المانع للصد عن سبيل بسوء فهمهم لدينهم وجهلهم ومرضهم وفقرهم، إنهم عالة على الأمم، فهل هذا هو الشكر الذي تعبدنا الله به؟!

رمضان يتلو رمضان، نخرج وندخل بلا تقوى وبلا بر، وبلا هداية وبلا شكر، جعلنا من رمضان موسم بر بالبطون، والعيون، ومع فجر العيد نكبر الله بألستنا، وفي نفوسنا شيٌ أكبر، إنها بدعة ما عرفها أسلافنا، نخرج من رمضان وخصوماتنا هي خصوماتنا، وبخلنا هو بخلنا، وكسلنا هو كسلنا، وظلام أروحنا هو هو، عاجزون عن هزيمة أنفسنا بل عدونا، بينما كان رمضان هو شهر الانتصارات في الأمة، وعلى رأسها معركة بدر وفتح مكة!.

أليس غريباً أن تأتي هذه الآية مباشرة بعد آيات الصيام: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(البقرة/١٨٨)!.

إذا صمت شهراً كاملاً عن الطعام والشراب، فلماذا بقيت تأكل حقوق أخوتك، وتحتال لتأكل المزيد، هل هذا هو البر الذي تعلمته من رمضان؟، رمضان كان يريد منك الإنفاق، وإذا بك تأكل الأموال بالباطل!، إنه رجس اليهود الذي لم تغسله كل هدايات السماء، وأحسبك تقرأ البقرة وتبكي!.

هذه هي النعمة العظمى يا أيها الذين آمنوا، إنها نعمة الهداية التي لم يشكرها بنو إسرائيل: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(البقرة/٢١١). ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(البقرة/٥٣).

الكتاب والفرقان (بنو إسرائيل) = هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان (المسلمون).

ولعلكم تهتدون (بنو إسرائيل) = ولأتِمّ نِعمتي عليكمْ ولعلَّكم تهتدون (المسلمون).

لكن بني إسرائيل رفضوها، رفضوا هذا الروح العلوي، لأنهم التصقوا بطين الأرض، مثلما استبدلوا نبات الأرض من ثوم وبصل، بغذاء السماء من منّ وسلوى!، وها نحن على آثارهم سائرون....

وتأتي آية الدعاء بعد آية الصيام المختومة بالشكر:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(البقرة/١٨٦).

كأنه يقول: ادعوني لكي أهديكم دائماً، وهذه الدعوة القولية (إذا دعان) يجب أن تعضد بحركة فعلية (فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي).. وهي طاعة الله فيما أمر والإيمان به، والإيمان قول وعمل، وسيكون الرشد والهداية ثمرة ذلك (لعلهم يرشدون)...

فالدعاء هو أحد الوسائل الأساسية في مهمة الاستخلاف، وهو لازمة لا تنفك عن الإيمان بالغيب الذي بدأت به السورة، وقد منَّ الله علينا بنعمة الهداية في غير موضع من سورة البقرة، بينما منَّ على بني إسرائيل بالنعم المادية.

نعم، لقد ذكر نعمة الهداية من جملة النعم التي أنعمها عليهم، لكنه حدثهم عن علف أجسادهم أكثر من صلاح قلوبهم، لأنهم لا يفهمون إلا بهذه اللغة، فهيا إلى الدعاء....

١٩-الدعاء من مقومات الاستخلاف: السميع العليم ١:

الدعاء وما أدراك ما الدعاء!، إذا اتجه إليه قلبك بالعبادة، فلتتجه إليه جوارحك بالاستعانة، والحديث الصحيح: الدعاء هو العبادة.

وأفهم من هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة/٢١)... أفهم منها أيضاً: ادعوا ربكم لعلكم تتقون، والصيام كتب علينا لعلنا نتقي أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة/١٨٣).

فهل أدركنا لماذا أطلت آية الدعاء من نافذة آيات الصيام؟: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة/١٨٦).

فالدعاء والصيام لعلنا نتقي، وقد أسلفنا أن الدعاء برهان على صلتك بالغيب، والإيمان بالغيب هو الصفة الأولى للمتقين.

ويا له من تودد حميم من رب رحيم، عندما ينسبنا إليه: يا عبادي..

نداءٌ لم يتذوق حلاوته بنو إسرائيل، فقد لفت نظري أنهم في قصة البقرة، كانوا يقولون لموسى عليه الصلاة والسلام: ادعُ لنا ربك، وقد تكررت غير مرة!..

أهو ربه وحده؟، كم يشعرك هذا القول ببعد القوم عن ربهم، لذلك قال لهم موسى: توبوا إلى بارئكم، أي خالقكم ولم يقل ربكم، لأن معنى الربوبية معنى رفيع لا تدركه قلوب حجارة كقلوب بني إسرائيل، أما الخلق فلن يستطيعوا أن ينكروه، وهو أقرب إلى قلوبهم المتحجرة التي

تجهل لغة الحب، وتفهم بالمحسوسات فقط: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(البقرة/٥٤).

أما آدم عليه الصلاة والسلام، فقد قال عنه تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة/٣٧). ومثله إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(البقرة/١٢٨).

ولأن دعاءهما كان صادقاً، فقد جعل الله لهما من ذريتهما أمة مسلمة تردد مثلهما: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة/٢٨٦)

إنها المواريث النفسية العظيمة يرثها الأحفاد عن الأجداد، فالنسب هو نسب العقائد والمبادئ، لا نسب الدماء، وما أجمل هذه الكلمات الحانية يعلمها الله لتلك الأمة المسلمة من ذرية ذينك النبيين العظيمين عليهما الصلاة والسلام:

﴿قولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة/١٣٦)

﴿صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾(البقرة/١٣٨)

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾(البقرة/١٣٩)

ونحن له مسلمون، ونحن له عابدون، ونحن له مخلصون...

إن رمضان هو بدر العبادات، تتوهج فيه، والدعاء هو العبادة، ويعلمنا ربنا أنه فرصة ذهبية لطلب الرشد والهداية، وفي تفسير المنار أن الرشد والرشاد ضد الغي والفساد، فهو سبيل المستخلفين في الأرض، وها هو قد تبيّن، قال تعالى:

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٥٦).

لقد نبّئك الرحيم في آية الدعاء الرمضانية بالدعاء وسيلةً إلى الرشد، وها هو يذكر تلك الوسيلة في هذه الآية (٢٥٦) بإشارة خفية، ولكن كيف؟.

إن خاتمة (السميع العليم) دعوة إلى الدعاء تصدقها هذه الآية: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[البقرة/١٢٧]

إن السميع العليم جاءت في ختام الآيات التي تضمنت دعاءً صريحاً في القرآن كما في آية البقرة أعلاه، وآل عمران ويوسف:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[آل عمران/٣٥]

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[يوسف/٣٣-٣٤].

إن الله سميع عليم، ادعه كي يعينك على سلوك سبيل الرشاد، قال هنا: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ ﴾، وقال هناك، في آية الرشد الرمضانية: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾.

إن الإيمان حاضرٌ في الآيتين، قلب يدعو، ويد تعمل، والاستجابة تعني الطاعة وتنفيذ الأوامر كما جاء في بعض التفاسير، فالدعاء لسان ذاكر وقلبٌ تقي، وساعدٌ قوي.

وهذا ما تقرره آية البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(البقرة/١٢٧).. تقرر أنه لابد للدعاء من عملٍ يلازمه حتى يكون صادقاً فيستجاب، فهما عليهما الصلاة السلام (إبراهيم وإسماعيل) يدعوان الله أن يتقبل عملهما، وهو بناء البيت، في اللحظات ذاتها التي يرفعون فيها قواعده، فاليدان اللتان ترتفعان في الدعاء هما ذاتهما اللتان تضربان في الأرض وتعملان....

٢٠-الدعاء من مقومات الاستخلاف: السميع العليم ٢:

إذا رأيت السميع العليم، تنبّه، فلابد أن توجد قبلها حالة إخلاص حارة، أو مأزق ما، أو لحظة اختبار شديدة، يريد الله منك أن تلجأ إليه فيها، فهو يسمعك ويعلم بحالك.

ولنسافر مع السميع العليم في سورة البقرة....

لقد جاءت خاتمة السميع العليم في سبع آيات من سورة البقرة، وهي الأكثر بين سور القرآن الكريم، ربما لأنها سورة الاستخلاف، والاستخلاف مهمة ثقيلة على الإنسان، يحتاج فيها إلى عون لا ينقطع من الله، فشؤون الاستخلاف كثيرة، والأعداء كثر، وعلى رأسهم إبليس، وهوى النفس، ومن تبعهم بكفران من ذرية بني آدم الظالمة، وفي مقدمتهم أهل الكتاب..

قال تعالى متحدثاً عنهم: ﴿فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(البقرة/١٣٧)

لكن القرآن الكريم صرح أنهم لن يؤمنوا بمثل ما آمنا به، ولن يرضوا عنا، أي أنهم سيظلون على عداوتهم ومكرهم، فقال: (فسيكفيكهم الله إنه هو السميع العليم).

جاء في تفسير المنار: أي يكفيك إيذاءهم ومكرهم السيئ ويؤيد دعوتك، وينصر أمتك؛ فهذا الوعد بالكفاية عام للمؤمنين.

لكنني لم أجد إشارة مباشرة إلى الدعاء فيما قرأت من تفاسير، كيف سيكفيناهم الله؟، لا شك أن ذلك يعني الأخذ بأسباب الجهاد وإعداد العدة، ومنها الدعاء، فالسميع العليم تعني أن يكون عملك معضوداً بصدق اللجوء إلى الله والتذلل بين يديه، أي الجؤوا إليه، ادعوه أن يكفيكم شرهم، ومما يؤكد هذه الإشارة الحانية، أن خاتمات الآيات التاليات، كنّ: ونحن له عابدون، ونحن له مخلصون، على التوالي..

إنه ولاء مطلق لله، مع مناجاة دائمة من أجل النصر والتمكين، ومواقف القتال من أشد المواقف التي تمحص الأقوال والفعال ويحتاج المسلم فيها إلى ولاية الله ونصرته..

وانظر في هذه الآية: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٤٤). إنها إشارة أخرى إلى الدعاء في موقف عصيب، لها تطبيق عملي في قصة طالوت وجالوت، فبعد أن التقى الجمعان، قالوا:

﴿ولَمَّا برَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة/٢٥٠)

ها هم يدعون، فمن هم؟: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ -ابتلاء النهر- هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة/٢٤٩).

إنهم الذين يظنون أنهم ملاقو الله، هم الخاشعون في آية أخرى كما أشرنا سابقاً: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(البقرة /٤٥-٤٦) عملهم هو الاستعانة بالصبر والصلاة، لذلك قالوا: إن الله مع الصابرين، وربنا أفرغ علينا صبراً، لقد استعانوا به من قبل ذلك، ونجحوا في ابتلاء النهر والصبر على شدة العطش، فحُق لهم أن يطلبوا الله الصبر في هذه اللحظة العصيبة، ولكن هناك من نجح في اختبار الصبر والنهر، لكنه فشل في الصبر حين البأس لما رأى جنود جالوت، والصبر درجات... ﴿قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ﴾...

هنا يأتي دور الصلاة، لأنه من يظن أنه ملاق الله فلماذا يخاف؟.. وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون إنهم ملاقو الله، فماذا كانت النتيجة؟.. ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ﴾(البقرة/٢٥١)..

وتدرك من هذه الآيات ما للقتال من دور عظيم في مهمة الاستخلاف ومنع الفساد، فالفساد يناقض الاستخلاف كما جاء في مطلع البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/٣٠).

وقد ذكر الله تعالى أن الفساد من صفات المنافقين والفاسقين الذين ظهرت صفاتهم جلية في بني إسرائيل، والآيات معروفة، وتأمل ماذا قال الله تعالى في خاتمة قصة طالوت وجالوت: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة/٢٥١)..

إنها وظيفة المستخلَفين في الأرض ليمنعوا الفساد فيها وهم – هنا- الخاشعون من قوم طالوت، المستعينون بالصبر والصلاة، الذين يظنون أنهم ملاقو الله، لذلك ثبتهم الله يوم الزحف بصبرهم وصلاتهم، وقد قلنا أن ذكر القتال والابتلاءات أتى بعد نداء الصبر والصلاة الذي وُجه إلى المؤمنين: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾(البقرة/١٥٣-١٥٦).

كما ذُكر القتال من جديد بعد شهر رمضان، على بعد آيتين فقط، أليس هو شهر الصبر والصلاة؟: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة/١٩٠)

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(البقرة/١٩٣).

فلا تعجب أن كان رمضان شهر المعارك الظافرة في تاريخنا، بدءاً من معركة بدر الكبرى إلى فتح مكة العظيم، إلى فتح الأندلس، إلى بلاط الشهداء، إلى عين جالوت، إلى معركة الزلاقة التي أخرّت سقوط الأندلس ٣٠٠ سنة..

إنه شهر الاستعانة بالصبر والصلاة، فما هو رصيدنا الآن؟.

أليس هذا هو أحد أسرار هزائمنا منذ قرون، والتطبيق القرآني على ذلك هو قصةُ طالوت وجالوت.

وما أشبه دعاء المسلمين في أواخر سورة البقرة بدعاء الخاشعين من قوم طالوت: فقد قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٢٥٠)، وقال المسلمون: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٢٨٦) تشابهت القلوب، فتشابهت الأقوال!.

٢١-الدعاء من مقومات الاستخلاف: السميع العليم٣:

جاءت السميع العليم في ثلاثة مواضع أخرى، وهي مواضع لابد أن يسعى فيها البر والتقوى، لأنها مواضع قد يتمزق فيها نسيج التراحم والتواد بين المسلمين بحراب الظلم والإثم والعدوان قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾(البقرة/١٨٠)

جاءت هذه الآية بعد آية البر وقبل آيات الصيام مباشرة، ولا غرابة، فهي استكمال لقافلة البر، يريد الله من المسلم أن يكون متقياً باراً حتى بعد موته، لذلك حضه على كتابة الوصية بالمعروف، ليكون عادلاً بين الورثة، لا سبباً في سحق إخوّتهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة/١٨١) أي: الإيصاء. وخُتمت الآية (إنه سميع عليم)، ولقد جاء في التفسير الميسر أن الله سميع لوصيتكم عليم بما تخفيه صدوركم من الميل إلى العدل أو الجور.

لكن نستطيع أن نفهمها من جهة أخرى أنها حض خفي على الدعاء، فالوصية هي العمل، ولكن لابد لها من دعاء، كأنه يقول للموصي، بعد أن عدلت في وصيتك، ادعُ الله ألا تكون سبباً في فرقة من بعدك وتباغضهم، لأنه قد يكون من بين الورثة حفيد لبني إسرائيل يبدل وصيتك، كما بدل أسلافه كلام الله! (فبدل الذين ظلموا قولا

غير الذي قيل لهم!)... ﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة/١٨١).. أي من بدل الإيصاء.

وقد يكون الموصي نفسه من أحفاد بني إسرائيل يخلفهم في إثمهم وفسادهم، فيخل بتوازنات البر، هنا يأمر الله بمن يزيل رعونته وظلمه: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(البقرة/١٨٢).

قال تعالى في مقام آخر: ﴿وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٢٤)..

هناك من يجعل الحلف بالله سداً منيعاً يعيق تدفق نهر البر والتقوى في المجتمع، وجاء في تفسير السعدي: (أن الله سميع لأقوال الحالفين، عليمٌ بمقاصدهم هل هي خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم استقر علمها عنده).

لكن من جهة أخرى، قد يكون لهذا الموقف المتشنج من الحالف، أسباب تسوغه من أذى الآخرين له على إحسانه إليهم، وقد جاء في تفسير المنار أن سبب نزول هذه الآية، حلف أبي بكر رضي الله عنه على ترك الإنفاق على (مسطح) بعد أن خاض في قصة الإفك.

وقد يكون الرجل من مغاليق الشر، يجعله الله سبباً في حل الخصومات، يمسح على الجراح، وهذه أجواء يسودها الغضب والنصب،

ويعاني فيها الإنسان من فظاظة الناس، وغلظة قلوبهم، وقد تحمله هذه الأجواء الخانقة على الحلف ألّا يسعى في صلح، هنا يحضه الله تعالى أن يأوي إلى كنفه، وأن يدعوه كي يثبته، ليكون ضوء برٍ ينير عتمة القلوب، فهو سميع لنجواه، عليم بما يكابده من أذى وصبر...

ويقول تعالى في موضع أكثر دقة: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٢٦-٢٢٧)..

الإيلاء- وهو نوع من اليمين- من المرأة: أن يحلف الرجل أنه لا يقربها، وقد أعطى الله المولِي أربعة أشهر يراجع فيها قراره، فإن عاد فالله غفور لما وقع منه من الحلف، رحيم به[٦]، وقال السعدي: (سميع عليم: فيه تهديد ووعيد لمن يحلف هذا الحلف ويقصد المضارة والمشاقة فالله سميع لأقوالهم عليم بنواياهم).

لا شك أن هذه الأجواء، أجواء مؤلمة أيضاً، يكثر فيها التظالم، والمشاحنة، وتتحرك فيها أهواء النفس والشيطان، وتفتقر إلى حنان البر، ورأفة التقوى، وما هكذا تكون الأسر!.

يبين الله هنا، أن (السميع العليم) نافذة حنان ورحمة لكل مظلوم من الطرفين، خاصة فيما يتعلق بالزوجة، لأنها لا تملك من أمر الطلاق شيئاً، وكم من رجل متعسف في استخدام هذا الحق الذي منحه الله

٦- التفسير الميسر.

إياه. هنا لحظة مواتية للدعاء، إنه يسمع المظلوم، ويعلم بما يحاك في الصدور، لنيل الغلب على حساب البر والتقوى.

ولما كان الأمر حول الدعاء والأسرة، فلنبحث عن جو حانٍ، متسامح بارٍ متقٍ، يلف الزوجين في لباس واحد، ضمن لباس من ليلة الصيام، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(البقرة/١٨٧).

لقد جاءت هذه الآية بعد آية الدعاء الرمضانية:(وإذا سألك عبادي عني فإني قريب..). يشير المولى هنا إلى شدة القرب والتوافق والانسجام بين الزوجين، إنهما روح تأوي إلى أخرى وتسكن إليها، مع سكون الليل، إنهما لباس لبعضهما، ويا له من قرب ودفء وستر وإحاطة وزينة وتوافق وارتياح، أليس هذا ما يعنيه لك لباسك؟!.

وكما تسكن إلى لباسك الحاني (زوجتك) وتشكوها بثك، فهناك لباس آخر يجمعك برب زوجتك، إن كانت هي لباسك، فهو ربها الذي جعلها سكناً ولباساً لك، لماذا لا تلجأ إليه في ليلة الصيام، فهي لباس أيضاً!...﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴾(الفرقان/٤٧).

والطريف أن يكون الليل لباساً في سورة الفرقان!..

وها هو شهر الفرقان الذي أنزل فيه الفرقان..هدى للناس..اهرع إلى ليلة الصيام، واترك مناجاة اللباس الأرضي، و اعرج إلى ربك مع

لباس الليل إذا سجى، واسأله ليلة تشتد بها الرحمات، ليلة خيرٌ من ألف شهر.

هذه وقفات على طريق البر والتقوى، تتجلى فيها صفة الإيمان بالغيب عن طريق السميع العليم، البر وقد فشل فيهما بنو إسرائيل فتظالموا وتظاهروا بالإثم والعدوان على بعضهم بعضاً، فهبطوا منها، من مرتبة الاستخلاف.

الفصل الثاني

آفة الاستخلاف اتخاذ الأنداد

اتخاذ الأنداد ١:

لا شك أن قصة البقرة كشفت كثيراً من صفات بني إسرائيل الرديئة، التي جعلتهم يفشلون في الاستخلاف، وسلكتْهم في سبيل المفسدين، وقد تكون هذه الصفات هي السبب في تسمية السورة بالبقرة كما ذهب البعض.

لكن يبدو لي أن هذه الصفات ما هي إلا أعراض لسبب جوهري هو الذي جعل هذه السورة العظيمة تسمى بسورة البقرة، وهو انعدام الإيمان بالغيب(٧)، أو ضعفه، وامتلاء القلب بندّ من دون الله كنتيجة لازمة لفراغ هذا القلب من الله، من الإيمان بالغيب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾(البقرة/٩٣).

إن تشرّب قلوبهم حبَّ العجل- وهو رمز لكل صنم – منعهم من أخذ أوامر الله بقوة، وهو ما ظهر عملياً في قصة البقرة، فهي تطبيق عملي تجلت فيه صفات بني إسرائيل السلبية التي تناقض أخذ الكتاب بقوة، من جد وطاعة وتنفيذ، حيث أخذوه بجدل واستهزاء وعصيان، وهذه الصفات تطبيق عملي لعدم الإيمان بالغيب، والتعلق بكل صنم مادي، بكل ند من دون الله يرمز إليه العجل. هل هذا هو السر في كون النداء الإيماني الأول للمسلمين في سورة البقرة:

٧- ستجد مناقشة وافية لهذه الفكرة في فقرة قلب سورة البقرة. ص١٥٦.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(البقرة/١٠٤)؟. إذ يشتمل هذا النداء على مخالفة اليهود في عصيانهم وتمردهم وقلة أدبهم، وهذا ما سجلته قصة البقرة عملياً عليهم. بينما تظهر صورة المؤمن على الضفة الأخرى، الذي يطّرح الأنداد، ويعمر حبُّ الله قلبَهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾(البقرة/١٦٥).

لقد قال الله تعالى لبني إسرائيل في دبر قصة البقرة: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إنها دعوة لإيقاظ العقل لعله يثمر الإيمان في القلب، لكن يبدو أن القلب المتحجر بالعجل لن يثمر إلا القسوة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، قست رغم أنها رأت آية معجزة، لماذا؟.. لأنها مليئة بغير الله، تجاذبتها الأنداد، فتحجرت!.

ولنقف عند مشهد مشابه، يدعونا الله تعالى فيه إلى أن نعقل، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة/١٦٤)

يرشدنا الله تعالى إلى تأمل آياته في الكون لعلنا نعقل، فنؤمن، ثم قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾(البقرة/١٦٥). ما الذي يحول دون عقلِ آيات الله البديعة في كونه، ويحجب أشعتها الهادية فلا تصافح شغاف القلوب فتخشع؟...إنهم الأنداد.

لقد وجه الله تعالى بصرنا وبصيرتنا إلى آيات كونية مبهرة، وختم بأنها آيات لقوم يعقلون، كما ختمت قصة البقرة عند بني إسرائيل: ويريكم آياته لعلكم تعقلون, ثم قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾، إلا أنه لم يذكر الأنداد صراحة بعد قصة البقرة في بني إسرائيل، قال فقط: ثم قسوت قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة، والقلوبُ الحجارةُ تقودنا إلى حجارة أخرى، ذُكر قبلها اتخاذ الأنداد: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٢٤).

إن هذه القلوب الحجارة ستكون وقوداً لجهنم مع حجارة أندادٍ في نار جهنم أيضاً، أما ذكر الأنداد الذي سبق آية الحجارة فقد جاء هنا:﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/٢٢).

ولقد جاء في التفسير أن هذه الحجارة هي الأصنام، فالقلوب التي تتخذ أنداداً من حجارة هي أشد قسوة من الحجارة، ولذلك ستكون وقوداً لجهنم مع حجارتها، تلك أندادهم في ذاك الزمان، لكن لا يخفى على متدبر أن مفهوم الند أوسع من ذلك، فهو أي شيء يكون محور حياتك من دون الله، حتى وإن كنت مسلماً، فقد يكون هوى تتبعه بقيادة الشيطان، أو يكون آباءك، أو أيديولوجية ما، أو حزباً أو أي عقيدة أرضية، وربما علمك أو تجارتك، أو قبيلتك أو عشيرتك أو أسرتك، أي شيء يذهب بقلبك بعيداً عن الله، فيجعلك تحتال على دينه، فتأخذ ما يعجبك، وتترك ما يحرج هواك.

وليتضح هذا المعنى، انظر ماذا قال الله تعالى بعد أن نبّهنا إلى آياته الكونية، وبعد أن ذكر بعدها اتخاذ الأنداد، لقد عدد أصنافاً من الأنداد المتبوعين كالشيطان والآباء:

١- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾(البقرة/١٦٦-١٦٧)..يتحدث هنا عن أتباع ومتبوعين، دون أي تحديد، إنهم أنداد، واختر لنفسك أي ند!.

٢-﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(البقرة/١٦٨) ولا تتبعوا خطوات الشيطان، ولا تجعلوه نداً لله يحلل ويحرم لكم من دونه، وجاء في تفسير الطبري:(فلا تنتصحوه - أي الشيطان- أيها الناس، مع إبانته لكم العداوة، ودعوا ما يأمركم به، والتزموا طاعتي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه مما أحللته لكم وحرمته عليكم، دون ما حرمتموه أنتم على أنفسكم وحللتموه، طاعة منكم للشيطان وإتباعاً لأمره). ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/١٦٩)..ألم يحرم الله الشجرة على أبوينا، وحللها لهم إبليس؟.

٣- ثم يذكر الله تعالى صنفاً آخر من الأنداد، إنه الآبائيّة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾(البقرة/١٧٠).

إن قصة البقرة توضح أنهم اتخذوا من دون الله أنداداً وهم يعلمون، فقست قلوبهم وتحجرت، ولم يشكروا نعم الله عليهم، ورأوا الآيات وعرفوا الحق، لكنهم كفروه، وسعوا يفسدون حسب أهوائهم، بينما من يتخذ الله ولياً له، سيخشع قلبه (والذين آمنوا اشد حباً لله)، بينما أصحاب الأنداد أشد قسوة من الحجارة!.

❋ اتخاذ الأنداد٢:

لقد لفت انتباهي تكرار ذكر الشفاعة والعدل (الفداء) في بداية الخطاب إلى بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(البقرة/٤٨). ثم عاد فذكر تلك الآية مرة أخرى في ختام حديثه إليهم: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(البقرة/١٢٣). ووجدت بعد التدبر أن الشفاعة والفداء يشيران إلى اتخاذ الأنداد!.وانظر في هذه الآية:﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(التوبة٣٠-٣١). (لقد اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّه)، وقد جاء في تفسير المنار أن اليهود يعتقدون أن أحبارهم سيشفعون لهم عند الله يوم القيامة، وقد بين الله تعالى أن أحبار اليهود حرفوا الكتاب وأصبحوا يحللون ويحرمون كما يحلوا لهم نيابة عنه، وتبعهم قومهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾(البقرة/٧٩). لقد جاءت هذه الآية بعد أربع آيات من قصة البقرة، فتدبر.

وقد أسلفنا في كلمات سابقة أن الله حذر من إتباع خطوات الشيطان لأنه يحلل ويحرم للناس، وهاهم الأحبار يخلفونه، ويؤدون مهمته، أنداداً من دون الله!. و يبدو أن مشكلة الأمم الكتابية ومنها المسلمون، هي هذا النوع من الأنداد، فقول الله تعالى: ﴿لا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾ يدل على أن هذا الند إنسان، وليس صنماً كأصنام كفار العرب.

لكن إن لم يكن صنمك حجراً، سيكون قلبك حجراً عندما تتخذه من دون الله نداً﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، وستكون مع الأحجار وقوداً لجهنم ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾. وسوف يطول الخصام والتلاوم بين الأنداد وأتباعهم يوم القيامة:

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾(البقرة/١٦٦-١٦٧). ولكن ما الذي يعاكس الأنداد من أسماء الله؟، الجواب كما رأيته في سورة البقرة هو: الولي والنصير.

وهيّا معي لنتدبر، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ

نَصِيرٍ﴾(البقرة/١٢٠). يحذرنا الله تعالى هنا من اتخاذ أنداد من نوع خاص وهم أهل الكتاب، فإن أبينا، فسوف يحرمنا ولايته ونصرته. و جاء بعدها: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(البقرة/١٢١) عن ابن عباس- كما في تفسير ابن كثير- في قوله:(يتلونه حق تلاوته) قال: يتبعونه حق إتباعه، ثم قرأ: (والقمر إذا تلاها)، إنه الإتباع مرة أخرى، لكنه إتباع ما أنزل الله.

و يا لها من مفاجأة عنيفة هزتني عندما أمعنت النظر في هذه الآية: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(البقرة/٤٨). ولا هم ينصرون!، لماذا حُرم بنو إسرائيل النصرة أيضاً؟، والجواب: اتخاذ الأنداد. وهذه الجملة: ﴿لا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾. تشير إلى معنى الولي، فالنفس الأولى، هي (الند) الذي كنتَ ستظنه سيتولاك فيشفع لك في الآخرة، أو يبذل لك الفداء كي لا تدخل النار، وقد جاء في تفسير السعدي حول هذه الآية بتصرف: (هذا نفي للنفع الذي يطلب ممن يملكه بعوض، كالعدل (الفداء) أو بغيره كالشفاعة، فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين، لعلمه أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع وأن يعلقه

بالله الذي يجلب المنافع (الولي) ويدفع المضار (النصير)، فيعبده وحده لا شريك له، و يستعينه على عبادته). ويظهر معنى النصرة مرة أخرى في الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾(البقرة/١٥٦). إن محل الشاهد هذه الجملة: (أن القوة لله جميعاً)، لأنها تشير إلى معنى النصير، سيرى الذين اتخذوا الأنداد، سيرون يوم القيامة أن لا ناصر لهم وأن القوة لله جميعاً..فما له من قوة ولا ناصر!.

اتخاذ الأنداد ٣:

لقد بيّنا أن ذكر الشفاعة والعدل، في خطاب الله تعالى لبني إسرائيل، فيه إشارة إلى اتخاذهم الأنداد من دون الله، لأنهم ظنوا أن أحبارهم سيشفعون لهم عند الله يوم القيامة.

وتأمل هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(البقرة/٢٥٤). إن فيها حضاً مباشراً على الشكر، وها هي الشفاعة تُذكر مرة أخرى، في خطاب الله تعالى للمسلمين، وكأنه تحذير خفي لما وقع فيه بنو إسرائيل.

وأدرك هنا، لماذا أتت بعدها أعظمُ آية في القرآن الكريم وهي آية الكرسي، لتعلن من هو وليك ونصيرك أيها المسلم، وقد أسلفنا أن الولي والنصير يعاكسان الأنداد.

قال تعالى: ﴿اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(البقرة/٢٥٥).

وفيها ذكر للشفاعة أيضاً، لكن إلا بإذنه، فهل سيقبل الله شفاعة ند له أضل الناس؟!، إن الشفاعة تأتي من مقرب له مكانة عند الله، وجاء في تفسير السعدي:(الله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى ولا يرتضي إلا توحيده وإتباع رسله، فمن لم يتصف بهذه الصفات فليس له في الشفاعة نصيب).

ومهما يكن، فالأمر بيّنٌ، ويوجب على المسلم أن يتبرأ من كل شيء، ويعلن ولاءه الخالص للحي القيوم، ليحظى بولايته ونصرته، إنه الحي الذي لا يموت والأنداد يموتون..(القيوم قام بنفسه واستغنى عن جميع مخلوقاته وقام بجميع الموجودات فأوجدها وأبقاها وأمدها بجميع

ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها)[٨]، ويبدو لي أن هذا هو سر قول هذه الآية دبر كل صلاة، كأنه تجديد للعهد بعد كل صلاة، للتبرؤ من الأنداد وإعلان الولاء لله.

والآية التي تلتها مباشرة، توضح ذلك:

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٥٦)، لقد ذكر الند باسم آخر وهو الطاغوت، فقد جاء في تفسير ابن كثير:(ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله, أي: من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو).

وتنقلنا كلمة (الرشد) في هذه الآية إلى آية الدعاء الرمضانية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(البقرة/١٨٦) لعلمهم يرشدون.. يدل هذا على أن رمضان فرصة ذهبية لخلع الأنداد من دون الله، للتحرر من هوى نفس، ومن أي شيء يعيق قيامك بمهام الذين آمنوا، وانظر في الآية التي تلت آية الرشد والغي، قال تعالى: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أولياؤهم الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(البقرة/٢٥٧).

٨- تفسير السعدي.

وقوله: أولياؤهم الطاغوت، يدل على أن للأنداد أصنافاً كثيرة كما أسلفنا، قال: أولياؤهم، ولم يقل وليهم كما هو الحال عند المؤمنين.

وأرجو أن تقف عند (الذين آمنوا) فقد بيّنا أن وراءها تكاليف كثيرة فشل فيها بنو إسرائيل، فإن لم تطع الله فيما كلفك به، هل ستكون من الذين آمنوا؟، وهل ستستحق ولاية الله لك؟، تذكر (والذين آمنوا أشد حباً لله)، فإن لم تفعل ذلك، كيف ستدعوه بهذا الدعاء: أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين؟، أنت لم تتخذه ولياً من قبل، كيف سينصرك؟.

وتذكر المثال التطبيقي على (السميع العليم) في قصة طالوت وجالوت، عندما قالوا: أفرغ علينا صبراً، فقد كانوا من قبل من المستعينين بالصبر والصلاة، فهزموهم بإذن الله، فالولي والنصير يقتضيان منك سلوكاً عملياً كالسميع العليم.

وقد قال تعالى لنا: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾(البقرة/١٢٠).. ما لك من الله من ولي ولا نصير، إن اتخذت أنداداً من دونه، وهم أهل الكتاب هنا.

وقال لبني إسرائيل: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(البقرة/٤٨)..

نعم: ولا هم ينصرون لأنهم لم يتخذوا الله ولياً من قبل ولم ينصروه، وقد قال في مكان آخر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(محمد/٧). هل علمتَ سبب هزائمنا؟!.

إن هذا الدعاء: ﴿أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٢٨٦).. منهج حياة لا حركة لسان.

سألَ الذين ظنوا أنهم ملاقو الله من قوم طالوت، سألوا الله تثبيتَ الأقدام: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(البقرة/٢٥٠)..فهزموهم بإذن الله، لأنهم اتخذوا الله ولياً من قبل، فهم الخاشعون المستعينون بالصبر والصلاة.

ثم جاءت- بعد آية الكرسي- ثلاث قصص تبين قدرة الله على الإحياء والبعث: قصة إبراهيم والنمرود، وعزير، وإبراهيم والطير..

بماذا يذكرك ذلك؟..آلا يذكرك بقصة البقرة، التي دلت على قدرة الله على الإحياء والبعث، وأظهرت قسوة بني إسرائيل بعد اتخاذهم الأنداد؟. وقد كانت قصة البقرة معجزة مادية لبني إسرائيل، وقد قال الله لهم في نهايتها: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، لكنهم لم يعقلوا، وظلوا موتى، فقست قلوبهم، أما نحن فمعجزتنا أو بقرتنا هي الآيات الكونية التي لفت الله نظرنا إليها، وأخبرنا أن في آياته الكونية- الآية ١٦٤- ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فهل عقلنا نحن، وهل كانت باعثاً لنا على الحياة، واتخاذ الله ولياً ونصيراً؟.

❁ اتخاذ الأنداد ٤:

لقد كان أول خطاب إيماني للمسلمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(البقرة/١٠٤).. وقد بينا معناه سابقاً، أي: خذوا ما آتيناكم بقوة، ولا تتخذوا دينكم لعباً ولهواً، كما فعل بنو إسرائيل. وقد برزت هذه الصفات جلية في التعامل مع الدين في قصة البقرة، لذا كان هذا النداء هو الأول للذين آمنوا..، وجاءت هذه الآية بعده بقليل: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾(البقرة/١٠٧). وأينما رأيت الولي النصير، فابحث عن الأنداد، لأنك يجب أن تتساءل: لماذا ختمها الله بالولي والنصير؟!.

يبدو أنه يحذر من إتباع القوم في صفاتهم، لأنهم اتخذوا أهواءهم أنداداً من دون الله، وهذا ما تجيب به هذه الآية: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾(البقرة/١٢٠).

وإذا أجرينا مقابلةً بين طرفي الآيتين- بعد حذف الولي والنصير من أدبارهما - سنجد أن اليهود والنصارى يقابلون الله مالك السموات والأرض!، كأنه يقول كيف تتخذون من دوني أنداداً ولي ما في السموات

وما في الأرض، كيف تساوون الله المالك للسموات والأرض بمخلوقين له اتبعوا أهواءهم كبني إسرائيل؟!.

وقد جاءت في آية الكرسي هذه الجملة: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وهي شبيه بهذه الجملة من الآية أعلاه: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. لهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ = لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. آية الكرسي التي قلنا عنها أنها آية الولاء لله واطراح الأنداد.

ولو أبحرنا قليلاً إلى الآية التي تلي آية: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾(البقرة/١٠٧). لوجدنا أن الله تعالى يحذرنا من اقتفاء خطوات بني إسرائيل الذين اتخذوا أهواءهم وأحبارهم أنداداً من دون الله، عندما قال: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾(البقرة/١٠٨).

نعم..هل ستتبدلون الكفر بالإيمان مثلهم؟، فهم الذين أخبر عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(البقرة/٨٦). وها هي (ولا هم ينصرون) تبرز مرة أخرى، لتدلك على اتخاذهم أنداداً، ظنوا أنهم سينصرونهم!.

إن كثرة الآيات لن تنفع قلباً امتلأ بغير الله، لأنه قلب متحجر قاس، لا يهفو إلى خالقه، بل تشده أهواؤه إلى الطين، وسيبحث عن أنداد الطين، سواء كانوا أصناماً أو بشراً، أو أي إنتاج بشري...هل هذه هو سر ختم آية الكرسي بالعلي العظيم؟.

إنه العلي، بينما الأنداد من الأرض، من الأسفل..إنه العظيم، وهم محقورون..

وكأنه يشير إلى أن بني إسرائيل قد استبدلوا الذي أدنى بالذي هو خير، ففضلوا نبات الأرض على المن والسلوى، لذلك استبدلوا أنداداً أرضية خسيسة بالعلي العظيم، وهذا يفسر أنهم لم يعظموا أوامر الله بل اتخذوها هزواً، فلو كان عظيماً في نفوسهم، لهرعوا إلى التنفيذ بمجرد أن قال لهم موسى عليه السلام: إن الله يأمركم!، لكنهم اشتروا الدنيا بالآخرة، وتبدلوا الكفر بالإيمان، فلما تدلوا إلى حضيض الهوان، قال لهم موسى: اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم!.

وما أروع كلمة: اهبطوا..إن القوم هبطوا فعلاً، انحطوا عن مستوى عبادة العلي العظيم، فهبطوا مادياً ومعنوياً، كي ينسجموا مع أندادهم، هبطوا من ذرى العزة والقوة إلى حضيض الذلة والمسكنة..

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾(البقرة/٦١).

واستكبارهم الذين الذي ورثوه عن إبليس هو قمة الوضاعة والصغار، قال تعالى عن متبوعهم:﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٣٤).

وقال عن أتباعه:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾(البقرة/٨٧).

نعم..استكبروا..لأنهم تبع لهوى أنفسهم بقيادة الشيطان المستكبر، ألم يتبعوا خطواته في تبعيض الإيمان، وفي القول على الله بغير علم، وفي التحليل والتحريم، كما بيّنا سابقاً؟، وقس على ذلك حال المسلمين اليوم، الذين استبدلوا الإسلام بالعقائد الأرضية من علمانية وشيوعية وقومية وقبلية وطائفية وإقليمية، الذين نسوا ما حلل الله وحرم، وقال كثير منهم على الله بغير علم، ما أكثر أندادنا من دون الله...

قس، وستجد الأجوبة الشافية لحالنا، وقد حذر الله المسلمين من إتباع أهواء اليهود والنصارى، ولم يقل ملتهم لأنه يعلم أننا لن نغير ملتنا، بل يكفي إتباع أهواءهم لنفقد ولايته لنا ونصرته: ﴿وَلَن تَرْضَى

عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾(البقرة/١٢٠) .

❖ اتخاذ الأنداد ٥:

– الشيطان وبنو إسرائيل:

لا شكّ أنّ إبليس هو رأس الأنداد كلها، وكلّ ندٍ يتصل إليه بسببٍ ما، ولابد من وقفة متأنية مع علاقته ببني إسرائيل، ذلك الشعب الذي نال أعلى مراتب الخيانة في العتو عن أوامر الله، ففشل في مهمة الاستخلاف.

إن بني إسرائيل ورثوا استكبار إبليس على أمر الله وحسده لآدم، فاستكبروا على رسل الله، وحسدوا النبي ﷺ والمسلمين على الإسلام:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾(البقرة/٣٤).

وهذه آية تبين استكبارهم:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾(البقرة/٨٧).

وهذه آية تبين حسدهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(البقرة/١٠٩).

وقد اتبعوا الشيطان في التحليل والتحريم, فهم تلاميذه النجباء، قال تعالى مبيناً ذلك عن الشيطان في التحليل والتحريم: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/١٦٨-١٦٩).

إن هذه الجملة ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ تشير إلى أن بني إسرائيل اتبعوا خطوات الشيطان وقالوا على الله بغير علم، وإليك الدليل: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾(البقرة/٨٠)

وبرز إتباعهم له في مكان آخر، قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(البقرة/٢٠٨) يأمرنا الله تعالى هنا أن نأخذ شرائع الإسلام كافة دون تبعيض، لأن بني إسرائيل من قبلنا قد فعلوا ذلك: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة/٨٥).

ولما ختمها المولى: (وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)، فقد دل ذلك على أن بني إسرائيل اتبعوه فجزؤوا إيمانهم بدينهم، فأخذوا ما يوافق أهواءهم فقط.

كما اتبع بنو إسرائيل الشياطين في تعلم السحر، وتعليمه للناس، مستبدلين السحر بالبر، فنشروا الضر والفساد بين الناس، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل:

﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾(البقرة/١٠٢).

إنهم في معية الشياطين، يتدارسون معها رذيلة الاستهزاء!: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾(البقرة/١٤).

لذا فقلوبهم مؤهلة للأهواء والأنداد، فما إن نجاهم الله من بطش فرعون، حتى عبدوا العجل!.

✵ نتائج اتخاذ الأنداد:

إن من نتائج اتخاذ الأنداد من دون الله – فيما اتضح لي من سورة البقرة – التالي:

١ – فيما يتصل بالكتاب: مخالفته، أو كتم ما فيه، أو تحريفه، أو تأويله بما ينسجم مع الأهواء، أو الأمية فيه.

٢ – قسوة القلب.

٣– جحود النعم، ومنع البر(عدم الشكر).

١– فيما يخص التعامل مع الكتاب ١:

ولنقف عند النتيجة الأولى:

لقد اتخذنا سابقاً قصةَ البقرة قمةً انكشفت فيها سوءات بني إسرائيل، وبيّنت امتلاءِ قلوبهم بغير الله، لذلك استهزؤوا وتلكؤوا في تنفيذ أوامره، فهي المناخ الخصب الذي أورق فيه نبتهم الخبيث، لذا فقد سبقها ذكر الكتاب بقليل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾(البقرة/٦٣–٦٤).

وفي تفسير ابن كثير: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ يعني التوراة، وقد فُصلت هذه الآية في آية أخرى:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ

﴿خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة/٩٣).

نعم.. أشربوا في قلوبهم العجل، فكيف لها أن تستقبل كلام الله، أو تشعر بتعظيمه، وتقوم به، لقد تحجرت بعجلها، ثم تلا ذكرُ الكتاب قصةَ البقرة، وكتمانُهم لما فيه من حق، وتحريفُهم له، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة/٧٦).

وقال في تحريف الكتاب: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾(البقرة/٧٩).

وإذا انتقلنا إلى آية القمة لدى المسلمين، الذي تلاها ذكر الأنداد وهي: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة/١٦٤).

سنجد أنه ذكر قبلها – بأربع آيات– التحذير من كتمان الكتاب أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾(البقرة/١٥٩).

ولو أبحرنا بعدها بقليل، لوجدنا أن الله يحض على شكر نعمه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(البقرة/١٧٢)، ثم يذكر التحذير من كتمان ما في الكتاب مرة أخرى أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(البقرة/١٧٤).

إذن لقد ذُكر الكتاب قبل القمتين وبعدهما: آيات البقرة لدى بني إسرائيل، والآيات الكونية لدى المسلمين، وأخطر ما في تحريف الكتاب وكتمان ما فيه أن يأتي عن علم، لذلك فقد كثرت هذه الخاتمة في الآيات:(وما الله بغافل عما تعملون)، ولو تأملتَها جيداً، لشعرتَ أن فيها تلميحاً خفياً حول مكر بني إسرائيل وفسادهم، وظنهم أن الله غير محيط بهم!، تعالى الله عن هذا الظن علواً كبيراً.

وإنك لتعجب عندما تقرأ هذه الآية: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة/٧٦).إذ يلوم بعضُهم بعضاً على تحديث الصحابة بما لديهم من حقيقة النبي عليه الصلاة والسلام..

لماذا؟ حتى لا يكون عليهم حجة عند الله، وكأن هذه الحجة لن تقوم إذا لم يحدثوا الصحابة بما لديهم من حق، وكم يدلك ذلك على

جهلهم العريض بالله، وضعف الإيمان به، لذا فقد جاء الجواب حاسماً بعدها: ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾(البقرة/٧٧)

ولذا فقد لفتت نظري كثرةُ الآيات– في سورة البقرة – التي تدل على إحاطة علم الله واطلاعه على كل شيء، ورقابته التي لا يفلت منها أحد، وقد يفسر هذا احتواءَ آية الكرسي على هذه الحقيقة، والتي أسلفنا أنها آية اتخاذ الله ولياً ونصيراً، واطراح ما سواه من الأنداد:

﴿اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(البقرة/٢٥٥).

إنه حيٌّ قيومٌ على كل شيء، لا ينام ولا يغفو، ليشعرك أنه محيطٌ بمكر الماكرين، عندما يتحركون كالأفاعي تحت جنح الظلام..

له ما في السموات والأرض، فاتخذه ولياً ونصيراً..

يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، ويا له من تحذير يا أيها الذين آمنوا!.

وقد تتبعت الآيات التي انتهت بـ: (وما الله بغافل عما تعملون)، فوجدتها تأتي في مواطن قيام الحجة، وظهور الآيات البيّنات، وفي

مواطن نكث العهود من بعد ميثاقها، ويدل هذا على أن المتولي قد تولى بعلم، وانطلق يحادد الله بكل استكبار!، أو ربما يظن أنه يحتال عليه، ألم يقل الله تعالى: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)، ولقد أشار الله تعالى إلى هذه الصفة في صفات المنافقين، فقال: ﴿يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(البقرة/٩).

ولنستعرض الآيات التي انتهت بـ:(وما الله بغافل عما تعملون):

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(البقرة/٧٤).

لقد جاءت هذه الآية بعد شهودهم بعث الميت، كذلك يحيي الله الموتى، لكنهم ظلوا موتى، ولم تخشع قلوبهم لآيات الله!.

وما الله بغافل عما تعملون، أي أعمال؟.. إنها الأعمال التي تسعى بها الأهواء والأنداد، التي منعتهم أن يأخذوا دينهم بقوة، وقد عاهدوا الله على تنفيذ المواثيق، وقصة البقرة خير مثال على تمردهم، ألم نقل: أنها سُبقت بهذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(البقرة/٦٣).. وجاء بعدها ثم توليتم، وفي قصة البقرة تولوا.

ثم يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(البقرة/٨٥).

كانت الخاتمة هنا أيضاً: وما الله بغافل عما تعملون.. لقد أخذ الله ميثاقهم هنا على حفظ دماءهم وديارهم لكنهم نكثوا بعد أن أقروا وهم يشهدون!:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾(البقرة/٨٤)

وأنتم تشهدون.. كما شهدوا آية إحياء الميت.

وها هم يكتمون شهادة أخرى من الله، فقد قال تعالى أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً بل حنيفاً مسلماً، لكنهم كتموا ذلك، وادعوا أنه يهودي أو نصراني، فتشابهت النهايات القرآنية:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(البقرة/١٤٠).

وإنهم ليعلمون أن تغيير القبلة حق مذكور في كتابهم، لكنهم أخفوا ذلك واخترعوا الأباطيل: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(البقرة/١٤٤).

ما صلة كل ذلك بنا؟.

إنه تحذيرٌ أن تنكث عهد الله، وقد دخلت في عقد إيماني معه، وعلمتَ أنه الحق من ربك، إياك أن توقن بالحق، ثم تخلو يديك من العمل به – وأنت تعلم– فالله ليس بغافل عنك.

– لا تكتم شهادة رمضان:

إن تكرار كلمة تشهدون وشهادة، ينقلنا إلى ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

إن الربط بين معاني هذه الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة، يقودك إلى أن رمضان ميثاق غليظ، فإذا شهدتَهُ، عليك أن تؤدي ما فيه، فشهوده كشهود بني إسرائيل الذين أقروا بميثاق الله وهم يشهدون، لكنهم نقضوا الميثاق.. فماذا عنك؟..هل ستنتقل من الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني إلى الذين يعقلون؟، هل ستقيم الصلاة وتستعين بها وبالصبر؟، هل ستنفق؟, هل ستقيم مملكة البر والتقوى في نفسك

وفيمن حولك؟..أم هل ستنقض ميثاق رمضان، وتكون من جنود الإثم والعدوان؟.إن رمضان شهادة عندك من الله، فلا تكتمه، وقد كتم اليهود شهادة من الله من قبل، وهذا الشهر شهد شهادات نزلت من الله، شهد نزول القرآن العظيم، هدى للناس، وأنت واحد منهم، فهل ستكتمه، وكتمانه أن تبطل تأثيره، وتنحرف بغايته التي أرادها الله له، فإذا لم يظهر تأثير رمضان عليك، فقد كتمت شهادته!.

٢- فيما يخص التعامل مع الكتاب ٢:

ما زلنا عند النتيجة الأولى، من نتائج اتخاذ الأنداد من دون الله وهي مخالفة الكتاب عن علم، وتحريفه، وكتم ما فيه من حق، وقد ناقشنا هذه المسألة عند بني إسرائيل، ولنمضِ بها مع المسلمين، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(البقرة/٢٠٨-٢٠٩) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ، نعم إنها بينات، اتضحت لكم وأقررتم بها، فحذار من التولي عنها.

وقف عند هذه الخاتمة: فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

قال السعدي:(فيه من الوعيد الشديد والتخويف مما يوجب الزلل، فإن العزيز المقام الحكيم إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة).

لذا فقد جاء بعدها: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَ الْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ﴾(البقرة/١٥٠)..قال السعدي:(هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض المتبعون لخطوات الشيطان النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حُشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلق قلوب الظالمين! ويحق به الجزاء السيئ على الظالمين).

وكلمة (زللتم) تنقلك إلى زلة أخرى اقترفها آدم لأنه أطاع إبليس في الأكل من الشجرة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾(البقرة/٣٦).

نعم.. لأن قبلها- أي قبل كلمة زللتم-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(البقرة/٢٠٨)، ولا تتبعوا خطوات الشيطان، لأنه سيزلكم عن دينكم كما أزل أبويكم عما كانا فيه من النعيم فهبطوا، فلا تهبطوا أنتم، وقد هبط بنو إسرائيل من قبلكم: ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة/٣٨).

والعلو لن يكون إلا على الهدى ﴿أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، فالهدى (ذلك الكتاب لا ريب فيه)، هو وسيلتك للعلو وتجنب الهبوط،

فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لا من اتبع خطوات الشيطان..

وقد تكررت هذه الخاتمة: (اعلموا أن الله عزيز حكيم) في قصة إبراهيم والطير: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(البقرة/٢٦٠).

حذار من التولي بعد أن رأيتني كيف أحيي الموتى واطمئن قلبك!، وتشابه الخاتمتين يوحي إليك أن آية إحياء الموتى في قصة الطير وإبراهيم، كآيات الله في هذا الدين، فقدرة الله تعالى على إحياء الموتى، كقدرته على إحياء القلوب بهذا الإسلام، فالإسلام حياة لنا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(الأنفال/٢٤).

وقد وفّى سيدنا إبراهيم، فمن هو بالنسبة لنا؟

إننا دعوته التي دعاها وإسماعيل، وطهرا بيت الله من أجلنا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(البقرة/١٢٨-١٢٩).

هنا إشارة لنا لنكون على نهجه لا على نهج بني إسرائيل الذي اتبعوا نهج الشيطان وورثوا صفاته في الاستكبار والكفر والتحليل والتحريم.

وما أشبه قصة سيدنا إبراهيم والطير، بقصة البقرة، فكلاهما معجزتان تدلان على قدرة الله على إحياء الموتى والبعث، لكن بني إسرائيل لم يعقلوا، فقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾. وأرجو أن تقف عند جملة (من بعد ذلك)، وكأن قصة البقرة هي الحد الفاصل الذي أعلن وفاتهم، فلن يبعثوا من جديد، فقلوبهم حجارة صماء لا تنبت خيراً، ولا تخشى ربّاً، إنه التولي عن علم، لذا فقد كان دعاء المسلمين، في نهاية البقرة: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ .. نعم، فشيمة المسلم كذلك، لا يتولى عن علم، ويحادد الله عن عمد، فمعاصيه بين الخطأ والنسيان.

وها هي خاتمة (العزيز الحكيم) تأتي هنا أيضاً: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(البقرة/١٢٩).

هو العزيز الذي لن يثنيه شيء عن إنفاذ مراده، وها هي أمتنا، كانت جنيناً في قلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لكن العزيز جعلها حقيقة على تباعد الآماد، فاقتبس العزة منه أيها المسلم، فهو العزيز الذي يهبك العزة إن اتبعت هداه، وأوفيت بميثاقه، وإن توليت، سيكون هذا الاسم (العزيز) ناقوس خطر، ينذرك بغضب باء به قبلك بنو إسرائيل..

تذكر آية: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(البقرة/٢٠٩)، وتذكر قصة إبراهيم والطير التي ختمت بالخاتمة نفسها: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(البقرة/٢٦٠)

إذا تذكرتهما، ستعلم لماذا ختمت بعض مفردات الميثاق بالعزيز الحكيم، إنه حكيم فلا تتطاول، وتقترح عليه مقاييسك ومفاهيمك كما فعل بنو إسرائيل، وإنه عزيز فحذار.. هنا ناقوس خطر.

وإليك هذه المفردات من ميثاقك:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(البقرة/٢٢٠).

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ﴾ (البقرة/٢٢٨).

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(البقرة/٢٤٠).

فإذا رأيت مال اليتيم مستباحاً، والنساء مظلومات، مقهورات، فاعلم أننا على خطى بني إسرائيل!، وأننا نقضنا كثيراً من مفردات الميثاق، ولقد أمرهم الله تعالى، بالبر، فقال:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ ﴾(البقرة/٨٣)... ثم توليتم..

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾(البقرة/٩٣).

ولقد أخذ ميثاقهم بعدم سفك دمائهم وإخراج أنفسهم من ديارهم لكنهم سفكوا دماء إخوانهم وأخرجوهم من ديارهم.. هذه مواثيق الله نقضوها، فإذا أكلتَ مال اليتيم، وأكلتَ حق الأرملة، والمطلقة، فاعلم أن الله عزيز حكيم.

لكن كثيراً منا لا يعلم، لأننا ورثنا أمية بني إسرائيل، ولا نعلم الكتاب إلا أمانيّ، ثم نزعم أننا كرماء على الله، كما زعموا: نحن أبناء الله و أحباؤه!.

٣- الأمية:

ولنقف عند نتيجة أخرى من نتائج اتخاذ الأنداد وهي الأمية:

لقد انقسم بنو إسرائيل إلى أقسام حيال الكتاب، فمنهم عالم محرف مُضل، ومنهم أميّ مقلد، لا يعرف من الحق إلا أوهاماً، تستريح إليها أهواؤه، وتنعم بها جوارحه..

قال تعالى:﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾(البقرة/٧٨).

ولقد لخصت ما جاء في التفاسير حول هذه الآية بتصرف أي: (لا يعلمونه إلا أكاذيب اختلقها أحبارهم، أو لا يعلمون الكتاب إلا مجموعة أماني باطلة يمنونها أنفسهم، ولا تحصل لهم، ولا يأخذون منه إلا ما هو لهم ويمدهم في غرورهم، وأما ما ينبههم على سيئات أعمالهم فكأنه غير معروف لهم من الكتاب، أو يعلمونه حفظاً وقراءة من دون أن يفهموا معناه، أي أنهم لا حظ لهم من الكتاب إلا قراءة ألفاظه من غير فهم ولا اعتبار يظهر أثرها في العمل).

وتأمل في هذا التفسير، وأطلق العنان لبصرك وبصيرتك في حالنا اليوم، في تعاملنا مع القرآن، أليست هذه الصفات هي شيمنا الآن؟.. نحن لم نحرف كلام الله، لكن هناك من هصر معانيه هصراً ليأتي على مقاس الحكام الظالمين، يعبّد لهم العقول والقلوب باسم الله ورسوله،

أما الجماهير الغفيرة، فهي أمية بمعاني الكتاب، تغفو على أمانٍ عريضة، دون رصيد من عمل!.

وقد كنت مرة في صلاة جماعة، وكانت آيات القرآن أمامي، يهدر بها صوتٌ رخيم، ما أجملها وما أجمله!، فكلاهما آية.. ساءلت نفسي، وأنا أسمع تلك الآيات: كم من هؤلاء المصلين – يا ترى- يعلم مراد الله من هذه الآيات؟، وكم منا تثمر هذه الآيات في تربة قلبه إيماناً وعملاً؟!.

الجواب: ما نراه في واقعنا من قلوب قاسية، وأمراض غفيرة في النفوس والمجتمعات..

إن تلك الآيات كاللوحات الجميلة بين العميان، لا يعلمون ما فكرتها، ولا جمال ألوانها وتناسقها، إن القرآن بيننا، تتلوه ألسنتا، وتجفوه قلوبنا، وأيدينا، ثم نظن أننا أبناء الله وأحباؤه!.

وتأمل معي هذه الآية في بني إسرائيل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(البقرة/١١٣).

نعم...هكذا يقولون وهم يتلون الكتاب!.. انظر كيف أن تلاوتهم للكتاب لم تنفعهم، ولم تجعل لهم أي ميزة عن الذين لا يعلمون، وكم

من متعلم لدينا لا يقرأ ويظن نفسه مثقفاً، وكم من قارئ للقرآن، وقلبه خواء من حقائقه، وليس في عقله وقلبه إلا أشباح حقائق وظنون، يظن نفسه عند الله عظيماً، وهو لا يعدل هباءة!.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة/٤٤)...ألسنتهم تهرف بالبر، وقلوبهم وأيديهم تجحده، وهم يتلون الكتاب!..

نحن لم نحرف الكتاب، لكن قلوبنا هجرت حقائقه وانحرفت عنها، والعبر بالنتائج، فما فرقنا عن بني إسرائيل؟.

إن سورة البقرة تضم أروع آية في البر: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(البقرة/١٧٧)، فما هو رصيدنا من مفردات البر هذه؟.

آلا نتلو هذه الآية، ونغفو على لحنها، ونهز الرؤوس، ونحسب كم حسنة تأتينا من لفظ حروفها؟ لكن من منا يصل أرحامه وينفق عليهم؟ كم منا يرأف باليتامى والمساكين؟ إن مجتمعاتنا ملأى بالخصومات، وبتقطيع ما أمر الله به أن يوصل..

وماذا عن عهودنا مع الناس ومع رب الناس؟، وكم تبلغ صلاتنا من نفوسنا؟، إنها محض حركات، أما الصبر فلا تسأل عنه، إنني في مجتمع مستعجل في كل شيء!، ويفعل الواحد منهم المنكرات لكي يحقق مصلحته على حساب الآخرين، وإذا ذهبت إلى المسجد تجده قبلك يقرأ القرآن، وربما يقرأ هذه الآية حصراً، آية البر!.. هذه ليست حالات فردية، بل خليقة جماعات غفيرة...

أميّتنا القرآنية مخزية مخزية، وها هو شهر القرآن والبر والصبر، بماذا سنخرج منه؟..هل سنصطلح مع قرآننا ونتدبره؟، هل سنتعلم مهارات البر والصبر؟

إن رمضان مجرد عادة سنوية، ينتهي أجلها بعد ثلاثين يوماً..

الحقيقة أنك إن لم تنتصر على بخل نفسك وتنفق، وعلى قسوة قلبك، فتغفر وترحم وتصل من قطعك، فأنت أميّ وإن حملت أرقى الشهادات من أرقى الجامعات.

وإليك طائفة من أمانيّ بني إسرائيل وردت في سورة البقرة:

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة/١١١)

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/٨٠). ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(البقرة/١٣٥)

لكن: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(البقرة/١٢١).

وقد قال ابن عباس- كما جاء في تفسير ابن كثير- يتلونه حق تلاوته، أي يتبعونه حق إتباعه، وهذا هو الإيمان الحقيقي به، فتدبروا يا أولي الألباب..

فليس الأمر بالأماني: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾(النساء/١٢٣)، والغريب أن الخاتمة هي الولي والنصير!، لتعلم أن الأمية من نتائج اتخاذ الأنداد!.

٤- قسوة القلب:

ولنقف الآن عند نتيجة أخرى من نتائج اتخاذ الأنداد، وهي قسوة القلب. لقد دعا الله تعالى الناس ليؤمنوا به ويعبدوه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة/٢١) وبيّن أن العائق هو اتخاذ الأنداد: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/٢٢).

ولقد حذرهم من نار وقودها الناس والحجارة إذا لم يعبدوه، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٢٤). وإن هذا المصير المرتبط بالحجارة، هو نتيجة قلوب امتلأت بأنداد من دون الله، فنقضت مواثيقه، وقست، وأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة، ولقد جاء هذا التقرير بعد آيات قصة البقرة التي قلنا إنها القمة عند بني إسرائيل، لتبين لك علاقة الحجارة بالناس، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(البقرة/٧٤).

إن قصة البقرة احتوت على أنصع المشاهد التي تصور عدم أخذ الدين بقوة، لأن القلوب مرتوية بحب آخر: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾(البقرة/٩٣) وكم من عجل يظهر لك خلقاً آخر، فتتخذه نداً من دون الله.

ومثلما ذُكرت القسوة بعد آيات بني إسرائيل، ذكر الحب بعد آية القمة عند المسلمين، التي قلنا إنها الآية ١٦٤:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾(البقرة/١٦٤-١٦٥).

وانظر إلى ارتباط البر بالحب تقرره آية آل عمران: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾(آل عمران/٩٢).

من الذي أحب إليك؟.. الله أم ما تملك من حطام الدنيا؟..

لن تنال البر حتى يتقدم حب الله على حبك لما تملك، والذين آمنوا أشد حباً لله، لذلك فقد ناداهم: عبادي، نسبهم إليه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(البقرة/١٨٦).

إن كلمة (عبادي) تناقض القلوب القاسية المستكبرة، لأن قلب العابد قلبٌ خاشعٌ، وقد كان بنو إسرائيل يقولون: ادع لنا ربك، وكم تشعرك هذه الكلمة بالقسوة والجفاء، بينما يقول المسلمون: ربنا، وهو يقول: عبادي، وكل منهما ينسب الآخر إليه.

نعم.. لأنها علاقة حب ضوئية، فالذين آمنوا أشد حباً لله، ولقد أشار الله في مطلع خطابه، إلى أن بني إسرائيل نسوا هذه المعاني الرقيقة منذ زمن بعيد، وتوارثوا قسوة القلب، فقال: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(البقرة/٤٥-٤٦)..والصلاة علاقة حب مباشرة مع الخالق، ألم يأتِ في الحديث، أن رجلاً قلبه معلق بالمساجد هو من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؟.

ولكن للحب براهين:

فالله لا يحب المعتدين: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة/١٩٠).

وبنو إسرائيل اعتدوا:﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾(البقرة/٦١).

والله يحب المحسنين: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(البقرة/١٩٥).

وبنو إسرائيل لم يحسنوا، بل جازوا الإحسان بالفسق!:﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ

قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾(البقرة/٥٨-٥٩).

والله لا يحب الفساد: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾(البقرة/٢٠٥-٢٠٤).

وبنو إسرائيل أفسدوا: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾(البقرة/٦٠).

والله يحب المنفقين المتصدقين ويكره المرابين: ﴿يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾(البقرة/٢٧٦)..وبنو إسرائيل أكلوا الربا ومنع كثير منهم البر كما أسلفنا.

بينما نجد المسلمين عابدين لربهم، وله مخلصين، فاستحقوا أن يناديهم: يا عبادي: ﴿صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾(البقرة/١٣٨-١٣٩).

قلوب بني إسرائيل أشد قسوة، لكن الذين آمنوا أشد حباً لله، وإذا أردت البراهين على حب الذين آمنوا، ارجع إلى النداءات الإيمانية الأحد عشر، وتأمل ما الذي جاء بعدها من تكاليف، لتعلم طريق

الحب كيلا نكون مثلهم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(الحديد/١٦).

٥- كفر النعم:

لنقف عند المحطة الأخيرة من نتائج اتخاذ الأنداد، وهي كفر النعم عوضاً عن شكرها.

لقد أشار الله تعالى إلى ذلك مبكراً في سورة البقرة، عندما ذكر أن من صفات المتقين: (ومما رزقناهم ينفقون).

وقد امتلأت سورة البقرة بالآيات التي تذكّر بني إسرائيل بالنعم التي أنعم الله بها عليهم، بل كانت البداية من تذكيرهم إياها، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(البقرة/٤٠). وقد كانت هناك إشارة لاتخاذهم الأنداد عن طريق كلمتي الشفاعة والعدل في بداية الحديث عن نعمه عليهم، وفي نهايته:

﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(البقرة/٤٨).

﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(البقرة/١٢٣).

ولكن ما صلة النعم بالأنداد؟.

الجواب: إن اتخاذ الأنداد هو السبب الرئيس لجحود النعم، إذ كيف ستشكر نعم الله ووجهتك إلى غيره؟!. قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/٢١-٢٢).

لقد خلق لنا الكون، ثم خلقنا، ثم رزقنا، فكيف نتخذ من دونه أنداداً وهو الخالق والرزاق؟! أليس الأجدر بنا أن نأوي إلى ربنا، ونحبه، ونشكره؟ لكن هيهات أن يكون ذلك لمن أسلم وجهه لغير الله.

إن شكر نعم الله من لوازم عبادته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(البقرة/١٧٢).

واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون، فإن اتخذتم أنداداً من دونه كيف ستشكرونه؟!، وهذا هو سر ذلك السرد الطويل لتلك النعم العريضة على بني إسرائيل، لا يقابلها إلا جحود أعرض!، وهو سر ذلك الحض الطويل على الإنفاق في الصفحات الأخيرة من سورة البقرة، لأنه نوع من شكر النعم، لا يريد الله لنا أن نكون كبني إسرائيل في الجحود، فهل من مُدّكر؟.

لذا فقد حذر الله الأمة الجديدة، من هذا المسلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(البقرة/٢٥٤)..وأتت هذه الآية قبل آية الكرسي كما أسلفنا، وبعدها تأتي صفحات فيح من الحض على الشكر، بل انفرد الإنفاق بمعظم النداءات الإيمانية التي وردت في سورة البقرة!:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(البقرة/١٧٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(البقرة/٢٥٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٢٦٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(البقرة/٢٦٧).

إن عبادة الله الحقة يجب أن تثمر التقوى والشكر، وعندما تعبده حقاً ستتقيه (اعبدوا ربكم...لعلكم تتقون) وإذا عبدته، ستشكره (واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون)..فإذا لم تتقيه ولم تشكره، فقد اتخذت من دونه نداً، وانظر ماذا يعدك الند: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٦٨).

- العقل قيد اتخاذ الأنداد:

وهناك دعوة لشكر نعمة السمع والبصر والفؤاد، وذلك باستعمالها في معرفة الله، وفي تسخير الكون بما يحقق هداياته، ويعلي منهجه، لأن الكافرين والمنافقين، ووارثيهم من بني إسرائيل عطلوا هذه الحواس، وكفروها..

قال تعالى عن الكافرين:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة/١٧١).

وقال عن المنافقين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾(البقرة/١٨).

أما بنو إسرائيل، فقد ذكّرهم غير مرة بنعمة العقل، كونه الوسيلة المحور في عبادة الله، وتدبّر وحيه، وقد تبيّن لنا مما سبق أن الفاروقَين بين الولاء لله، واتخاذ الأنداد من دونه، هما آيات قصة البقرة لدى بني

إسرائيل، والآية ١٦٤ لدى المسلمين، وكلا الفاروقين خُتمتا بـ:﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يعقلون﴾.

فمن يعقل سيعلم أن خيره في تقوى الله، وإتباع منهجه، وهذا هو مسلك العقلاء ذوي الألباب:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة/١٧٩).

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَ اتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾(البقرة/١٩٧).

فمن يعقل سيلين قلبه، ويحب الله الذي خلقه ورزقه، ومن يعطل عقله سيقسو قلبه، لذا فقد ذُكرت قسوة القلب بعد قصة البقرة (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك)، وذكر الحب بعد الآيات الكونية رقم ١٦٤ (والذين آمنوا أشد حبا لله).

– الإنفاق كهف الأمن والسعادة:

لقد جاءت:﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في ست آيات من سورة البقرة، ثلاثٌ منها بعد الحض على الإنفاق، قال تعالى:

١– ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة/٢٦٢).

٢– ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(البقرة/٢٧٤).

٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/٢٧٧). لقد جاءت هذه الآية مع آيات تحريم الربا المخالف للإنفاق، لتدلك على أن الإنفاق من ذروة العمل الصالح المذكور في الآية.

٤- ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة/٣٨).

إن هذه الآية هي الأولى في سورة البقرة التي انتهت بـ(لا خوف عليهم ولا هم يحزنون). لتدلنا على أن الإنفاق أصدق دليل على إتباع الهدى, وهو السبيل إلى الأمان (لا خوف عليهم)، والسعادة (ولا هم يحزنون)، وقد جاء في التفسير: فلا خوف عليهم، أي: (فيما يستقبلونه من أمر الآخرة) ولا هم يحزنون (على ما فاتهم من أمور الدنيا). وقيل لا خوف عليهم في الدنيا ولا هم يحزنون في الآخرة، وقال صاحب المنار: (لأن اتباع الهدى يسهل عليهم طريق اكتساب الخيرات، ويعدهم لسعادة الدنيا والآخرة، ومن كانت هذه وجهته،يسهل عليه كل ما يستقبله، ويهون عليه كل ما أصابه أو فقده؛ لأنه موقن بأن الله يخلفه فيكون كالتعب في الكسب لا يلبث أن يزول بلذة الربح الذي يقع أو يتوقع).

٥- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(البقرة/٦٢). وهنا ذكر للعمل الصالح أيضاً، وإذا قرأنا هذه الآية على ضوء آيات الإنفاق التي خُتمت بنفس الخاتمة، سندرك أن شكر النعم هو العمل الصالح، لأنه يشمل كل ما رزقك الله، من مال ومواهب وقدرات، فعليك أن تنفق منها في سبيل الله، لتؤدي حق شكرها.

٦- ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/١١٢). لقد جاءت هذه الآية رداً على آية قبلها، من آيات الأمية في الكتاب، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة/١١١). وقد أسلفنا أن الأمية هي أيضاً من نتائج اتخاذ الأنداد كجحود النعم، وفي هذه الآية يدلنا الله تعالى على الطريق الذي يناقض أمية أهل الكتاب، الذين احتكروا الجنة لهم، على إفلاس أيديهم من عمل الخير، وامتلاء قلوبهم بالأنداد، ونسجوا لهم ديناً يقوم على الأماني لا على الحقائق التي أتى بها الوحي، وذلك الطريق هو طريق التوجه الخالص إليه، والخضوع لأوامره، فإسلام الوجه لله ينافي إتباع الأنداد من دون الله، والإحسان هو ترجمة عملية له، وتدخل فيه كل أعمال الخير مع درجة قصوى من الجودة، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ

يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(البقرة١٩٥). وجاء في تفسير البغوي: (﴿وأنفقوا في سبيل الله﴾ أراد به الجهاد وكل خير هو في سبيل الله ولكن إطلاقه ينصرف إلى الجهاد، و قوله تعالى: ﴿وأحسنوا﴾ أي أحسنوا أعمالكم وأخلاقكم وتفضلوا على الفقراء ﴿إن الله يحب المحسنين﴾). إذن، إن (وهو محسن) تعني- من جملة ما تعني- أن تنفق بلا منٍّ ولا أذى.

وكم تدلك هذه الجملة (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) على الولي والنصير، فمن يتخذ نداً، لن ينصره ندُهُ، و لن يحميه، أو يقيه الخوف والحزن، ألم يقل الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾(البقرة/١٦٥). نعم، لأن القوة لله جميعاً، ومن يتخذ نداً من دون الله لن تكون له من قوة ولا ناصر، وأيُّ ناصر سينصره، ويزيل خوفه مما يرى، وحزنه على ما قدم، والقوة لله جميعاً!. وإليك آية في سورة أخرى، تشترك مع الآيات السابقة بالخاتمة نفسها، لتدلك على أن شكر النعم بالإنفاق منها، ولاءٌ حاسم لله، وبراءة حاسمة من كل ند: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(يونس/٦٢).

الفصل الثالث

صفتا الخليفة العلم والتقوى

أولا–مقدمة:

١– علم يسبح بحمد الله ويقدس له:

يبدو أن الملائكة كانت ترى أن الله لن يخلق غيرها، فهي التي تحمد وتقدس، وما سواها سيفسد. والحمد والتعظيم أساس العبادة، وقد وجدنا ما يناقض ذلك عند متخذي الأنداد من جحود لنعم الله، والاستهزاء بأوامره، وهذا المعنى اختصره الله تعالى في آية واحدة، وهي الآية الأولى التي خاطب بها بني إسرائيل:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(البقرة/٤٠).

يأمرهم بذكر نعمه (أي حمده وشكره)، وأن يرهبوه (أي يقدسونه ويعظمون أوامره، فتعظيم الأمر من تعظيم الآمر). إن هذه الآية تعادل: (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)، إنها وظيفة الاستخلاف....

والعلم هو الصفة التي جعلت الملائكة تعلم فضل آدم عليها، وأنه يستحق الاستخلاف في الأرض، يبدو أنها أدركت أن الله قد أودع في آدم القدرة على التعلم، وتسخير الكون، لما رأته من قدرته على التمييز بين الأشياء وتسميتها، لكن هذا يشير بجلاء إلى أن العلم الكوني يجب أن يعرّفك بالله، ويقودك إلى التسبيح بحمده، والتقديس له، وهذا هو المعنى الذي فهمته الملائكة من الاستخلاف، فرشحت نفسها له

عندما قالت:﴿ قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(البقرة/٣٠). ولو لم تدرك أنه علم يجب أن يقود إلى التسبيح بحمد الله والتقديس له، لبقي تساؤلها قائماً.

ولو تأملت السياق، لسبق على ظنك أن يقول المولى: سأخلق خليفة يسبح بحمدي ويقدس لي، لكنه قال: (إني أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها).

لقد شرفه على الملائكة بالعلم ليرشدك أن العلم هو الطريق الصحيح للاستخلاف، والاستخلاف نقيض الفساد، وهو استعمارٌ للأرض يقوم على معرفة الله، وعلى منهجه، وتعظيمه، وشكره، هذه هي وظيفة العلم المسبح بحمد الله، المقدس له، ولن يقوم بهذا إلا خليفة عالم متق، وهذا العلم من شقين، علم بالله عن طريق قرآنه، وعلم به عن طريق كونه[٩].

٢- إن قومي اتخذوا هذا الكون مهجورا :

وهذا المعنى تصدقه آية أخرى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(فاطر/٢٨).

وما يسبق هذه الآية، يؤكد أنه العلم بشموله، لا كما يتوهمه كليلو البصيرة من أنه العلم الشرعي فقط!:

٩- سيأتي بيان ذلك بالتفصيل ...

﴿أَلَمْ ترَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(فاطر/٢٧-٢٨).

إن الآيات تلفت انتباهك إلى الطبيعة، وما فيها من قوانين ومشاهد تدل على جمال الخلق وتنوعه وإتقانه، فتذكر السماءَ والمطر والنباتات بأنواعها المختلفة، والجبال وتضاريسها البديعة, والإنسان والحيوان....

مَن هؤلاء العلماء؟ أليسوا علماء الفلك والمناخ والجيولوجيا والنباتات والحشرات والحيوانات والأطباء بتخصصاتهم المختلفة في الجسم والنفس البشريين؟

إنه العلم الذي يبحث في الكون، فيصل إلى خالقه، وينير القلب بحقيقة الإيمان، فيسبح الإنسان بحمد الله ويقدس له، ويتضافر معه علم آخر هو العلم بالقرآن، ومن ورائه علوم الشريعة كلها، وهو علم يعرف بالخالق أيضاً.

ومن عظمة القرآن أنه يعود بك إلى الكون، فهما - أي القرآن والكون - مرتبطان ارتباطاً وثيقاً ببعضهما، لأن حقيقتهما واحدة، ومصدرهما واحد، والآيات من القرآن، يقابلها الآيات من الكون، فلماذا جهلنا - نحن المسلمين - هذه الحقائق العزيزة، فاتخذنا الكون مهجوراً؟، لماذا لم تثمر قراءة القرآن، قراءةَ الأكوان؟!.

نحن أجهل الأمم بالكون، وأعجزها عن تسخيره، في حين استطاع غيرنا، أن يسخر الأرض والسماء لخدمة عقائده، ونحن باسم عقيدتنا جَهلنا الكون، إن جهلنا به وإهمالنا لقراءته وتسخيره، دليلٌ صارخ على سوء فهمنا لقرآننا..

ولئن سألتهم من خلق الكون ليقولن: الله، ومن أنزل القرآن: الله.

فما الذي جعل دراسة القرآن فرضاً، ودراسة الكون نافلة، مع أنهما يصدران من مشكاة واحدة وهدفهما متحد في الدلالة على الله؟!.

وأقول دراسة القرآن تجوّزاً، لأننا لو قرأناه حق قراءته، لأرشدنا إلى الصواب.

وكانت النتيجة أن ضعنا، وضيعنا هداية الإسلام معنا، وصرنا حاجزاً منيعاً أمام انتشاره في العالمين، أصبحنا عالة على الآخرين حتى في أبسط أمور حياتنا، وكأن العجز مقصور علينا!.

لقد أشار الله تعالى إلى الكون وبديع آياته فيه، في هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة/١٦٤).

التي سميناها فاروق البراءة من الأنداد، الأنداد التي جاء ذكر اتخاذها بعد هذه الآية، ليدلك هذا على أن الكون مصدر إيماننا، بعكس بني إسرائيل الذين خاطبهم الله بمعجزات مادية مباشرة كما في قصة البقرة، وكأن آية الكون، تعدل آية البقرة، وآية البقرة لم يخضع لها بنو إسرائيل،

فماذا عنا فيما يخص مصدر إيماننا أو بقرتنا: الكون!؟.

إنك عندما تكتشف الكون، وتعقل آياته، ستصل إلى الله، وستكون قادراً على تسخيره لخدمة القرآن، فكلمة (يعقلون) التي ختمت بها الآية، ترشدك إلى استخدام الحواس والمواهب، من سمع وبصر وأفئدة في تسخير الكون، وفي الاهتداء عن طريقه إلى الله، أليست هذه الحواس والمواهب هي التي تعلم عن طريقها أبونا آدم علمَ الأسماء، فتفوق على الملائكة؟.

إنها وسائل الاستخلاف، واستخدامها فيما يرضي الله، هو عين شكرها، لكن البشرية الآن تستخدمها بعيداً عن منهج الله.وقد تكررت كلمة (يعقلون، تعقلون) في آيات عديدة من البقرة، بل إن سورة البقرة هي السورة الأكثر احتواء على اشتقاقات لفظة العقل (يعقلون، تعقلون، عقلوه)، حيث وردت ثماني مرات[١٠]، ولهذا دلالته، فسورة

١٠- قصص الأنبياء، دار الحديث، القاهرة، تأليف عبد الوهاب النجار, ص٣٠.

الاستخلاف الذي يقوم على العلم والتقوى، يجب أن تحتفي بأهم وسيلة للتعلم والاتقاء، ألا وهو العقل الذي ميز الله به الإنسان عن باقي المخلوقات: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾(السجدة/٩)

إن السياق يقتضي أن يقول: وجعل له السمع والأبصار، لكنه قال: وجعل لكم، وكأننا وأبينا آدم شخص واحد، في خطاب واحد ومهمة واحدة..﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ تعني وعلّمكم الأسماء كلها، لقد كنا حضوراً في ذلك المنتدى العلوي ومعنيّون به، ولكن ماذا ورثنا – نحن المسلمين – عن أبينا آدم عليه الصلاة والسلام؟!، أين هذا العلم الذي علمّه الله لأبينا، لماذا لم نرثه عنه في هذا العالَم العالِم؟، لماذا تبلّدت حواسنا؟ وانحسرت مواهبنا؟!.

ثانيا–العلم:

١- علم الأسماء، القدرة على التمييز:

راقتني فكرة تقول: إن الإنسان لن يستطيع أن (يسمّي) ما لم يميّز!.

مثلاً: لو عرضتُ عليك ورقةً حمراء، ستقول إنها ورقة حمراء، لكن لو جعلتُ حمرتها متدرجة، سيختلف الأمر بحسب قدرتك على التمييز، فإن كنتَ كليل النظر، ستقول إنها حمراء، وإن كنت حديده، ستقول إنها حمراء غامقة ففاتحة فزهرية وهكذا بحسب قدرتك على تمييز التدرجات اللونية.

أي إنه أصبحت لديك تسميات متعددة، بخلاف صديقنا ذي البصر الكليل.

ولعل قرص نيوتن أصدق مثال على ذلك، إن زيادة سرعة دوران القرص، جعلت الرائي يراه أبيضَ مع أنه يحتوي على ألوان الطيف السبعة، أي إنّ قدرة الإنسان على التمييز انعدمت مع السرعة، فقلَّ عدد الأسماء من سبعة ألوان إلى لون واحد.

هذا في الكون المادي، فماذا عن الكون القرآني؟:

لقد قال الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ثم قال: ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾

إن في هذه الجملة سر الاستخلاف، لأن تعليم الأسماء يقتضي القدرة على التمييز بين مفردات الكون، ويعني أيضاً إدراكاً أوليّاً لحقائق الأشياء، وخصائصها، وبعضاً من السنن أو القوانين التي تحكمها، فأنت تميّز الشيء، ثم تسميه، وتحاول أن تدرك حقيقته، وصفاته، وخصائصه، وسيظلُّ وجوده مصدر تساؤل واستفزاز لك، وستدفعك قابليتك لتسخير الكون إلى محاولة اكتشافه وفهمه لأن ذلك هو السبيل لتسخيره والانتفاع به.

إن قدرة الإنسان على التمييز بين مفردات الكون وتسميتها هي أساس العلوم، ومنها القدرة على إدراك الكليات انطلاقاً من الجزئيات،

وهي التي أعانت الإنسان على تسخير الكون، ولا يعني ذلك المفردات الحسية فقط، التي تقوم عليها العلوم التجريبية، بل منحه القدرة على صياغة المفاهيم والتعريفات لكل شيء، وهذه قدرة تجريدية تقوم عليها العلوم الإنسانية برمتها، تصدقها هذه الآية أيضا من سورة الرحمن ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(الرحمن/٣-٤).

ولنتأمل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَ عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة/٢٩-٣١).

لقد خلق لنا ما في الأرض جميعاً (المسميات) ثم علمنا كل أسمائها، فالأرض دالة على خالقها، ومفتاحها هو علم الأسماء، فعن طريق علم الأسماء سنسخر الأرض، ونصل إلى الخالق، فهي (أي الأسماء) مفتاح كل أمر إلهي بالنظر في الكون وبديع آياته، وبوسعك أن تتخيل أهمية ذلك عندما ترى المساحات الشاسعة التي شغلتها الآيات الكونية من القرآن الكريم!.

فعلاقتك بالأرض- أيها المسلم- علاقة علم يقود إلى العليم، يجب أن تفسر آياتها بالعلم، لتصل حقائق الكون بحقائق الوحي، وأي فهم للإسلام يعزلك عن هذا المفهوم، فهو أوهام بشر، لا حقائق وحي!.

وكم من عقل بليد، ينعكس الوحي فيه عتمةً، إنها مأساة الجمال عندما يصبح وليّ أمره، القبح!.

٢- نتيجة وتطبيقات:

أرى أن الإنسان مُتعبّدٌ بزيادة قدرته على التمييز، وأزعم أننا لو فقهنا هذه الحقيقة القرآنية، لكنا – نحن- من اخترع المجهر (المايكرو سكوب)، أو المنظار الفلكي (التليسكوب)، أو جهاز التصوير الطبقي المحوري، أو المرنان المغناطيسي، وأجهزة كثيرة تكتظ بها العلوم المختلفة.

أليست هذه الأجهزة عيوناً وآذاناً وأيدياً أخرى تزيد من قدرة الإنسان على التمييز وفهم حقائق الأشياء وخواصها، ووظائفها؟.. وهذه الأمثلة في جانب واحد من العلوم التطبيقية، فالمفاهيم والتعريفات والنظريات هي وسائل أخرى، وضعها العقل الإنساني في مجال العلوم الأخرى كالفلسفة والاجتماع والنفس والتاريخ، ليستطيع التمييز فالدراسة فالتفسير.

وتعجب من العقل المسلم في هذا العصر، الذي يتسم بالحدية، والتعامل مع الأمور ككتل مصمتة، والنسبية معدومة لديه، فتاريخه

إشراقات كله، لا كبوات، ولا ظلمات، ويكابر في نقده، والعالم — مما سوى الإسلامي- كله كافر لا يميز بين تدرجات الناس في ذلك، لا تمييز ولا تفصيل ولا نسبية، ويطول ذكر الأمثلة في هذا السياق ..

وأتساءل هنا: لماذا يقتصر مفهوم العالم — في كثير من الأحيان – على عالم الشريعة فقط بعلومها المختلفة؟!.

يبدو أن انعدام القدرة على التمييز كان له دور في ذلك، لأن قدرة التمييز تقتضي التقسيمات والتصنيفات الكثيرة..

والقرآن يقول: ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾، أليس في هذه الجملة حضٌّ على تعلم العلوم المختلفة في سياق الاستخلاف، وهذا التعلم المتنوع سينتج جميع أنواع العلماء في كل مجال، وكلمة (كلها) تشير إلى قابلية الإنسان الهائلة، وقدرته على تعلم كل شيء، إذ لديه مفاتيح الأسماء كلها، وذكر هذه القدرة في قصة استخلاف آدم، يعني ضمورها في الإنسان المتخلف ومن ورائه أمته المتخلفة.

إن حضارة القرآن لا تعني كثرة تلاوته، وختمته، وطباعته، وتذهيبه، وتعليبه، وتقبيله، وتجميله، وتعليقه، وتزويقه، بل تعني أن يكون القرآن روحها، وحاديها، وموجهها إلى أقطار السموات والأرض، فلو اخترع المجهرَ مسلمٌ، لكان اختراعه تفاعلاً روحياً وعقلياً مع آية: ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾، ولحكمنا له أنه يسبح بحمد الله ويقدس له، لأن المجهر

هو امتداد للعين المجردة، زاد سلطانها ومنحها قدرة جديدة على التمييز فالتسمية، فالتسخير، فنفع العباد وشكر النعم، وهذا هو عين العبادة، لكن هذا الصنف من العلوم عاش على هامش العقل المسلم، والحكم المسلم، وظل يذوي حتى انتهينا إلى ما ترون، مع أن بداياته كانت ماجدة وواعدة.

٣- القلم:

رأينا مما سبق أن علم الأسماء يعني قدرة الإنسان على التمييز بين عناصر الوجود المختلفة، وتسميتها، **فالتسمية تدخل ضمن التمييز لأنها تعين عليه، ولا يكتمل إلا بها.**

لكن قال تعالى في سورة العلق أنه: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق/٤-٥)، وقال في سورة البقرة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾، فهل تعلم الأسماء، وهو القدرة على التمييز والتسمية، يكون بالقلم؟.

إن تركيب الآيتين مع بعضهما البعض يقودنا إلى ذلك: (علم آدم الأسماء كلها بالقلم، علمه ما لم يعلم)، فالقلم بهذا المعنى هو قدرة الإنسان على التمييز بين مفردات الوجود، وتسميتها أو ترميزها، يبدو أنه عملية على مراحل، تبدأ بالقراءة الكونية وتنتهي بالكتابة، أو أن الكتابة مرحلة من مراحله، تفضي إلى ما بعدها..

لكن الأمر يحتاج إلى سبر أكثر سنقوم به من جهة أخرى، في هذه الآية: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، لأنها تقودنا إلى آية أخرى تحمل معنى مشابه:

﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل/٧٨).

إن المقابلة بين آية العلق وآية النحل، تجعلنا نقف عند المشترك بين هاتين الآيتين، وهو أن الإنسان أتى إلى هذا الوجود لا يعلم شيئاً، فكيف تعلّم؟، وما هي وسائله؟. تقول لنا آية العلق: إنه تعلم بالقلم، وتقول آية النحل: إنه تعلم عن طريق السمع والأبصار والأفئدة، وهذا يجعل القلم يكافئ السمعَ والأبصار والأفئدة[١١]، أي يكافئ وسائل الإدراك الإنساني، وهنا نخرج بمفهوم معنوي للقلم وهو العقل (القلب بالاستعمال القرآني)[١٢] أداة التمييز، انطلاقاً من أعضائه المادية المتمثلة في الدماغ وحواسه، و ربما القلب!، التي تشكل المهاد الذي تقوم عليه

١١- الفؤاد ليس القلب، كما هو شائع!، وتأمل في الآية العاشرة من سورة القصص، التي ذكر فيها الفؤاد والقلب في الآية نفسها من جهتين منفكتين، ويرجح أنه أجزاء من الدماغ لها دور كبير في الإدراك، وسيمر معنا ذلك في فقرة: المعاني المعجمية للقلم وظلالها.

١٢- تثبت الأبحاث العلمية في العقود الثلاثة الأخيرة، أن القلب ليس مجرد مضخة للدم، بل له دور في الإدراك والتعلم والذاكرة!، إذ يملك جهازاً عصبياً خاصاً به، اكتشفوا منه ٤٠ ألف خلية عصبية!، وقد لاحظوا على المرضى الذين زُرع لهم قلب، لاحظوا أنهم اكتسبوا مواهب وخبرات جديدة، لم تكن لديهم سابقاً، بل تعود إلى الواهبين!. يوجد فلم (وثائقي) بهذا الخصوص، بثته قناة الجزيرة الوثائقية.

العمليات العقلية المختلفة، فالحواس منافذ الدماغ تنقل إليه المعلومات من المحيط، فيقوم بتنظيمها وتحليلها أو تركيبها وصولاً إلى تفسيرها واستخلاص القوانين والنتائج، لينطلق منها إلى فضاءات أعمق وأبعد، وهذا هو الجوهر الذي تقوم عليه قدرة الإنسان الاستخلافية.

وأحب أن أثبت هنا تفسير الطبري رحمه الله لآية النحل، لإضاءة الفكرة أكثر حيث يقول:

(يقول تعالى ذكره: والله تعالى أعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من بعد ما أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعقلون شيئاً ولا تعلمون، فرزقكم عقولاً تفقهون بها، وتميزون بها الخير من الشر وبصركم بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات، فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميزون بها بعضاً من بعض.

والأفئدة يقول: والقلوب التي تعرفون بها الأشياء فتحفظونها وتفكرون فتفقهون بها.

لعلكم تشكرون يقول: فعلنا ذلك بكم، فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من ذلك، دون الآلهة والأنداد، فجعلتم له شركاء في الشكر، ولم يكن له فيما أنعم به عليكم من نعمه شريك).

إن الإنسان معجب جداً – على ضوء اكتشافات العلم الحديث– بالدماغ وتكوينه البديع، وقدراته الهائلة، لكن الأبحاث التي جدّت في العقود الأخيرة، وما حققته عمليات زرع القلب من نجاح، كل ذلك يكشف دوراً مذهلاً (للقلب)(١٣)، قد يجعله مهيمناً على الدماغ..

ولكن ما الذي يجعل هذا الإنسان يعرف المعاني العليا، من تقوى وحق، وعدل، وخير، وأمانة وشرف؟، ما الذي يجعله يتذوق الجمال، ويدوخ فيه؟. هل هي تلك العمليات، أو التفاعلات البيولوجية الرهيبة في الدماغ أو القلب أو الغدد؟!.

لا شك أن (الروح) ذلك الجوهر العلوي الطهور، لا شك أنه يمس تلك البنى الطينية ويضفي عليها بعداً غيبياً، فيجعلها خلقاً آخر يعقل ويؤمن ويدرك تلك المعاني الراقية، فيمتاز عن الحيوانات.

فالروح هي مجال التزكية، والجسد هو مجال التدسية، يتحدان فتولد لنا (النفس) التي تحمل أمانة التكليف، والاستخلاف: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس/٧-٨)، وهذه آية أخرى تكتمل معها حقيقة الإنسان التي بينتها آيات ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾،

١٣- هذه مقالة علمية بعنوان (القلب والعقل والدماغ) للدكتور محمد عمر استشاري ورئيس قسم الطب النفسي بالمستشفى الأهلي بقطر، مع مقالة أخرى للمؤلف نفسه، تتقاطع مع الأولى، وكلتاهما متوفرتان على الإنترنت.

1-The Heart, Mind and Brain: the arab journal of psychiatry(2009) vol. 20 No. 2 Page(161-168)

2-The Heart, Mind and Spirit.

﴿الذي علم بالقلم﴾، (علمه البيان). ما أعظم خلق هذا الإنسان، فتبارك الإله الذي خلقه!.

القلم المعنوي إذن، هو أداة التمييز أو القدرة على التمييز وما يبنى عليها من عمليات عقلية معقدة.

ويقودنا هذا إلى أعظم العمليات العقلية التي تقوم عليها العلوم، وهما عمليتا التحليل والتركيب، أو التجميع والتفكيك، وما يقوم عليهما من استقراء، وقياس..

يجب أن يكون عقلك كالموشور يجعل من الضوء الواحد سبعة أضواء، أي يحلل كل شيء إلى عناصره الأولى، أو تركب من العناصر الأولى أو الجزئيات شيئاً كلياً، وبين الكل والأجزاء، تستطيع أن تفطر العلوم وتدرسها، وتترجمها إلى تطبيقات ينتفع بها البشر، وبهذا تنسجم مع ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ وتصبح الخليفة في الأرض.

وإذا كان أرسطو قد حدد ماهية (حقيقة) هذا الإنسان بأنه (حيوان ناطق) أي كائن حي متحرك بالإرادة، قادر على التفكير وإدراك الكليّات انطلاقاً من الجزئيات، فأنا أستطيع أن أعبر عن هذه الحقيقة بتعبير آخر يتفق وما أسلفت، وهو أن الإنسان (**حيوانٌ مُقلِّم**).

٤- المعاني المعجمية للقلم وظلالها:

وأريد أن أثبت- بتصرف- طائفة من معاني القلم المعجمية، لأنطلق منها إلى فضاءات أخرى، فقد جاء في:

- **المعجم الوسيط**: القلمُ: ما يُكتبُ به. والقلم المقص. والقلم السهم الذي يُجال بين القوم في القِمار والقُرعة. وجفَّ القلم: قُضي الأمر وأُبرم. وقد أُطلقَ القلم عند الكاتبين على الخط، فقالوا: يكتب بالقلم النسخيّ. وفي اصطلاح الدواوين: قسمٌ من أقسام الديوان، يقال: قلم الكتّاب، وقلم المحضرين، وقلم المستخدمين.

قلَّمَ: مبالغة في قلَمَ. ويقال: قلّمَ ظُفرَه: أضعفه وأذلَه. وقلّمَ الشجرةَ: أزال عنها الأغصان اليابسة لتقوى. قلَّمَ العودَ ونحوه قلَّمَ قلْماً: قطع منه شيئاً. وقلَّمَ القلمَ ونحوه: براه . وقلَّمَ الظفرَ ونحوه: قصَّ ما طال منه. ويقال للضعيف: مقلومُ الظُّفُر.

- **وفي معجم اللغة العربية المعاصرة**: قلَمَ يَقْلِم، قلْمًا، فهو قَا لِم، والمفعول مَقْلوم. قلَّمَ يقلِّم، تقليمًا، فهو مقلِّم، والمفعول مُقلَّم. قلَّم الشجرةَ: قطع بعض أغصانها لزيادة نموّها أو لتجميلها.

قميصٌ مُقلَّم: مميّز بخطوط وعلامات.

رُفِعَ القلمُ عن فلان: لم يبلغ حدَّ التكليف، لا تكليف عليه، لا يحاسب على عمله.

– **وفي لسان العرب**: أقاليم الأرض أي أقسامها، وسمي إقليم لأنه مقلوم من الإقليم الذي يتاخمه أي مقطوع. وَأَبُو قَلَمُونٍ : ضرب من ثياب الروم يتلون ألواناً للعيون.

ونخرج من كل ذلك بنتيجة مجملة أن معاني القلم التقسيم والتحديد أو فصل الأجزاء عن بعضها البعض (تحليل)، والتمييز والتهذيب والتشذيب، وإعداد الشيء ليقوم بوظيفته كبري القلم والسهم، أو يزيد إنتاجه، ويجمل مظهره كالشجر، أو يُكفكف أذاه كالظفر.

إن تقليم الشجر والأظافر يعنيان التداخل على كل ما هو فطري وخام لاستثماره، وتحسينه وزيادة نموه وإنتاجه، أو تجميله، أو تقويته، أو تحويله لأشياء أخرى تختصر الجهد والوقت، وتنتج أكثر، ويدخل تحت ذلك كل أنواع االصناعات التحويلية والثقيلة والزراعات والتجارة، بل يستوعب كل مجالات النشاط الإنساني....

هذا هو التقليم، وهذا هو علم القلم، وإنه لشيء محزن أن الغرب هو من قلّم الحديد والنفط وثروات كثيرة، وأقام صرح الحضارة الإنسانية الحديثة، واستعمر الأرض واستعبد الإنسان، ونشر عقائده، لقد ترجم علم القلم بلا وحي، فما بال حَمَلَة الوحي؟! .

والتقليم يعني استبعاد الأشياء الضارة، أو التي لا تنفع، كقطعك الأغصانَ اليابسة أو الملتوية لتزيد من إنتاج الشجرة وقوتها، وتعطيها

شكلاً جميلاً!، أو كما تقلم الأظافر لتبعد عنك الأذى، وتضمن النظافة والجمال..

وتقليم الأظافر المعنوي يعني كبت قوى الشر والظلم ومنعها من الفساد، فلن تستطيع أن تلغي قوى الظلم والشر والفساد من الأرض، لكن تستطيع أن تمنع عنها أسباب قوتها وطغيانها، فتجعلها ذليلة ضعيفة لا تقوى على شيء، إلا الانزواء في أضيق زويا الحياة العامرة بالخير. فالتقليم هنا، يعني أن تكون قوياً، فلن يضعف الشر إن كنت ضعيفاً، لأنك لن تستطيع - حينها- أن تقلم أظافره، فالضعفاء هم سبب الشرور في العالم!.

والتقليم يعني أن تنقّي نفوس الناس وعقولهم من الخرافات والأوهام، وتزيل كل أدران الأرض عنها لتضمن نمو الفطرة الصحيحة، وتسقيها بماء الوحي.

والتقليم يعني أن تنقي العقول من كل المثبطات التي قد تشل قدرتها على الاستخلاف، وتزودها بكل ما يضمن عافيتها، ويستثمر مواهبها وطاقاتها على أمثل وجه.

فالعقل الخام والفطرة الخام كالثروات الخام، تحتاج لمن يعينها على النمو والإنتاج والتجمل، ويزيل من طريقها المعوقات، كما يفعل البستاني مع الشجرة حين يقلمها.

فمن يعجز عن استخدام قلمه سُيرفع عنه القلم، لأنه لم يبلغ حد التمييز، بمعنى أنه يخرج من اعتبارات الاستخلاف، لكنه يختلف عن المجنون أو الطفل الذي لم يميّز بعد، أنه سيحاسب، فكم من مُعطلٍ قلمه، وجاهلٍ بإمكاناته، وما يزال بكراً يحتاج لمن يقلّمه، ويبعث فيه خصائص أبيه آدم ليكون خليفة الله بحق!.

والعملية التعليمية برمتها تقوم على التقليم أو التمييز أي التقطيع أو التقسيم وهذا يعني (التدرّج)، فالطفل يتعلم الحروف مفصولة عن بعضها البعض، ثم يتعلم كيف يدمجها مع بعضها البعض قراءةً و كتابةً.

ومن المعلوم أيضاً، أن تثبيت المعلومات يزداد مع زيادة تمييز المعلومة بلون أو شكل معيّنين، أو بأي وسيلة تجعل من هذه المعلومة (مقلومة)، أي مميزة عما سواها، وبارزة، لأن التقليم يعني قطع الشيء عمن حوله، ومن هنا جاء معنى الإقليم أي المقطوع (مميز) عما يجاوره كما في لسان العرب.

ومن الوسائل الموصى بها للمتعلمين، استخدام الألوان أو الأشكال الهندسية، أو التشجير والتخطيط في ترسيخ المعلومات، ومحاولة إدخال المعلومة بأكثر من طريقة، كتسجيلها صوتياً وسماعها، أو تخيلها في شكل ما، أو رسمها وإدخالها بصرياً كصورة.

والإنسان لا يستطيع أن يتعلم العلوم إلا مقسمة (مقلَّمة)، لكن من قسّم العلوم ابتداء وفصلها عن بعضها البعض لتسهل دراستها، أليس العقل الإنساني المقلِّم؟، وبهذا انتقل من الجهل بالأشياء إلى العلم بها، كان لا يعلم، فأصبح يعلم، فسبحان من علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم!.

والقرآن ذاته ألم ينزل منجماً (مقلّماً) على ثلاث وعشرين سنة؟، وقد كان هذا أدعى لفقهه واستيعابه.

وقد يكون من المثير حقاً، أن تبدأ سورة البقرة بحروف مقطعة (ألم)، وكأن الله يخبرنا أن حقيقة قرآنه تقوم على التقليم أي التقسيم، إن مادته هي هذه الوحدات المقطعة، هي سره مثلما أن سرك يا بن آدم يقوم على هذه الحقيقة، وهو أنك تتعلم بهذه الطريقة، بالتقليم أي بالتقسيم والتدرج كي تميّز وتستوعب ويثبت العلم في فؤادك، وهذه الحقيقة هي سر استخلافك، ألم تتعلم القراءة والكتابة بتعلم الحروف مفصولة عن بعضها البعض، ثم تعلمت كيف تضمها أو تركبها مع بعضها، وهكذا حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، حتى بلغت أشدك: ألف-لام-ميم!.

إن الحروف المقطعة (ألم) هي حقيقة القرآن وحقيقة الإنسان، إنها جوهر حقيقته الاستخلافية!. ومهما تعددت تفاسير هذه الحروف،

فإنه سيبقى فيها بُعدٌ غيبيّ، يجب أن نسلّم لله به، أي إن هذه الحروف اشتملت على صفتيّ الإنسان الخليفة، العلم والتقوى، أما العلم فقد تعلمه بالتقسيم أو التقليم كما أشرنا (ألف-لام-ميم)، وأما التقوى فتقوم على إيمانه بالغيب، الذي توحي به هذه الحروف أيضا!.

والغريب أن الكفار قد أنكروا هذه السنة الإلهية في التدرّج!، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(الفرقان/٣٢). ومن تفاسير﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ -كما في الطبري- نزوله متفرقاً.

ويجب ألا يفوتنا التفكر الطويل في جملة (لنثبت به فؤادك)، فالفؤاد أهم وسيلة من وسائل الإدراك، وأتى مقروناً بالسمع والأبصار في عدة آيات من القرآن، ولا شك عندي أنه يمثل الدماغ أو أجزاءً منه (كما ذهب إلى ذلك الدكتور حسين اللبيدي[١٤]).

وما يهمنا هنا، التقسيم والتدرج (التقليم) في تلقي أي علم، وهذا الذي يعين على تثبيت الفؤاد أو استيعاب العقل للحقائق، ورسوخها في بنائه الفكري، وهذه حقيقة يجب أن تكون حاضرة في ذهن كل من يريد أن يتقن علماً، أو يطبق تشريعاً، أو يغيّر نفساً..

١٤- سلسلة أفلا تبصرون: السمع والبصر والفؤاد، تقديم الدكتور حسين رضوان اللبيدي ضمن المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة لسنة ٢٠٠٤ المنعقد في دبي، عرضت على اقرأ، ومتوافرة على اليوتيوب.

إنها قاعدة جوهرية في التغيير، لأنها من ظلال (وعلم آدم الأسماء كلها)، والفعل (علّم) في الآية، يعضد هذه المعنى، وأصبح معناه معلوماً بالضرورة في أي عملية تعليمية، فالتعلم يحتاج إلى المطاولة والملازمة والتدريب والتكرار، لذا أميل إلى أن سنة الله تعالى في تعليم آدم الأسماء كانت على مراحل (بالتدرج)، وهذا ما يصدقه واقع البشر في تعلم العلوم، وواقع الرسالة أيضاً، فالقرآن نزل منجماً، والتشريع كذلك، وترسيخ العقيدة استوعب ثلاث عشرة سنة في مكة، وترسيخ الدولة أو المجتمع المدني استوعب عشر سنوات في المدينة، واستمر نضوجه في عهد الخلافة الراشدة، حتى بلغ في عهد عمر رضي الله عنه مرحلة مشرقة.

٥- عبادة الله بقوة التعلم:

وندرك على ضوء المعاني السابقة، أن المسلم متعبَّدٌ بابتداع الوسائل التي تعين على قوة التعلّم واكتشاف ما لم نعلم، فكل ذلك يأتي تحت (وعلّم آدم الأسماء كلها بالقلم، علمه ما لم يعلم)، بل هو الترجمة الأصيلة لأمر(اقرأ) كما سيأتي..

فالله يأمرك أن تقلّص مساحة المجهول من حولك في هذا الكون، ولن يكون ذلك لك بلا علم، ولن يتقدم العلم بلا اختراع الوسائل التي تمد سلطان **سمعك** وبصرك **وفؤادك** إلى مسافات أبعد وأعمق من المجهولات، لتحيط بكليّاتها، وتخلع عليها الأسماء التي توثقها بعقلك

لعلك تشكر فتعبد.. ويشكل هذا العمل جوهر الفكر الذي تميز به الإنسان عن غيره، وقد عرفوه- أي الفكر- بأنه إعمال العقل في معلوم للوصول إلى مجهول.

ويبدأ تعبدك لله بقوة التعلم من ابتداع الوسائل التعليمية البسيطة في الصف إلى أضخم المؤسسات التعليمية كالجامعات ومراكز البحوث، فأنت مطالب بالمزيد من تقسيم العلوم، وصناعة التخصصات الجديدة والاختراعات، وليس غريبا أن تكون الأمة المتخلفة متخلفة في أنظمة التعليم ومناهجه، لأنها ليست مستخلفة الآن، فقصة الاستخلاف تخبرنا أن أباها آدم تعلّم من الله تعالى، ثم علّم الملائكة، أي إنه مخلوق يتعلَّم و يعلِّم، لكنّ ورثته المتخلفين لا يزالون يُعلّمون و يتعلّمون بطرائق بالية تطحن العقول طحنا و لا تنميها، وتصنع الببغاوات لا الباحثين المفكرين، بل لا يزالون لا يحسنون أن يتعلموا بأسمائهم فهم يستعينون بأسماء الإنجليز والفرنسيين!. يجب أن نعلم أنّ تطور أنظمة التعليم ومناهجه، أمارة لا تكذب على قوة الأمم واستخلافها.

إن كل جهاز في أي علم، أو كل تعريفٍ أو مفهوم جديد، أو نظرية تفسر ظاهرة، كل أولئك هو قلمٌ بشكل ما، لأن ذلك يزيد من قدرة الإنسان على التمييز والبحث والدراسة، والاكتشاف، فالتسمية والتسخير، ولعل هذا هو التفسير المنطقي، لحاجة الإنسان المستمرة إلى

المصطلحات الجديدة وكلها أسماء، ليسمي ما يكتشفه من هذا الوجود أو يخترعه.

وبذلك تنمو اللغات مع نمو أهلها، و نمو اللغة وانتشارها وحاجة الأمم الأخرى إليها، دليل قوي على قيام الأمة بدورها الاستخلافي، لأنه يعكس مدى اندماجها و تفاعلها مع الكون، لأن الإنسان كلما اكتشف واخترع وابتدع، أحتاج إلى أن يسمي، أي إنه يستثمر من المخزون الكلي من الأسماء الكامن في أس خلقه.

فهوان لغة ما أو ضياعها أو اعتماد أهلها على لغة أخرى في علمهم وتعلمهم، يعني بجدارة أنهم استقالوا من وظيفة الاستخلاف و أصبحوا جزءا سلبيا من الكون أو منفعلا يستثمرهم الجزء الفاعل من البشر الذي عرف قدر عقله فاستخدمه.

وهل انحسرت اللغة العربية، وذبل عودها، وهانت في العالمين حتى على أهلها إلا بذلك، بتقصير أهلها في علم الأسماء والقلم وما يقتضيه من تطبيقات كثيرة، فصّلنا الحديث حولها.

ثم يأتيك من يشكك بقدرة العربية على استيعاب العلوم، بل ويهزأ – مثلاً – بمصطلح طبي عربي، ولا يتهم فشله الذي أوصلها إلى ذلك، وعزَلها عن علوم العصر، إن حال العربية يعود إلى سقم قلمك معنويّه وحسيّه يا سيدي، لما رُفع قلمك، جف رحم العربية!.

٦- وما يسطرون ١:

و أريد أن أتوسع في معان أخرى من القلم مرت لماما فيما سبق من كلمات، و أرى أنها من أجلّ معاني القلم التي قامت عليها الحضارات، قديمها وحديثها. فلقد قلنا إنه من معاني القلم التقسيم والتدرج أو المرحلية، و هذه هي طريقة الإنسان في تعلمه وفي فهمه العلوم جميعا، وهي التي تعينه على التمييز ليتعلم و يفهم.

إن هذا التقسيم نستطيع أن نترجمه في كلمة أخرى هي (الجماعة)، أي إنه العمل الجماعي الذي يقوم على تقسيم المهام الكبرى بين الأفراد (تقليم المهام الكبرى)، وهل تقوم الحضارات والنهضات إلا بالعمل الجماعي؟. وقد كان النبي عليه الصلاة السلام، مقلما بارعا لشخصيات الناس، ومن أمهرهم في تقليم الأدوار، وتقسيمها، ودفعها إلى المناسبين لها من الصحابة. إن هذا العمل الجماعي شيء مقدس عندما يرتبط بحضارة القرآن ورضا الله تعالى، لذا فلا غرابة أن يقسم الله تعالى به في آية القلم ذاتها: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، إن (واو الجماعة) في ﴿وما يسطرون﴾، يشير إلى الجماعة الفاعلة، و عملها، فلن تقوم لنا حضارة، إذا لم نعمل معاً، كما نصلي معاً، ونصوم معاً، ونحج معاً، وندخل الجنة (زمراً) معاً.. معاً ثم معاً ثم معاً، لكننا مضرب المثل في التفرق والتمزق، فالجماعة دينٌ يا أمة المرقعات والتفرق!.

وتتضح خطورة العمل الجماعي المقلَّم عندما نعلم أننا نؤذى من أخوتنا أضعاف ما نؤذى من أعدائنا، فقد قال تعالى معقبا على هزيمة أحد:﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران/١٦٥)، إن أسباب إخفاقك لا تقتصر على محتوى نفسك، بل تمتد إلى نفس أخرى، ترتبط بك فتؤثر فيك، فلتعبير (النفس) في القرآن معنى فريد، قد يراد به كل أخوتك من المسلمين، فنفس أخيك كأنها نفسك[١٥]، ونستطيع أن نفهم تعقيب الله عز وجل على هزيمة أحد:﴿قل هو من عند أنفسكم﴾، نستطيع أن نفهمه –على ضوء هذا المفهوم– أن الهزيمة أتت من أنفسكم، أي من أخوتكم الذي عصوا أوامر النبي ﷺ، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ.﴾(آل عمران/١٥٢).

إن هذه الحقيقة حول عمل الجماعة، يجب أن يعيها كل من يعمل للنهضة، وهي أن عمله على تطوير نفسه، وإصلاحها، سيكون بلا جدوى إن لم يكن متصلا بتطوير غيره، لأن الهزيمة قد تأتيه من ذلك الغير، من نفسه الأخرى، و هذا المعنى تصدقه سور العصر أيضا، فالقرآن يقرر أن إيمان الفرد، و عمله الصالح، لن يقياهُ الخسران ما لم يعمل في جماعة تتواصى بالحق والصبر، والخسران والهزيمة نهاية كل من لا يسعى لتطوير كل أفراد المجتمع، ويتواصى معهم بالصبر والحق،

١٥- انظر في تفسير الآيات(٨٤-٨٦) من سورة البقرة-تفسير البغوي.

عملا و إيمانا: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر)

هل هذا هو التفسير لورود الخطاب جماعيا في آية الرعد، الذي يشترط التغيير الجماعي لما في الأنفس؟: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. وهل هذا هو التفسير أن الخراب والدمار لن يكون خطيرا إلا عندما يلتهم الفساد مساحات شاسعة من الأنفس معا؟: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(الأنفال/٥٣).

و هناك ظلال آخر لهذه الآية: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾،... أي إن تفكيركم بأنفسكم، وبخلاصكم الشخصي، وبمجدكم الفردي، هو الذي منعكم من التفكير بغيركم، فنالتكم الهزيمة جميعا..

إن تفكيرك بنفسك سيجر الهزيمة عندما يكون تفكيرا نفعيا ماديا يدور حول مصالحك فقط، وسيجر الهزيمة أيضا عندما يكون علمك وتقواك شخصيين، أي لا يمتدان إلى غيرك، مع أنك صالح بالمفهوم الشعبي أو متدين!. إن كل أدبيات الإسلام تتمحور حول ترسيخ معنى الجماعة في نفوس المسلمين الذي لم يأخذ منهم إلا التفرق والتناحر. فهل نستطيع أن نقول أن نشر الحب والإخاء بين المسلمين يدخل ضمن معاني القلم لأنه يعزز دور الجماعة؟، وقد مرّ معنا أن الأخوة

من مقومات الاستخلاف، فعندما تعلو النفوس على أمراضها (تقوى)، ستتعاون مع أخواتها لبناء صرح الحضارة (العلم).

والجماعة حركة أفقية وعمودية، تنداح في الزمان والمكان، فقد تكون تعاونا بين الأحياء في الزمان والمكان نفسيهما، وقد تكون تعاونا بين الأحياء والأموات على مراحل متعددة، أما الأول فمفهوم، وأما الثاني فهو ما سيحتفي به بياني، وأراه يدخل في صميم معاني القلم:

إن بناء الحضارات عمل شاق، يحتاج جهدا تراكميا من الأفراد والجماعات، وتحديه الكبير أنه يحتاج أمّة من الزمن قد تلتهم أعمار الألوف، وهذا هو المعنى القلميّ الذي أريد بيانه إنه (التراكم)، أي دفعات مقسمة (مقلمة) من العمل يقوم بها الأفراد والجماعات، تتراكم شيئا فشيئا، خلقا من بعد خلق، وطورا من بعد طور، حتى تصبح خلقا آخر، يشكل الحضارة، وقد يموت العاملون على الطريق قبل أن يروا نتائج عملهم الحضاري، لكن التراكم الذي حققوه هو الذي يفضي لما بعده، هو الذي سيبني عليه اللاحقون، ويدخر وقتهم لأهداف مرحلتهم و مشاكلها، إنه تعاون بين الأحياء والأموات، الذين ربطت قلوبهم وسواعدهم غاية واحدة، هي بناء الحضارة الإيمانية. ألا ينطوي ذلك على إيمان بالغيب؟، كيف ستعمل إن لم تؤمن أن الله سيهيئ لعملك من يكمله، وأنه لن يضيع أجر من أحسن عملا؟، بل إن

عملك إعانة حاسمة على بناء ذلك الجيل الذي سيكمل المسيرة، لأنك ستشق لهم الطريق، ستضع لهم اللبنات التي سيبنون عليها ويرفعون بنيانها، إنك تعينهم على الأمل والعمل، و كل جيل يتقاعس عن أداء مهمته، فإنه سيورث مشاكله لمن خلفه، فيتأخر النهوض، وربما لن يحدث!.

وكم يشبه هذا التراكم الزمني المقلَّم للعمل الجماعي الذي يبني الحضارة، كم يشبه الكتابة، التي حققت التواصل بين الأحياء والأموات، فأنتجت التراكم المعرفي، الذي حقق نضوج البشرية وتقدمها، و لا غرابة في تشابه كل هذه المعاني، لأن القلم يستوعبها كلها، فهو من جهة التقسيم والتدرج يعني الجماعة التي تتقاسم الأدوار حتى في الأزمنة والأمكنة المختلفة، كما أنه يدل على الكتابة من جهة كونه القلم المعروف، فإذا كانت الكتابة من معاني القلم، فإن تأثيرها لن يتحقق حتى تتراكم كتابات العشرات أو الألوف من الجماعات البشرية، و هذا المعنى اختصره القرآن في كلمة واحدة (وما يسطرون).. جماعة تسطر!.

فالقلم أن تؤمن أن التدرج أو التراكم سيكون بك وبغيرك، أي إنك مرحلة من مراحل، فقد يكون عمرك العامل الآمل كله محض خطوة من خطوات الهدف الحضاري، تدفعه نحو الأمام، لكنه سيكمل سيره بخطوات أخرى، بأعمار أخرى، حتى يبلغ غايته، فلا تشترط النتائج

السريعة لتعمل، لأن عمر الأهداف الحضارية أطول من عمرك، و قد لا ترى نتيجة عملك المباشرة، لكنك ستعلو على الزمن، ويتطاول عمرك لما يكون لك بذل في بناء الحضارة، في هذه الحالة فقط، فأنت حي لا تموت، وآية الملك تزيد هذا المعنى سناء وسناء، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك/ ٢)

إن الحياة هي وعاء الأعمال، وهي الفرصة الفذة المكشافة لبذل الأفراد، فلماذا جاء معها ذكر خلق الموت؟.

وأجيب: إن تحقيقك الدرجة القصوى من التفاضل الأحسني لن يكون بلا أعمال تستمر بعد موتك، لن يكون بلا أعمال تجعل عمرك ملايين من السنوات، فتعلو على سلطان الزمن فترتبط بروحك الخالدة حتى تلتقوا في الجنة مرة أخرى حيث الخلود الكبير، والمثير أن الاختبار ليس في حسن العمل بل في الأحسن منه!، أي إن هذه الآية تحضنا على وضع الأهداف الحضارية المميزة المعمرة، التي تؤهلنا لدخول السباق، تحضنا على أن نضع أهدفنا بمنطق (غرس الفسائل) التي تعمر ويمتد خيرها بعد موتنا، فحذار أن تحرم نفسك من ميدان التفاضل الموتي، فكيف إذن بمن يضيع ميدان التفاضل الحياتي؟!، ما أعظمه من خسران!، إن القرآن يبني إنسان الموت والحياة ونحن أضعنا حتى الحياة!.

فهل سنتعلم أن نعيش للأهداف الحضارية وبها؟.

وخير ما أضيء به معنى الجماعة والتراكم الذين تتجلى فيهما صفتا الخليفة في التقوى والعلم هو حديث الفسيلة: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:(إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل[١٦]). والفسيلة هي النخلة الصغيرة، التي تحتاج إلى سنوات حتى تؤتي أوكلها.

إن هذا الحديث ينمي إحدى صفتي الخليفة ألا وهي التقوى التي تقوم على الإيمان بالغيب، لأنه يأمرك أن تغرس فسيلة بين يديّ الساعة، ولا أمل لتجني ثمرته المادية، أو يجنيه غيرك، فهو يعلمك أن الله يجب أن يكون غايتك، اغرس حتى وإن لم تجن ثمرة غرسك، أو يجنِها الآخرون، فالدنيا ليست دار جزاء ومكافأة، وعندما تعمل بهذه النية فلن تنتظر شكر أحد، ولن تأبه كثيرا لجحوده، فالقيامة تقوم ولن يبقى كون، ومع ذلك اغرس فسيلة ستثمر بعد سنوات، المهم أن تعمل، قدرْ أهمية العمل، إذن جمع هذه الحديث أهميتين: أهمية النية والوجهة(التقوى والإيمان بالغيب)، وأهمية العمل، الذي لن يكون باسقا بلا علم دنيوي عميق(العلم).

إن هذا الحديث يعلمنا أن نخطط للأهداف الحضارية الباسقة، العميقة في القلب والزمن، أهداف السنين، إنك تغرس فسيلة نخل لن تثمر إلا بعد سنوات، تحتاج إلى ماء الصبر والأمل، والتعهد المستمر

١٦- الألباني، السلسلة الصحيحة ١٢٢٨.

بالسقاية والرعاية. فهل يجهل أحد شموخ النخل وعزته وهيبته، أصله ثابت وفرعه في السماء، فاحرص أن تكون أهدافك فسائل لتثمر نخلا شامخا، احرص أن تكون أهدافك كبيرة، أهدافا حضارية، عمرها من عمر الحضارة، ومن البديهي ألا ترى نتائجها لأن عمرك أقصر منها، وقد غرس المصطفى عليه الصلاة والسلام الفسائل وذهب إلى ربه قبل أن يرى ظلال فسائله يهيمن على نصف العالم من الأندلس حتى الصين.

فكأنه يقول لك: اغرس فسائلك واعمل لهدف حضاري ولا تنكص عنه حتى وإن بُعدت نتيجته، لأن طبيعته هكذا، إنه أطول من عمرك، فقد تموت على الطريق ولن تبلغه كله، لكن يكفيك أنك تموت على طريقه،وإياك أن تظن أن استبعاد النتائج مطلوبا لذاته..لا، إن الإنسان بفطرته يحب أن يرى نتيجة عمله، وإنه من كرم الله أن يقر عينك بذلك في حياتك، وقد يكون عاجل البشرى لك، لكن الثمرة الحقيقية في الآخرة، فقد يكون الواقع الذي أنت فيه شديد الظلام، ويحتاج لعمل كبير ليتغير، وهذا يحبط الإنسان فينكص عن العمل، في هذه اللحظة المؤلمة من ضعف الإرادة، وخور العزم، نسوق له حديث الفسيلة ليقيه النكوص على عقبيه، ونقول له: هل واقعك القاسي أشد من هول الساعة؟!، وهل يوجد حدث ومصيبة أعظم من يوم القيامة؟!، والساعة أدهى وأمر، ومع ذلك يقول لك اغرس..اغرس

في حدث يُذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى!.

كأن النبي ﷺ يريد أن يعلمنا الثبات ورباطة الجأش في الأزمات، إنه علم إدارة الأزمات، إذن استجمع قواك وفكرك وهدوءك وخطط لأهداف حضارية حتى وإن كنت في قلب المصائب الكبرى، لأن هذا هو السبيل الوحيد للخلاص منها وحلها، إن هذه الحديث يعمق فينا أيضا أهمية العمل في أصعب الظروف، وفي أجسم المصائب، إنه يصنع المسلم الإيجابي البنّاء، الذي ينشط في المصائب والأهوال فكيف فيما سواها.

لكن علينا أن نعلم أن الأهداف الكبيرة هي سلسلة من الأهداف المرحلية الصغيرة التي تصب آخر الأمر في الهدف الكبير، وقد يحقق الإنسان جزءا منها ويراه في حياته، لكنه قد لا يرى المشهد الناضر كله، فلا ضير مادام أنه ماض إلى من لا يضيع أجر من أحسن عملا. وقد تكون الفسيلة التي تغرسها، تخصصا مهما تخدم به أمتك، أو منهجا تعليميا، أو أي إبداع أو تجديد في مجال ما، من تلك المشاريع الضخمة التي تفنى بها الأعمار، وتعز بها الأمم وتعلو..

إن الإيمان بالتدرج أو التراكم أو المرحلية يعلمنا أن نصبر على أنفسنا وأهدافنا، فكل شيء يبدأ صغيرا، يبدأ فسيلة غضة، لكنه يصبح قويا

جبارا مع الزمن والصبر والتعهد والرعاية، فليس هناك فسيلة تكون نخلة بين ليلة وضحاها، إنه عمل صغير (غرس فسيلة) لكن عاقبته كبيرة جدا (نخل باسق له طلع نضيد). فلكل شيء أجل، فلا تكن عبدا للأشياء الكبيرة السريعة بلا مراعاة للسنن والقوانين الإلهية، إن إبليس يغريك بذلك كي لا تعمل، كي تكره الفسائل، فتبحث عن أشياء جاهزة، وربما تكون من غرس حضارات أخرى وقيم أخرى ومبادئ أخرى، وكم من مسلم يجعل فعاليته مشروطة بظروف كاملة ومجتمع ناضج!، ولسان حاله كذلك الرجل الذي دعاه النبي عليه الصلاة والسلام أول الإسلام فقال له لن التحق بك حتى يظهر أمرك، ففاته شرف الهجرة وندم أشد الندم لما انتصر الإسلام.

وآخر فسيلة أوصيك بها هي نفسك، لأنها الفسيلة الأهم التي ستغرس كل الفسائل الأخرى، كن رحيما بها، صبورا عليها، تعهد بناءها جيدا، و أوصيك بأولادك فهم أغلى الفسائل فأحسن غرسهم. بل إن إيمانك بالتدرج والمرحلية لا بد أن يدفعك لإعداد أطفالك للهدف الحضاري الذي نذرت نفسك له، ليكملوا من بعدك، إنهم الفسائل التي يجب أن تغرس في واقعك الكالح.

إن آية الملك تطالعني مرة أخرى:﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك/٢)..وتخبرني إن

بناء الأطفال هو خير ما تتقي به ابتلاء الموت والحياة، وهو العمل الذي يتربع على ذروة من ذرى الأهداف التي تبني حضارة الأمة، ويبدأ إعدادهم من البطن، من موتهم، من قبل أن يخلقوا، ليكونوا محررين لله، ولتكونوا ذرية بعضها من بعض، ويكونوا لك حياة في موتك، ألم يقل النبي عليه الصلاة السلام: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له[17]). يا لها من ميادين رائعة وسامقة للأهداف الحضارية والتفاضل الأحسني، فهل سيحسن العمل يا ترى من يخطئوها؟ وهل ستظن أنك ستدخل ميدان التفاضل الأحسني إن أنتجت دوابا من النشء تحسن الهضم والخضم فقط؟، يا من أهملتم أطفالكم، فحرمتم أنفسكم صلاحهم، فخرجتم من ميدان التفاضل الأحسني..فكم من رجل بل كم من امرأة حرصت على النجاح المهني أو الاجتماعي ونسيت مهمتها الجميلة الجليلة في بناء ولد صالح يدعو لها، بل تدعو له الأمة كلها.

وصدقة جارية...

تجري ما شاء الله لها أن تجري..نعم إنها جارية خالدة لأن صاحبها فكر بذلك وأراده وعمل له، لأنه يعيش بمنطق غرس الفسائل، وواع لميدان التفاضل حتى في الموت، لأنه يعلم أن حياته لن تكفي لبناء حضارته على عينه، لذا فقد حرص على الأعمال الخالدة التي تصله حياته وموته بالآخرة.

١٧- صحيح مسلم، ١٦٣١

وعلم ينتفع به..

إن ميدان الصدقة الجارية ميدان فسيح يتسع لجميع الأعمال والأفكار والأيدي، ولا أظن أن العلم النافع يخرج عنه، لكن النبي ﷺ خص العلم بالذكر، لنعلم أن التفاضل العظيم سبيله العلم و القلم، لنقيم حضارة المعرفة التي تسبق باقي الحضارات، ولشدة فقهنا هذه الحقيقة، حصلنا على المراكز الأولى في سلم التفاضل من حيث التعليم والجامعات والشفافية والنمو الاقتصادي... لكن من الأسفل!.

صدقة جارية..غير منقطعة، وعلم ينتفع به.. فعل مضارع مستمر، وولد صالح يدعو..أيضا فعل مضارع مستمر..هذه هي فضاءات الخلود، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أحسن عملا، هذا هو طريقك إلى ملك لا يبلى في سورة الملك..

هذا هو الطريق: القلم= الجماعة- التراكم- المرحلية..

٧- وما يسطرون ٢:

وكثيراً ما يُكنى عن الأفكار والعواطف بالقلم، فيقال قلمه سيال أو خصب أو.. وهو تعبير معنوي وحسي في الوقت ذاته لأن القلم المعنوي يحتاج إلى قلم حسي يترجمه على الورق (الكتابة).

ولا يمكن الاقتصار على معنى القلم بالقلم المعروف بين أيدينا، فما قيمة القلم الحسي بدون تلك القدرة العقلية لدى الإنسان؟، ما القلم إلا وسيلة لترجمة ذلك الإنتاج العقلي.

ومن جهة أخرى: ما قيمة المعلومات التي تحصل عليها بالقلم المعنوي وهو العقل، ما لم تنقلها بالقلم الحسي إلى الورق لتضمن انتقالها بين الأجيال المتتابعة لتستمر دورات الاستخلاف؟.

لقد كانت البداية بقدرة الإنسان على التمييز بين الأشياء، ووسمها بالأسماء صوتياً، لكن الترميز الصوتي منوط بحياة الإنسان، فإذا مات كيف ستنتقل معارفه؟، لا شك أن ذلك سيقضي على البشرية بالجمود فلن تتقدم..

وفي تدوين القرآن خير مثال; إن استشهاد كثير من الحفظة، كان دافعاً لكتابة القرآن، وآية المداينة – التي تأمر بكتابة الدَّين- خير دليل على أهمية هذه المسألة.

ولذلك كان اختراع الكتابة، ومن بعدها المطبعة، نقلة مذهلة في تاريخ البشرية، حيث اعتمد الإنسان الأول على الرسوم ليميز الكائنات، ويتواصل مع غيره، وينقل معارفه، وشيئاً فشيئاً استطاع أن يخترع الأبجديات، فأضاف أعماراً إلى عمره.

فالكتابة وسيلة لتعلم ما لم نعلم (الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم) لأن التراكم المعرفي عبر الأجيال الذي تحققه الكتابة هو السبيل إلى اكتشاف المزيد من العلوم والمعارف الجديدة، فكلٌّ يبني على من سبقه، ويصل إلى اكتشافات جديدة لم يكن بمقدوره أن يصل إليها لولا التراكم المعرفي الذي حققه القلم وما يسطر، فهو الضمانة للقيام بمهمة الاستخلاف واستمرارها وتطورها التي انطلقت من علم الأسماء.

فالله تعالى يهب الإنسان الإمكانات والمفاتيح الأولية لكل شيء —كمنحه قدرة التمييز وتعليمه الأسماء- ثم يأمره أن يُتبع سبباً، ليكتشف إمكاناته ويطورها، ويزيد سلطانها، ليزيد من قدرته على تسخير الكون، **فكل ما يزيد سلطان حواسك وإدراكك وعلمك، يدخل في علم القلم والأسماء وتسخير الكون والاستخلاف.**

والكتابة امتداد لقدرة الإنسان على التمييز، يميّز أفكاره بها، ويقلمها مستبعداً الفجة منها، ويرسم لها حدوداً واضحة تقطعها (تقليم) عما يجاورها أو يتداخل معها، ويعيد قراءتها (تقليمها)- بعدما كُتبت- مرة أخرى، ويكتبها مرة أخرى، وهكذا حتى تنضج، ثم يقرؤها الآخرون، و يقلمونها أيضا حتى تبلغ درجة الكمال أو تكاد. فهل تعجب إذا علمتَ أن من وصايا علوم الإدارة والتخطيط: أن اكتب أفكارك وخططك وأحلامك؟.

والكتابة من الأمور التي أقسم الله تعالى بها عندما قال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(القلم/١). لقد أقسم بالأداة:(القلم)[١٨]، وإنتاجها: (الكتابة)، مع الإشارة إلى (الجماعة المنتجة) يشير إليها (الواو الفاعل) في (يسطرون)، فهم المنتجون، فما قيمه القلم بلا كاتب (منتِج)؟، وما قيمة الكاتب بلا كتابة (إنتاج)؟، وأظنكُ ظننتَ أن الكتابة هي الكتابة، كما ظننتَ - من قبل- أن القراءة في (اقرأ) هي القراءة؟.

وهنا وقفة هامة جداً، إن السطر[١٩] هو القطع، وسطَرَ الشيءَ بالسيف أي قطعه[٢٠]، والسطر من فعل القلم، وهذا يؤكد معنى التقليم في القلم الذي يقوم على فصل الأشياء عن بعضها البعض ويحددها فيجعلها مميزة، فالسطور المتمايزة عن بعضها البعض تحمل في تضاعيفها أفكاراً وحقائق مقلمة أيضاً، تشكل المادة الخام للمراحل التالية من مراحل الاستخلاف، لذا أرى أن (ما يسطرون) أخص من (ما يكتبون)، فليست كل كتابة نافعة، أو تفيد علماً.

ما يسطرون: هي الكتابة التي تعبر عن الحقائق، هي الكتابة التي تصفُّ الأسماء في سطور بما يتوافق مع العلاقات بين المسميات خارج ذهنك أو في الأرض أو في الكون، أي علاقاتها وفق السنن الكونية،

١٨- لي كلام آخر حول هذه الآية، سيأتي في فقرة ن والإنسان الخليفة.

١٩- تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، تفسير سورة القلم ص٦١.

٢٠- المعجم الوسيط.

هي نتاج التقليم الذي يكتشف الحقائق والقوانين والسنن في الأنفس والآفاق، وهي الإنتاج النافع الذي يمهد لوسائل ومخترعات جديدة تدفع عملية الاستخلاف نحو الأمام، وهذا معنى العلم، والعلم هو إحدى صفتي الخليفة كما سيأتي....

أما الصفة الأخرى وهي التقوى، فهي المعنى الأخر في (ما يسطرون)، فالله تعالى لا يقسم إلا بشيء عظيم، فهل سيقسم بشيء يخدم الشر أو يهلك الحرث والنسل، كما تفعل علوم حضارة اليوم؟!. إن (ما يسطرون) لا يمكن أن تعني إلا العلوم والاختراعات المنضبطة بنهج التقوى، التي تخدم الحق.

ما يسطرون تعني خلقاً جديداً يقوم به الإنسان لنفع الإنسانية، ليعضد الإيمان لا الطغيان.فالله تعالى أقسم في القرآن بعدد من مخلوقاته المسخرة لخدمة الإنسان، وها هو يقسم بما يخلقه الإنسان لخدمة الإنسان والإيمان، فما أعظمك أيتها الكتابة يوم تكونين بمنهج (ما يسطرون).

فالسيارة أو الطيارة أو جهاز المرنان أو الأقمار الصناعية أو أي اختراع مذهل يدخل في (ما يسطرون) أفلا يستحق القسم عندما يؤدي وظيفة نافعة كالشمس أو القمر أو أي مخلوق سخره الله للإنسان!؟..

فكأن هذا الإنسان (الخليفة حصراً) هو امتداد لقدرة الله الخالقة المتصرفة، فهو يقرأ باسمه، لذا لم يأمر الله تعالى بالقراءة إلا باسمه الذي خلق!، لأن عقلك عندما يصل إلى هذه الدرجة الشاهقة من العلم، ستستطيع أن تضيف إلى الكون ما يجعله مذللاً أكثر للإنسان، فتشتق من اسم الخالق الذي خلق، تشتق منه صفة الخلق[21]، فتخلق من المخترعات والنظم والوسائل ما يعزز مهمتك الاستخلافية في الأرض.

إن الكتابة هنا، جسم العلوم كلها، طور تخلّقٍ من أطوار تعبيدك للكون وتسخيره، فانفخ فيها من روحك، لتكون قارئاً باسم ربك الذي خلقك من علق، فأصبحت خلقاً آخر يعلم ويتعلّم..

الكتابة مرحلة (علق) من مراحل الإنتاج، لابد لها أن تنتهي مثلك إلى خلق آخر، إلى مسطورات كثيرة من علوم واكتشافات ومخترعات (ما يسطرون).

وإنه لشيء مثير أن يجتمع العلق والخلق في آية أخرى، قال تعالى:﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون/١٤).

٢١- يرتعد البعض من نسبة هذه الصفة للإنسان!، ونقول له: إن الفرق بين ما يخلقه الإنسان وخلق الله، كالفرق بين الله والإنسان، وكالفرق بين علم الله وعلم الإنسان، وقد قال تعالى لعيسى: (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي) (المائدة/١١٠)، فقدرة الإنسان على الاختراع أو الخلق، دليل على عظمة الخالق، وهي نسبية وليست من العدم، بل تستند إلى ما خلقه الله للإنسان في هذا الكون.

إن سيرتك الذاتية في هذه الآية، و(أحسن الخالقين) تعنيك بالذات وتنبئكَ بأمرين: الأول أنك خلق عظيم لله أحسن الخالقين، والثاني أنك قادر على الخلق، (فالخالقين)- بالجمع - تشملك!.

إن هذا يدلك على معنى القراءة التي يريدها الله منك يوم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(العلق/١-٢). اقرأ باسم -ربك ..إنه ربك، فقد نسبك إليه، وكأن فيك شيئا منه، أو كأنك مزود بشيء من صفاته جعلك تحمل شرف هذه النسبة، لكنه لم يختر من صفاته حين أمرك بالقراءة إلا صفة الخلق (الذي خلق). اقرأ بهذا الاسم حصرا، ولكن ما ميزة هذه الصفة؟ وما عظمتها؟، ستجد الجواب في آية: خلق الإنسان من علق، علق!..علق لا قيمة له، ولا يُرى..علق!. كيف جعلتْ صفة الخلق من هذا العلق إنسانا يستطيع قراءة هذا الكون؟. كان علقا فأصبح شيئا آخر، شتان ما بين بدايته ونهايته. إن نسبتك إليه، تعني أن فيك شيئا من قدرة الخلق هذه، ولقد حدد لك السبيل، إنه القراءة.

اقرأ باسم ربك الذي خلق تقول لك يجب أن تخلق..أن تخترع.. يجب أن تضيف إلى الكون، وتغير فيه، وتزيده ترتيبا وجمالا، إنها نوع من الخلق النافع المفيد، الذي ينقل الأشياء من مراحل علقها إلى مراحلها المبدعة الرائعة، مثلما جعل الله تعالى من العلق إنساناً، فعليك

أن تقرأ باسمه وتقلم المواد الخام والمفاهيم، وتنقلها من مراحل العلق إلى مراحل أخرى تكتمل فيها، وتصبح لها وظيفة نافعة، كصنعك من الحديد الخام، أسلحةً تحمي بها الحق، أو أجهزة تعالج بها المرضى، أو مركبات تنقل بها الناس في البر والبحر والجو، أو من النبات دواء نافعا بل من سم الأفاعي، أو تصنع لنا نظريات و أفكارا مبدعة تغير وجه الحياة، فالخلق لا يقتصر على المجالات المادية فقط، وتكثر الأمثلة هنا.

والقراءة باسم الذي خلق، تبدأ بذكر خلقك أولاً: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وكأنه يرشدك إلى أن (نفسك) هي أول مخلوق يجب أن تكتشفه، لأن العلم به، وتضييق دائرة المجهولات حوله، سينعكس تسخيراً للكون، كأن القراءة باسم الذي خلقك من علق، فخلقك مضغة، فخلقك عظاماً، فكساها لحماً ثم جعله خلقاً آخر، عبر تخلّقه في أطوار متعددة، كأنها تأمرك أن تقرأ نفسك، وتتخلق من طور إلى طور، لتبلغ أشدك، ونضجك النفسي، الذي سينعكسُ- لا محالة – قراءةً لهذا الكون، وسيطرةً عليه. لقد جعل من العلق إنسانا آخر، فما يدريك لعل في داخلك أنسانا آخر، غير الذي اعتدت عليه؟!، لكنه مازال في طور العلق!.

فما هو حجم إنتاجنا في علم النفس بفروعه المختلفة؟، وما هي الوسائل التي ابتدعناها للتنمية الشخصية؟.

إن الله تعالى يريدك أن تقدّر نفسك و تثق بها، فأنت مخلوق كريم لرب أكرم، إن ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ هي أيضاً تدلك على ذلك، فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء/٧٠)، إن كرمه هنا يشير إلى تزويدك بالقدرة على تسخير الكون، بعقلك، بتعليمك بالقلم، وكيف ستركب البر والبحر بلا ثقة بإمكاناتك؟

إن هذه الثقة بالنفس هي التي جعلت الإنسان يخلق ما يحمله في البر والبحر، هي التي دلّته أو أوحت إليه أنه قادر على ذلك، وعندي أن هذه الآية من دلائل النبوة الصارخة التي تجلت في حضارة اليوم!، لماذا لم يذكر بعد هذا التكريم إلا الحمل في البر والبحر؟!.

إن في الآية إشارة خفية إلى أن قدرة الإنسان على اختصار الزمان والمكان هي أعظم مزية من مزايا تكريمه، التي تظهر شجاعته وجرأته على تسخير هذا الكون، بما فيه من بحار عاتية، و فضاءات مهيبة، وهذا المعنى تصدقه مظاهر الحضارة الحديثة التي أبدعت في اختراع وسائل الانتقال والاتصال إلى درجة مرعبة يتطامن لها الخيال!.

سكنت إليَّ هذه الفكرة وأنا في المطار أتأمل تلك الطائرات الضخام، وكأنها مدن تعوم في الهواء!، وسرح فكري بعيداً حول هذا الإنسان، وما زوت له ثقته بنفسه من خيرات هذا الكون. إن من يركب الطائرة مثلاً، لا يمكن له إلا أن يعجب بهذا الإنسان، ويحترمه، ويدرك التكريم الذي ناله.. ما أجدر المسلمين بهذه الاختراعات لو أنهم بقوا مع روح قرآنهم، إن التكريم في هذه الآية يشير إشارة حاسمة إلى اختراع وسائل النقل الحديثة، هكذا أفهمه!.

إن ذكر الحمل في البحر ملفت حقا، كيف حملنا في البحر؟!. إننا نركب البحر الآن بالسفن والقوارب والبواخر العملاقة، لكن من أبدع كل هذه الوسائل، أليس العقل الإنساني؟، ألا يعني قوله: وحملناكم في البر والبحر، ألا يعني أننا حملناكم في البحر وغيره بمنحكم هذا العقل؟، ولقد كرمنا بني آدم إذ منحناه هذا العقل، وما أعظمها من إشارة، لماذا لم يقل الله تعالى مباشرة، أن تكريمه كان بمنح هذا العقل، لماذا عبر عن التكريم بذكر إنتاج العقل، كوسائل النقل هنا؟. كأنه يوحي إليك أنك لن تقدر تكريمه لك ما لم تستخدم عقلك، ما لم تقرأ، كأنك عندما تعطّل عقلك، كأنك تكفر كرمه تعالى أو تستره، لأن تعطيل العقل سيمنع ظهور ميزاته و إبداعه، سيجعله في مرحلة العلق لم يتحرك قيد أنملة. اقرأ وربك الأكرم، اقرأ..إن أميتك وعدم قراءتك وإبداعك

يعارض صفة الأكرم، فربك الأكرم. فلو لم يستخدم الإنسان عقله لما اخترع وسائل النقل البحرية والبرية والجوية، فانظر كيف اتسق التكريم واستخدام العقل عن طريق قراءة موجودات الكون كلها وأولها نفسك.

ومثلما أن التكريم بالحمل في البر والبحر تجلى في استخدام العقل، وخلقه وسائلَ النقل، فإن تغيير الله ما بواقعنا لن يكون إلا باستخدامنا عقولنا لتغيير هذا الواقع، فلا تفكر تفكيرا خرافيا وتنتظر معجزة من الله، لأنها بين يديك!، هي ذلك الكتاب، الذي لن يصبح معجزة ما لم تستخدم عقلك، أنت أنت أداة التغيير، إن تغيير الله بما بك، سيكون بك، ستغير ما بنفسك فتغير واقعك، لأنك تملك العقل، وكل هذه العملية لن تكون بلا القراءة التي تحلل محتويات نفسك، وتفككها، فتعينك على فهم نفسك، إيجابياتِها وسلبياتها، شهودها وغيوبها، حسناتها وعيوبها، ومحتوى الأنفس الذي يستحق التغيير هو محتواها من الأفكار السلبية أو الميتة التي هدمتك، وشوهت رؤيتك لنفسك وللواقع والعالم، وجعلتك أهلا للجهل والضعف والفقر، فعندما تقوم بهذه العملية فكأنك تعيد خلق نفسك مرة أخرى، وبهذا فأنت تقرأ باسمك ربك الذي خلق، وتتخلق شيئا فشيئا لتنتقل من مرحلة العلق المهينة الضعيفة اللامرئية إلى مرحلة الخلق الآخر المبدع، فهذا القراءة ستضمن لك تغيير نفسك، فإن غيرت ما بها، استطعت

أن تخلق واقعا جديدا وهذا هو التغيير االثاني الذي وعدك الله به في آية الرعد: ﴿..إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ..﴾ (الرعد/١١)

يجب أن تعلم- أيها المسلم- أنك كونٌ كثير الأسرار والمواهب، التي تنتظر منك أن تكتشفها وتسخرها، عليك ألا تستلم لبيئات الجهل والتخلف التي ألقت في روعك أنه ليس بإمكانك أن تغير نفسك للأفضل، وأن هذا هو الشكل النهائي لك وانتهى الأمر!، فلا خسارة أكبر من أن يحجبك جهلك بنفسك عن ذلك الممكن الجميل الذي يمكن أن تكونه. يجب أن نعلم أن مجتمعاتنا ليست صحية، ولا كرامة لكثير من أفكارها الميتة بل المميتة، ولن نحتاج لبراهين لإثبات تخلفنا، لذلك أدعوكم وأدعو نفسي ألا نستسلم لما يقال، خاصة فيما يتعلق بأنفسنا، إن الحركة قانون الكون، والحركة تعني التغيير، ولا شيء يبقى على حاله، كل شيء يتحول ويتحرك ويتبدل، إلا النفوس المتخلفة، فهي أعلنت رسميا وفاتها قبل وفاتها، وتنبأت بنهايتها قبل نهايتها، فدمرت نفسها بنفسها، إن نفسك بانتظارك، أطلق ما وهبك الله، وخطط، وجرب، واستشر واستخر، فهناك من يبذل كل جهد في فهم الأشياء أو الآخرين، ولا يفكر في أن يعرف نفسه!.

وأحذرك من (المخذِّلين الأحبة!)، فهم غالبا من أهلك وأصدقائك، من حيث يدرون أو لا يدرون، وتأثيرهم خطير لأن شرايين قلبك تعانق

شرايين قلوبهم، فما أسرع أن يسري سم تخذيلهم في نفسك، فحذار!. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(التغابن/١٤).

نحن بحاجة إلى كل قطرة من طموح، وكل ذرة من ثقة نفس، وطوبى لمن قدم نموذجاً في نفسه، فأغرى غيره بالانطلاق، وكم من عاجز يريد أن يخلع عليك عجزه، ويجعل مستحيلاته حقيقة في ذهنك!. فلا تتهيب صعود الجبال، فأبعد الأشياء عنك، قد يكون هو الأقرب إليك من الجهة الأخرى! لقد خلقك الله تعالى بيديه، وجعل لك وسائل التعلم، فلماذا تظن بنفسك سوءاً؟!، لذا فإن الإيمان بالنفس وقدرتها على النجاح في تسخير الأرض، ينبع من الإيمان بالله تعالى، وعندما يؤمن المسلم بهذا المعنى، ويستحييه وهو يتقلب في فجاج الأرض، سيهزأ بكل الصعاب، لأنه يقرأ باسم الله الذي خلق، باسم الأكرم، فكفى بهذين الاسمين لله تعالى اطمئناناً وأمناً ليبعثا على الثقة بالنفس، وجدوى العمل.

إذن: (ما يسطرون) تعني إنتاج العقل الذي سيتحول إلى وسائل تعين على تسخير الكون، وتحقق مقصد الاستخلاف. والسطر هو ناتج تفاعل القلم مع الكون عن طريق علم الأسماء واللغة بمنهج (اقرأ) أو (اقرأ): هي تفاعل القلم مع الأرض لينتج لنا السطر.

اقرأ = القلم × الأرض = ما يسطرون.. فسبحان الذي علم بالقلم، وأقسم به وبما يسطر!.

والكتابة، تستوعب النشاط الإنساني كلّه، فالتعبير بالحروف كتابة، والتعبير بالصور كتابة، أي عمل هو نوع من الكتابة بطريقة ما، التاريخ برمته نوع من الكتابة، والله يكتب لك أو عليك، بحسب ما تقرأ من هذا الوجود، فإن قرأت باسم الله، فلك، وإن قرأت باسم الشيطان فعليك. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (يس/١٢)

فأنت من يكتب، ولن تكتب إن لم تقرأ، والقراءة لغة الإظهار، والإبراز، كما قيل في وصف الناقة: لم تقرأ جنيناً، أي لم تنتج[٢٢] فالقراءة تعني الإنتاج، والكتابة تظهر هذا الإنتاج للأجيال اللاحقة، فيقرؤونه من جديد، ويكتبون وينتجون، وهكذا... فإذا كنت تقرأ ولا تنتج فأنت لم تقرأ!، لكن لا تحزن إن كنت تقرأ ولم تنتج بعد، فلكل شيء أجل أو فترة (حضانة) بالمصطلح الطبي حتى ينتج. إنه معيار دقيق لا يكذب:

إذا لم تؤد قراءتك إلى ثمرة، إلى شيء جديد، إلى تغيير ما، إلى خلق ما، فأنت لم تقرأ باسم ربك (الذي خلق)، فما تخلقه من أشياء وأفكار

٢٢- أضواء البيان للشنقيطي، تفسير سورة العلق.

ما هي إلا وسائل تعين الإنسانية على أن تعلم ما لم تعلم، فكم من جهاز مد سلطان بصرنا وسمعنا؟، فكأنها نماذج مصغرة عن هذا العقل، تشترك معه في صفة كشف المجهولات، وفي تعلم ما لم نعلم، وهذا كله نقطة في بحر الله العليم الخالق، السميع البصير الذب جعلك سميعا بصيرا، لكنك لم تسمع ولم تبصر، فاخترع غيرك الهاتف والمجهر والتليسكوب!.

وأرى أن كل وسيلة تؤدي إلى الكتابة، وتسهل تبادل المعلومات، ومعالجتها، أو تكتشف ثروات الكون، وتعين على مهمة الاستخلاف، أرى أنها قلم، وتدخل في ذلك جميع الأجهزة (أقلام حسية) كالهواتف والحاسبات والمناظير والمجاهر والتلفاز..

وكذلك القواعد أو القوانين أو الضوابط أو السنن أو المنهجيات (أقلام معنوية أو تجريدية) التي تضبط العمليات العقلية وتزيد من دقتها وقدرتها من الوصول إلى الحقيقة فهي أقلام، ونستطيع أن نضرب الأمثال لذلك في مصطلح الحديث والجرح والتعديل، وعلم العلل، وعلوم اللغة كالنحو والصرف والبلاغة والعروض والمعاجم فهذه كلها أقلام، وعلم التحقيق والمخطوطات، وقواعد المنطق التي تعين على ضبط المحاكمات العقلية. كما تدخل في ذلك كل منهجيات البحث العلمي المعاصرة، وقد سبق الغرب في هذا المجال سبقاً بعيداً، ولديهم الآن مراكز بحوث ضخمة، ومجلات مُحكّمة في كل علم (مجلات تخصصية) تقف وراءها

ورشات ضخمة من العلماء والباحثين الذين يسطرون في عمل جماعيٍّ يشبه خلية نحلٍ أو قرية نملٍ، كل هذا من ضمن تطبيقات (اقرأ) و(علّم آدم الأسماء كلها) و(الذي علم بالقلم)، و(علّمه البيان) و(ن والقلم وما يسطرون).

وينطلق هذا المفهوم الشامل للقلم من تلازم الأقلام، وتكاملها مع بعضها البعض، وارتباط كل قلم بالآخر بحيث يفقد معناه منفرداً، كل أولئك جعل اسم القلم يجري على كل وسيلة تنتظم في سلسلة العملية التمييزية الإدراكية وما يتبعها من كتابات متنوعة تنتهي إلى تسخير الكون والقيام بمهمة الاستخلاف. فاكتب لنقرأ إنسانيتك، فالكتابةُ صلاةٌ يسجد فيها عقلك لمن علّم بالقلم! .

٨- اقرأ كتابك:

والكون كله كتاب مفتوح يحتاج إلى قراءات متنوعة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(لقمان/٢٧).

قال ابن كثير: (ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً ومده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً).

إن مفردات الوجود كلها كلمات الله، تدل عليه وعلى صفاته، وعلى بديع خلقه: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(البقرة/١١٧)، فهو الذي أبدع هذا الكون، وإنما أمره أن يقول للشيء، كن فيكون، لكن الكلمة تحتاج لمن يقرؤها، ولمن يكتبها أيضاً، فالقلم هنا أداة قراءة وكتابة، وقد قال لك: اقرأ، فأنت أمام كتاب كوني مفتوح لا تنتهي كلماته...

فالسماء تحتاج إلى قراءة (علوم الفضاء)، والبحر يحتاج إلى قراءة (علم البحار)، والنباتات تحتاج إلى قراءة (علم النبات)، والحيوانات تحتاج إلى قراءة (علم الحيوان)، والنفس البشرية تحتاج إلى قراءة (علم النفس)، والجسد البشري يحتاج إلى قراءة (علم الطب)، والتاريخ يحتاج إلى قراءة (علم التاريخ)، والاجتماع البشري يحتاج على قراءة (علم الاجتماع)، وثروات باطن الأرض تحتاج إلى قراءة (علوم النفط والثروات المعدنية والجيولوجيا)....

وكل ذلك لن يكون إلا بالقلم، بقدرتك على التمييز والتسمية والفهم والتحديد والتقسيم، فإذا قرأت بقلمك (بعقلك) ستحتاج إلى أن تكتب بالقلم، وتحتاج إلى أن تخترع أقلاماً جديدة باستمرار (أجهزة) لتستطيع أن تقرأ كلمات إلهية جديدة، وتكتبها من جديد.

وحتى إن وقفنا عند ظاهر الآية بأن المراد هو القلم المعروف، فإن ذلك لن يناقض فكرتنا، لأن إنتاج القلم المعروف هو الإنتاج الفعلي

للقلم الأول، والترجمة العملية له، بل لا وجود له بدون القلم الأول، فمَن اخترع الكتابة وأداتها ؟، أليس القلم الأول؟!، والكتابة هي المهاد لكل علم واختراع كما أسلفنا.

إذن، يجب أن يتجسد إنتاج القلم الأول في القلم الثاني، فالأول روح، والثاني جسده، أي يجب أن تنتج القراءةُ كتابةً، وتفتح الكتابة لقراءةٍ أخرى، وهكذا، ومن القراءة والكتابة، نصنع الوسائل التي تستعمر الأرض باسم الله.

إنّ القراءةَ قراءةَ الكون، استخدامٌ للقلم المعنوي، والكتابة استخدام للقلم الحسي، يتكاملان مع بعضهما البعض، فالقلم لأول قدرة عقلية تجريدية تميز الكائنات وتسميها بعد أن تدرك طرفاً من حقائقها، ثم تستمر وترسُخ عملية التمييز عن طريق القلم الثاني (الكتابة)، الذي ينقل معارف العملية التمييزية إلى مراحل أخرى، وبذلك تتحول ممكنات الإنسان الجنينية، إلى أعمال تكتب التاريخ وتصنع الحضارة تترجم معنى: ما يسطرون.

٩- نموذجٌ مما سطروا:

كلماتٌ على ضفاف مقدمةٍ في مرجع علميّ[٢٣]:

جمحتْ بي الأفكارُ وأنا اقرأ كلماتِ الشكر والعرفان للمؤلف، يثني فيها على العلماء الذين ساهموا في إنتاج هذا الصرح العلمي الهائل، وعلى الجنود الأخر الذين ساهموا في طباعته، وإخراجه بآنق حلة، ولنبحرْ قليلاً في تضاعيف هذا المشهد:

إن هذا الكتاب عمود شاهق في اختصاص علم أمراض الفم على مستوى العالم، يقرب عدد صفحاته من الألف، تتوزع على فصول متعددة في جوانب مختلفة من هذا العلم، وتقف عشراتُ من الأبحاث العلمية من وراء معلوماته، في عشرات من السنوات الأرضية، كل بحث له جنود كثر وغايات محددة، دأبوا على البحث فيها شهوراً وشهوراً، وسنيناً وسنيناً، كأني بهم كخلايا النحل التي تسلك سبل ربها ذللاً لتخرج عسلاً شهياً فيه شفاء للناس، وكذلك هم!، يستخرجون من حقائق العلم، ما يعالج أمراض البشر، وتتعاضد جهودهم وتجتمع اجتماعَ الجداول الصغيرة، يعيد ولادتها في نهر عظيم!.

٢٣- oral and maxillofacial pathology

كتاب علم أمراض الفم والوجه والفكين، اشتهر اسم هذا المرجع باسم العالم (Nev-ille). والأمثلة-على ما يسطرون- في تاريخنا العلمي كثيرة، لا أبخسها حقها، لكننا نفتقر إلى المؤلفات الجماعية الضخمة التي سطرها البحث العلمي الحديث، لأن رصيدنا من هذا البحث خجول، كما أن ثقافة العمل الجماعي لا تزال خديجة لدينا.

إن هذا السِّفر العظيم عملُ سنينَ متطاولة، وسواعد عاملة، وقلوب آملة، ونفوس طامحة، لم يكتمل فصاله بين ليلة وضحاها، ولا يعدل عظمته إلا عظمة تلك النفوس التي صنعته، لله درها، ما أعظم قيمها وهممها!، نفوس لا تعرف اليأس والبطالة، ولا التناحر والتنافر، نفوس تشبه الخلايا التي تدرسها في تعاونها وتوادها وتراحمها، ما أجدرها بالنجاح!.

مَثَلُ أولئك العلماء العاملين كمثَلِ تلك الخلايا (Cells) التي تجتمع في أنسجةٍ (Tissues) لتصنع الأعضاء (Organs)، وتجتمع الأعضاء لتصنع الأجهزة (Systems)، وتجتمع الأجهزة لتصنع جسما مكتمل البنيان (Body)، فسنة الله هي هي في المخلوقات كلها، إلا أنه أوحى للمخلوقات الأخرى غريزتها، ووَكَلَ البشر إلى عقولهم ليبتليهم بعمل الجماعة.

وها هم قد استخدموا السمع والأبصار والأفئدة، استخدموا أقلامهم، فقلموا، وسطروا هذا المرجع الرائع، ليكون قلماً جديداً حديداً، من أرسخ الأقلام في علم الأمراض الفموي.

فهل كان هذا العمل النفيس سيخرج لو دارت كل نفس حول صنمها، ومجدت ذاتها؟ لو لم تقدر كل نفس عملَ الجماعة، هل كانت البشرية ستسعد بهذا الصرح العلمي الشاهق؟. إن معظم المراجع الغربية

من هذا الطراز الرفيع، الذي ينبئك كم ارتقى أولئك الناس، ووصلوا إلى درجة سامقة من التناسق والتناغم والتنظيم وأرقى نظامٍ، عملٌ في جماعة، فهل من مدّكر؟

ما أحوجنا- نحن المسلمين- إلى هذه المفاهيم الراقية في هذا العصر الذي تخلفنا فيه، وقد كانت شامة أسلافنا، ولا تزال روح قرآننا.

إن (ما يسطرون) لا يزال دويّ واوها يهدر منذ فجر الرسالة، وسيظل صداه يتردد في سمع غارسي الفسائل، حتى يختلط بنفخ الصور!.

ولقد ارتعشت روحي وأنا اقرآ كلماته، وهو يذكر علماء قمماً كان لهم فضلٌ على هذا الكتاب، انقطعت أجسادهم، لكن أعمالهم لم تنقطع، ويصرح معترفاً: أننا نقف على أكتاف العمالقة، ويذكر عملاقاً منهم لم يترك ميادين البحث وعلاج المرضى، حتى أدركه الموت وهو على صهوة جواده بعمر ثلاث وثمانين سنة!.

وقد قال إمامنا ابن حنبل رضي الله عنه: مع المحبرة إلى المقبرة، لكن علمنا اليوم للامتحان ثم الوظيفة، والوظيفة للزواج، والزواج للهباء، ثم نموت كما دخلنا نخرج!، هل من المعقول أن تُسخر كل قدرات الإنسان للأكل والتناسل فقط؟!، بماذا اختلف عما سواه من دواب الأرض؟!.

ويختم المؤلف بامتنان جميل نبيل لعائلته وعائلات زملائه، ويقرُّ بأنه لولا صبر الزوجات، لما اكتمل هذا العمل الفذ، ولولا تشجيعهن

الحاني، ودفء سكنهنّ، لما أثمرت هذه الجهود المقدامة، وهكذا تتعاون الأسر على معالي الأمور، وتضحي بكثير من متع الحياة من أجل الانجازات العظيمة، هل فكّر كل واحد منا أن يكون صرحاً من صروح هذه الأمة؟، وإذا فكّر هل سيجد زوجاً تقاسمه طموحه، وتكون له كما كانت خديجة لليتيم العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، زوجاً تمسح حزنه إذا حزن، وتبصّره بمناقب نفسه، يأوي إلى حنانها كلما أتعبته الحياة، وغضّنت مضاءَ همته الصعاب، يأوي إليها كما يأوي عصفور إلى عشّهِ وقد هدّهُ السفرُ.

١٠- سيّد الأقلام كلها:

إن القرآن تحت هذا المفهوم يحمل معنى القلم، بل هو سيد الأقلام كلها..

فكما أن الله وهبك القدرة على التمييز بين مكونات الكون، وعلمك الأسماء ابتداء، فقد علمك القرآن، وأمرك بتدبره وفقهه، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(الرحمن/١-٤)، ونرى في هذه الآيات تلازمَ علم القرآن وعلم الأسماء بالقلم أو البيان.

ففي تفسير البغوي بتصرف:(علّمه البيان: أسماء كل شيء، وقيل: علمه اللغات كلها، وقال الآخرون (أبي العالية وابن زيد والحسن): علمه البيان: النطق والكتابة والفهم والإفهام، حتى عرف ما يقول وما يقال له. وقال السدي: علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به).

فعلم القرآن يكافئ علم البيان، لا غنى لأحدهما عن الأخر، ككفتيّ الميزان، فهما يتقابلان ويتكاملان، وهذا ما تؤيده سورة الرحمن، التي تقوم على المتقابلات، الشمس والقمر، والنجم والشجر، والسماء والأرض، وعلم القرآن وعلم البيان.

وسوف نطغى في الميزان، أو نُخسره، ما لم نستخدم القلمين معاً، العقل والقرآن، فهل ستعقل القرآن بدون عقل، وهل سيعرف العقل طريقه بدقة بدون وحي، ألا يعينك القرآن على إدراك هذا الوجود، وإدراك مهمتك فيه؟.

إن القرآن للعقل بصرٌ وسمع وفؤاد، يعينه على تقليم كل شيء.

إن الشعوب الأخرى نجحت في جانب من الاستخلاف، وهو العلم، لكنها أخفقت في جانب التقوى، وأفسدت في الأرض، لأنها بلا وحي.

فالقرآن قلم تعرف به سر وجودك، من أين أتيت؟، ولماذا؟، وإلى أين مصيرك؟، فهو القلم الذي يعرفك بالله، ويرسم حدود علاقتك به، وعلاقتك بالكون، وبنفسك، ومجتمعك، وبالقرآن تميز الحلال من الحرام، وتعرف السنن التي تحكم المجتمعات والأنفس والتاريخ، ففيه تفصيل وتبيان لكل شيء (تقليم):

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(يوسف/١١١).

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل/٨٩).

وانظر – في الآيتين- إلى تلازم معنى القلم (تفصيل كل شيء وتبيان كل شيء)، مع (الهدى والرحمة) أي تلازم العلم (القلم) والتقوى، الذين يشكلان جناحيّ مهمة الاستخلاف، وسوف نفصل لك في كلمات لاحقة.

والقلم القرآني قبلته النفس الإنسانية، يذكر كثيراً من أمراضها وعلاجاتها، ويشير إلى السنن التي تحكمها كنفس واحدة، أو مجتمعة مع مثيلاتها، ويأمر بالسير في الأرض والنظر في الأمم السابقة، لتدبر سنن الاجتماع والتاريخ واستخلاصها..

لكنَّ نصيب علوم النفس من حفاوة العقل المسلم ظل خجولاً، ولم تقم له صروحٌ تضارع أهميته في القرآن الكريم، الذي أعلن أن (محتوى الأنفس) هو البوابة الفذة لكل تغيير﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد/١١). فهل لدينا إنتاج في هذا العلم يواكب أهميته في القرآن؟، أم أن الغرب سبقنا أيضاً في هذا المجال الخطير؟[٢٤]،

٢٤- لا شك لدي بالإنجازات الجليلة التي قدمها علمائنا في هذا المجال كالغزالي والجوزي وابن القيم وغيرهم كثير، وهي بحاجة لمن يستحييها بلغة جديدة، لكن مشكلتنا مع كثير من العلوم أنها توقفت عند مراحل معينة، ولم تبلغ أشدها، فانحسر لدينا كل شيء بعد أن خرجت أمتنا من دورتها الحضارية.و لا ننسى أن فقرنا بالبحث العلمي الذي يستجيب لمشاكلنا، انعكس فقرا عريضا على جميع مجالات الحياة.

أظن أن الواقع يجيب على ذلك، ولم يحظَ هذا المجال- إلى الآن- بما يستحقه!.

وينصبُّ جهد المسلمين، اليومَ، على استجلاب الآيات- تحت عناوين الإعجاز العلمي للقرآن -التي تؤيد الحقائق العلمية التي اكتشفها الغرب، مع أن الأصل في ذلك أن نصل إليها قبلهم، لأن لدينا قرآناً يلفت انتباهنا إلى مقدماتها، إن الفرق كبير بين أن ترشدك آية قرآنية إلى آية كونية، فتتبع سببا وتعمل عقلك فيها، لتكون بوابة إلى اكتشاف الحقيقة العلمية، ثم تسخيرها، وبين أن تنطلق من اكتشافات الآخرين وعلومهم لتعود بها إلى القرآن، مستدلاً على سبقه، أو إعجازه!، فرق كبير بين أن يكون القرآن مرشدك وهاديك تمشي خلفه، فتتعلم منه، ويعلمك ما لم تعلم، فتبدع وتخلق، وبين أن تتصيد له اكتشافات الآخرين!. إن الأولى صناعة حياة قلبها القرآن، والثانية محاولة عاجز لتعزية نفسه!.

لكنّ عقولنا انحسرت فيها ملكات التفكر والنظر والتدبر منذ زمن بعيد، فانعكس ذلك جهلا بالنفس، وجهلا بالكون، وما تسخير الكون إلا انعكاسٌ لازدياد علم الإنسان بنفسه، فكأن الاختراعات والتطورات الهائلة التي حققها البشر ما هي إلا أدلة على تطورهم في علم النفس، أليست هذه النفس هي من اكتشفت واخترعت

وسخّرت؟، وكيف صار لها ذلك لولا أنها عرفت قدرها، وتعافت من كثير من أمراضها التي كانت تشلها وتذلّها..وهذه حقيقة يصدقها الواقع، فالشعوب المتخلفة الجاهلة أقل الشعوب تقديرا لأنفسها، وثقة بإمكاناتها، فأي هجر للقلم القرآني أقسى من هذا الهجر؟!.

وأرى أن العلم الكوني قد انتقم لنفسه منا، وحتى تقوانا التي نتبجح بها أصبحت هشيما تذروه الرياح، لا ترشد ضالا، ولا تغني سائلا، ولا تؤوي يتيما، ولا تحدث بنعمة، بل فعلت العكس، إذ أصبح فقرنا وجهلنا ومرضنا وضعفنا هي الأسباب الرهيبة التي تصد عن سبيل الله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(الضحى).

إن النعمة التي أمره أن يتحدث بها-ﷺ- في سورة الضحى، هي ذاتها التي نفى عنها الجنون في سورة القلم: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم/١-٤).. فماذا يناقض الجنون غير العقل؟!. وما قيمة العقل إذا لم يقدر نعمة الوحي، وهل هناك نعمة أعظم منها؟، وأي كفران لها إن لم تحيي هذا العقل، فيربط أسباب الأرض بأسباب السماء، ويتعانق فيه الكون والقرآن، وعالما الشهادة والغيب، ألم يقسم الله تعالى بالقلم وما يسطر من حقائق قد تكون المهاد لتسخير الكون، وهي

أشياء من عالم الشهادة، ألم يقسم بها على أشياء من عالم الغيب (نعمة الوحي)، التي عرف قدرها النبيﷺ، الذي زكى الله عقله فنفى عنه الجنون، و زكى خلقه فأثبت له العظمة، وكأن الله يرشدنا أن الدليل على عقلكم -الذي يقدر نعمة الوحي- هو ما تبدعونه في ميدان العلوم الكونية[25] لتخدم التقوى(الخلق العظيم)، التي أقسم الله تعالى بأدواتها عندما قال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. وسيأتي تفصيل ذلك بطريقة أخرى في فقرة(ن والإنسان الخليفة).

وأحب أن أسوق دليلا آخر من قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾(الواقعة/٧٥-٧٧). إن النجوم ومواقعها-وهي جزء من الكون المادي-كانت هي الشيء الذي يقسم به الله العظيم على كرامة القرآن الكريم. لماذا يا ترى لم نقف عند كلمة (لو تعلمون)، لنضع مناهج البحث العلمي، التي تقودنا إلى سر هذه النجوم ومواقعها لنزيد رصيد الإيمان بكرامة هذا القرآن؟. لقد كان جل ما فعلناه أن زاوجنا بين هذه الآية القرآنية واكتشاف الغرب لحقيقة شقيقتها الكونية(آية النجوم ومواقعها) تحت عنوان الإعجاز العلمي للقرآن.

٢٥- وهذا الإبداع لن يكون بلا بحث علمي رصين يحاور الكون ومشكلات الواقع في المجالات كلها، وتُرصد له العقول الذكية والأيدي القوية، والمؤسسات التعليمية الضخمة كالجامعات وغيرها.

وكـي ننصـف أنفسـنا لابـد أن نقـول: إن العقـل المسـلم تفاعـل مـع القلم القرآني الذي وجه إلى علوم كثيرة في الكون، وبدأ بداية رائعة في تقليم العلوم وتقعيدها، كما في علوم الدين واللغة والاجتماع، والطب والكيمياء والفيزياء والفلك والبحار والحرب والمعمار، والأسماء كثيرة في هذه المجالات، لا أظننا نجهلها، لكنه ما لبث أن كلَّ حده وعجز عن التقليم.

وأخذ الغرب منه هذه الميزة، وانطلق كالصاعقة، فقعّد علوماً كثيرة، كنا أولى بها، خصوصاً فيما يتعلق بعلوم الكون في السماء والأرض، مما يعلي الأمم، وتُعز به العقائد، ويضمن تبليغها مبينةً بلا جهل أو فقر أو مرض أو قذر، ألم يتعبّدنا الله بالبلاغ المبين؟، وأي بلاغ مبين يقوى عليه كسيرٌ حسيرٌ، عائلٌ جاهل، بائس متقاعس، يستدر الدمعة والرغيف من الذين فجروا الذرة وجابوا الفضاء، وأعماق الأرضين والبحار.

ثم يخرج عليك – من بعد ذلك - ساذج يتبجح بانتمائه الشكلي إلى القرآن، و يعلو على أقوام هي أقرب إلى توجيهات القرآن في العزة والتمكين والترتيب، وأي إسلامٍ سيجذبهم، وقد كفره أهله بحالهم المزري؟.

١١- القلم واللغة :

إن قضية اللغة وعلاقتها بتعليم الأسماء والقلم، أكبر من أن أقلّمها في مناسبة بسيطة كهذه، فالقضية كبيرة، وتدخل ضمن علم اللسانيات، وتفريعاته الكثيرة، وفلسفة اللغات وكيفية نشوئها، وتطورها عبر التاريخ.

لكن لا شك أن تعليم الله تعالى للأسماء، يعني تعليمه اللغة، ومنحه القدرة على وضع الأسماء للمسميات سواء كانت ذواتاً أو معاني أو صفات[٢٦]، وتأتي اللغة كمرحلة مهمة من مراحل تعليم آدم، لأن إطلاق الاسم على الشيء، لابد أن يسبقه إدراك ما أو تصور ذهني لهذا الشيء، ومعرفة مبدئية لماهيته، أو خصائصه وصفاته، وقدرة على تمييزه وتفكيكه، وكشف أسراره..

ولن يكون لهذه العملية (القلم العقل) أي معنى ما لم تتبلور أو تتجسد بترميز لغوي يسهّل على الإنسان الدراسة، والفهم والتواصل لتحقيق العمران والاستخلاف (ترميز لغوي بدء صوتياً ثم انتهى بالكتابة/القلم الحسي)، وهذا ما تدعمه أيضاً آيةُ أخرى ﴿علمّهُ البيان﴾ في سورة الرحمن، فالكون لا لون له بلا لغة، كأي ملف الكتروني بلا برنامج يعرّفه، لن تستطيع أن تقرأه، أو كلوحة باهتة بلا ألوان تحتاج ألوانَها اللغوية من الأسماء، وما لم تستطع أن تعرف أين يبدأ العنصر وأين ينتهي (تقليم)، فلن تستطع التلوين (التسمية).

٢٦- انظر تفسير التحرير والتنوير، المجلد الأول بدءً من ص ٤٠٧, للشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله، ففيه تفصيل رائع حول هذا الموضوع.

فهل نستطيع أن نتخيل حياةً بلْهَ علمًا بلا لغة؟، إن النشاط الإنساني كله، لا معنى له بلا لغة، فالإنسان يترجم قراءته للوجود عن طريق اللغة، والكون والواقع مختزلان في أذهاننا بتصورات يدل عليها كونٌ لغوي، وكل قدرات الإنسان العقلية المجردة، تحتاج إلى لغة، فلا يمكن فصل اللغة عن وظيفة الاستخلاف، فهي تشكل جوهر الإنسان الذي يميزه عن الحيوان، وتدخل في صميم تعليم الأسماء التي تشكل بوابة لتعلم أي علم.. لأن تعلم أي علم، لابد أن يمر بأسمائه التي يقوم عليها، أو تعريفاته، أو المصطلحات التي تحكمه، وهذا شرط لابد منه لفهم ذلك العلم، حتى تعليم الطفل يبدأ من هنا، من توطين المفردات الكونية في ذهنه عن طريق الأسماء.

ولو أردنا أن نناقش اللغة على مستوى آخر، وهو المستوى النحوي من حيث كونها كلمات، والكلمة تنقسم إلى: اسم وفعل وحرف، لوجدنا أن الاسم هو الوحيد الذي يقوم بذاته، ولا يحتاج إلى غيره كالفعل والحرف، بل إن الاسم هو أصل الفعل[٢٧]، وسنجد أن الأسماء تتشابك - لغوياً - مع بعضها البعض بواسطة الأفعال والحروف في سياقات وعلاقات معينة، تمثل الحقائق والقوانين التي يكتشفها الإنسان، والأفكار، والأنشطة التي يعانيها..

٢٧- انظر أسرار العربية لأبي البركات الأنباري، بدءا من ص١٧١. ولابد أن نشير أن الفعل والحرف -خارج الاصطلاح النحوي - هي أسماء تدخل ضمن قدرة الإنسان على إدراكه للكليات وتسميتها، انطلاقاً من الجزئيات.

وكأن هذه اللغة كون ثانٍ، أو مرآة تنعكس فيها صورة الكون المحسوس من حولنا، فيسهل تعاملنا معه، فهي بالنسبة للكون، كالحمض النووي (DNA) بالنسبة للإنسان، الذي يختزل كل الإنسان في شفرات وراثية دقيقة.

وإذا كانت الخلية هي الوحدة الرئيسة في الإنسان تحتوي سره في الحمض النووي، فإن الإنسان هو الوحدة الرئيسة في الكون يحتوي سره في الكون اللغوي، فكيف لا يذكر الله تعالى تعليم الأسماء لآدم عندما قال أنه جاعل في الأرض خليفة؟!.

ويوجد في الكون اللغوي العظيم، كون أخص منه وأعظم، إنه نواته، إنه الكون اللغوي الذي يسري فيه الروح الطهور، الوحي، القرآن العظيم[٢٨]، إنه اللغة العربية!.

إن لكلِّ اسم مسمى مليءٌ بالأسرار (مسميات أصغر) التي تنتظر أسماءً لها، وما الاسم إلا شيء بسيط يدل على جزء من حقيقة مسماه، وبوابة إلى اكتشاف المزيد منه، ولن تستطيع أن تسمي ما لم تبحث وتدرس، لتعرف وتعلم..

وندرك هنا أن نمو اللغة دليل على نشاط شعبها، واستخلافهم، لأنها يجب أن تتطور وتتوالد مع تطورهم، لتواكب الفتوحات العلمية

٢٨- الوحي من معاني الروح. انظر في تفسير البغوي، سورة غافر، الآية ١٥.

والإنتاج الغزير الذي ينتجونه في العلوم المختلفة، فهي المرآة الصادقة التي تعكس عافيتهم أو مرضهم، فالأسماء هنا عَلَمٌ على كمية المعرفة الإنسانية، لكن قومنا اتهموا العربية بالقصور ونسوا أنفسهم!.

فالله تعالى خلق في الإنسان القابلية للتعلم، وعلمه طرفاً من حقائق الأشياء يوم علمه الأسماء، ثم أمره أن يتبع سبباً، فتضاعفت الأسماء أضعافاً مضاعفة مع اكتشاف مسميات جديدة، وهذا ما عبرنا عنه بنمو اللغات مع تقدم البشرية، وزيادة تسخيرها للكون باكتشاف عناصر جديدة، وقوانين جديدة، واختراعات جديدة، ومثلما أعطاه مفاتيح علم الأسماء، فقد وضع في القرآن نواة كثيرٍ من العلوم، فالله الذي علمه البيان هو الذي علمه القرآن أيضاً، لكننا جعلنا الآيات الكونية زينة الشعارات الدنيا!، وجلُّ همنا أن نلصق آية بمخترع غربي، لنثبت أن القرآن سبقهم إليها منذ ١٤٠٠ سنة!، كان يجب أن نفسر القرآن باكتشافاتنا العلمية العملية، واختراعاتنا، لندعو الناس إلى رب الناس، ونكون شهداء عليهم لكنهم هم من شهدوا علينا!.

لقد علم الله عز وجل آدم كيف يقرأ المخلوقات من حوله، تمييزاً وترميزاً، ويختصر وجودها الحسي أو المعنوي بكلمات (أسماء) ينطقها باللسان، أو يكتبها بالقلم، وكلما نما عقل الإنسان، كان أكثر قدرة على التجريد والترميز، فالطفل يبدأ تعليمه بالمحسوسات، وكلما تقدّم عمره استطاع أن يجرّد ويدرك المعقولات..

وتظهر براعة الإنسان عندما يستطيع أن يعبر عما في ذهنه بكلمات منطوقة أو مكتوبة، ومن هنا نعلم ضحالة التفكير عندما يكون صاحبه فقيراً باللغة، لأن خصوبتها ستكون عاملاً مهماً على طريق إنتاج الأفكار العظيمة وترتيبها، فاللغة وعاء الفكر، بل تساهم في تشكيله وتوجيهه(٢٩)، ومثلما أننا لا نستطيع أن ندرك أثر الروح إلا في جسد، فإننا لن ندرك أثر الفكر إلا في لغة، فالروح بلا جسد، لا أثر لها في مجال إدراكنا، وكذلك الفكر، لا معنى له أو فائدة إذا لم تحمله لغة.

واللغة طور آخر من أطوار التخلق، يتلوها العمل، فالأفكار المحمولة على الألفاظ، يجب أن تولد في عمل يحتضنه المكان والزمان، ويسعد به الواقع، ولما أن المفكرين اتفقوا على أن النهضة تبدأ من تصحيح الفكر، ولما أن اللغة للفكر كالجسد للروح، فإن ازدهار العربية في قلوب أبنائها شرط جوهري من شروط النهضة.

وتبرز هنا حقيقة جليلة، وهي أن التعلم باللغة الأم سيكون هو الأعمق والأجدى والأدق: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم/٤)، لأنك لن تكون قادراً على التفكير بالمفردات الكونية ماديها ومعنويها وتولّف بينها، وأنت جاهل بفقه اللغة التي ترمّزها، ولا يزعم أحد أنه أبلغ بياناً بلغة يكتسبها من لغته التي ولد في

٢٩- البحث اللغوي وأصالة الفكر العربي. مقالة للأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، كلية الآداب - الجزائر، مجلة الثقافة، السنة الخامسة، ع٢٦. تكوين المفكر ص ٦٤، الدكتور عبد الكريم بكار. تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها ص٢٠٢ وما بعدها، للدكتور محمد الأنصاري.

أحضانها، واكتسب علم أسمائها من أبويه ومحيطه، وحُفر فقهها في قلبه، حتى صار جزءاً من شخصيته، وهذا هو الفرق بين اللغة واللسان[٣٠]، وهذا ما يدل عليه الخطاب القرآني الذي عبر عن اللغة باللسان، ليدلك أن اللغة كائن حي كأي عضو في جسدك، وفرق كبير بين أن تكتسب لسان قوم وأن تتعلم لغتهم، لأن معظم المتعلمين، يتعلم لغة معجمية جافة بلا روح، بينما اكتساب لسان قوم شيء أعمق بكثير، لا يصل إلى قراره أي غوّاص، وقليلٌ ما هم.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء/١٩٢-١٩٥).

﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأحقاف/١٢).

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾(النحل/١٠٣).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(إبراهيم/٤). ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(الدخان/٥٨).

٣٠- للاستزادة حول هذا الموضوع راجع كتاب الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله: مفهوم العالمية،ص١٢٣.

١٢- (ن) والإنسان الخليفة:

وأحب أن أذكر هنا شيئاً أراه مهماً، هناك أبحاث معتبرة، ترى أن العربية لغة النون، وليس الضاد!، لما اكتشفته من أسرار هائلة لهذا الحرف، فهو أكثر الحروف إفادة في تكوين اللغة، ومن فؤاده إتيانه للتنوين على مختلف أضرابه، وهو حرف موسيقي ذو رنين وغنة[٣١]، ونظراً لجمالية الموضوع وأهميته، واتصاله بموضوعنا، أحب أن أثبتَ هذا النص المختصر الذي يشكل خاتمة لبحث جيد[٣٢] حول هذا الموضوع:

(... رأينا على مدى الصفحات الماضية سعة دخول حرف النون في ألفاظ العربية، وكثرة اعتماد اللغة على هذا الصوت في أداء المعاني الكثيرة. فهو علامة للتمكن والصرف والإعراب والخفة، ودليل من أهم أدلة انتساب اللفظ للعربية وأصالته فيها، ووحدة صرفية دالة على التنكير، وعلى الانفصال والقطع، وعلى الإعمال والزمن، وعلى الحذف والاستغناء، ووسيلة الأداء المقطعي، وعلم على التوكيد، والكثرة، والتأنيث، وقرينة التطريب والتغني، وأداة جبر نقص الألفاظ. وهو لاصقة أو جزء من لاصقة في كثير من الألفاظ، فيكون تارة علامة إعراب وجوداً، وعلامة إعراب عدماً، وتارة لوقاية الفعل من الكسر،

٣١- ن والقلم وما يسطرون، بحث في أسرار الحروف العربية المعجمية. الدكتور مصطفى جواد.

٣٢- العربية لغة النون، د. محمد سعيد صالح ربيع الغامدي، قسم اللغة العربية جامعة الملك عبد العزيز بجدة. مجلة الدراسات اللغوية المجلد السابع، العدد الثاني.

وتارة لبناء صيغة صرفية دالة على معنى أو لبناء جزء منها، وتارة ضميراً مستقلاً أو لبناء جزء من الضمير. وهو أيضاً يدخل في بينة ألفاظ اللغة أصلاً فاء وعيناً ولاماً بكثرة لافتة، ويكون بدلاً، وزائداً شبيهاً بحروف المد لا تمتنع زيادته في موضع من مواضع الكلمة، وشبيهاً بالمد أيضاً بما فيه من غنة واستطالة، أي: بخصائصه الذاتية حتى أنه يقبل الامتزاج بالأصوات الأخرى، وتتغير صفاته ومخرجه بتغير الأصوات المقترنة به، وهو مما تنتهي به كلمات العربية حتى قيل: إنه صوتٌ يحسن السكوت عليه في العربية، وهو أيضاً- لتنوع وجوه دخوله على الألفاظ تنوعاً ثرياً، مع اختلاف دلالة كل وجه عن غيره – تتزاحم هذه الوجوه في أذهان المتكلمين، كما تتزاحم في أذهان المحللين اللغويين، حتى ليلتبس وجه منها أو أكثر بغيره. كما لا يخفى اعتماد اللغة على هذا الحرف في مواضع كثيرة، لأغراض كثيرة أيضاً. وذلك أمر لا شك لم يحظ به حرف هجائي آخر، حتى أشيع الحروف أو أكثرها دورانا في بنية الألفاظ. أفلا يمكن بعد هذا أن نزعم أن العربية لغة النون؟).

إن النون – على ضوء هذه الأبحاث- علمٌ على اللغة العربية، وهذا ينقلنا مباشرة إلى هذه الآية ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(القلم/١)، وقد بيّنا أن مفهوم القلم لا يقتصر على القلم المحسوس الذي نكتب به، بل يشير إلى العقل وطريقة إدراكه للوجود التي تقوم على التقليم، فالقلم

المحسوس[٣٣] ما هو إلا الوجه للآخر للقلم (العقل) الذي أدرك وميّز وحلّل (قلّم)، وركّب، ودس وبحث فخرج إنتاجه في كتب ومخترعات هائلة يطول عدها...التي تمثل (ما يسطرون)، التي نالت شرف القسم أيضاً!.

إذن:

ن: تشير إلى اللغة العربية..

والقلم: يشير إلى القلم العقل و لا ننفي إشارته إلى القلم كأداة للكتابة..

وما يسطرون[٣٤]: تشير إلى الخلق الجديد النافع الخيّر الذي يسطره هذا الإنسان، عندما يقرأ باسم ربه الذي خلق، من مخترعات ونظم ووسائل كثيرة....

ولا يعفي هذا الفهمُ (ما يسطرون) من دلالتها على الكتابة بالحروف، كمرحلة تؤدي إلى ما ورائها من إنجازات، فكل مخترع مسطور يدل على الكتابة دلالة تضمين، لأنه مر بها يوم كان جنيناً في خيال صاحبه أو أوراقه، حتى أصبح خلقاً آخر، فهي عملية متسلسلة مترابطة..

٣٣- إن لفظة القلم تدل على العقل دلالة التزام، فلا يوجد كائن مقلّم أو كاتب غير هذا الإنسان العاقل!، فهي تشمل – أي لفظة القلم- العقل والقلم المعروف وكل مخترع أو إبداع ينتج عنهما، ويختص بهذا الإنسان، لذلك تجوّزنا في توسيع مفهوم القلم وما يسطر.

٣٤- راجع فقرة: ما يسطرون.

والكتابة النافعة التقية تستحق هذا القسم، لأنها نقلت عملية الاستخلاف إلى مراحل مذهلة، ونقلت اللغة من التواصل بين الأحياء، إلى التواصل بين الأموات والأحياء على مدار الأزمنة والأمكنة، فحققت التراكم المعرفي للعلوم، مما جعل الأخلاف يبنون على الأسلاف، فلولا الكتابة لكان الإنسان بلا ذاكرة، لأن ذاكرته منوطة بحياته، فكأنها روح يعلو على سلطة الزمان والمكان، وبذلك امتد شريان المعارف والعلوم من جيل إلى جيل، ومن أمة إلى أمة، فعمرت الأرض، فكأنّ الكتابة بعدٌ خامسٌ للإنسان الخليفة، تضاف إلى زمنهِ وطوله وعرضه وسماكته، إلا أنه بعد روحي، يمتد من الحياة الدنيا ليتصل بالآخرة، كالروح التي لا تفنى، فكم من كتاب عظيم، أو مخترع نافع خشعت له القرون، وأجره متصل إلى ما شاء الله، وجسد صاحبه تراب!.

إذن: أقسم بالقلم الذي يقلم هذا الكون، وأقسم بإنتاجه المقلَّم الذي يسخر الكون (السطر)، الذي يخلقه الإنسان عندما يقرأ باسم الله الذي خلق.. وأقسم باللغة التي هي الواسطة التي تعين على التقليم لأن الكون لن يُقرأ أو يُقلَّم بلا لغة، وخص العربية هنا بالقسم لأن الاستخلاف بمفهومه الشامل العلمي والإيماني يجب أن يقوم على اللغة العربية التي حملت الوحي، لأن قصرها على الجانب الديني من الإسلام سيعني التبعية الدائمة لأمم الشرق والغرب!.

واللغة العربية، والقلم العقل، والكتابة وما يأتي من ورائها من مسطورات، هي أدوات الاستخلاف، هي أدوات العلم والتعلم والتسخير، التي تشكل إحدى صفتي الإنسان الخليفة، تكملها التقوى وهي الصفة الأخرى..

والمثير أن القسم بأدوات الصفة الأولى، يأتي ليدل على أهمية الصفة الثانية، التي جاء النبي عليه الصلاة والسلام ليتممها، ويعيد ترسيخها في القلوب، وذلك عندما أتت هذه الآيات بعد القسم:﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم/٢-٤)، مشيرةً إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وعقله وخلقه ورسالته، وكأن هذا النبي الكريم ورسالته، هو الوسيلة الأخرى من وسائل الاستخلاف، كالعقل واللغة والكتابة!،

أليس في ذلك إشارة إلى أن حضارتنا لن تقوم إلا على العلم والإسلام الذي أتى به النبي عليه الصلاة والسلام؟!.

١٣- حضارة القرآن واللسان:

إن غياب الاحتفاء باللغة العربية ناجم عن غياب الاحتفاء بالقرآن نفسه، فالقرآن هو الغاية واللغة أداته ووسيلته، وأنت لن تهمل الأداة إلا إذا أهملت الغاية، أو لنقل إن التعامل مع القرآن شابه خلل كبير انحرف به عن طريقة تعامل الجيل الأول..

وآية ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾(الفرقان/٣٠)، تدل بوضوح أن القوم اتخذوه، لكن كيف كان هذا الاتخاذ مهجوراً؟، الجواب هو واقعنا الآن، فهو مليء بطرق الاتخاذ المهجورة..

قنوات قرآنية كثيرة، وطبعات جميلة، وملايين الحفظة، وعشرات المسابقات والمؤتمرات، والنتيجة هي غياب القرآن عن واقع حياة الأمة، فهو لا يصنعها بل تتصنّع له!. وأرى أن أهم شكلٍ لهجر القرآن هو هجر اللغة العربية بإقصائها عن علوم الكون[٣٥]، وقصرها على التعليم الديني، الذي أُختزلت فيه، مثلما اختزل الدين نفسه في الجانب الشعائري، ولقد أدرك الاستعمار الأوربي الخبيث قوة سم الهجر في قتل اللغة والدين معا، والدفع بهما نحو الهاوية شيئا فشيئا وأهلهما نائمون، فعمل على عزل اللغة عن التعليم وعلوم الحياة المتطورة -كالعلوم التطبيقية والطبية خاصة التي تعز بها الأمم- وتركها في بعض الزوايا المهجورة من الحياة، ليرتبط ذكرها بالكآبة والفقر، وينفر منها الناس، فيضمن بذلك تأخرها، وكمودها الذي يشبه الموت، وكيف ستتطور وهي في الظلام، لا يُحتاج إليها، وليس الغريب خبث المستعمِرين ومكرهم، فهم يعملون لحاضرهم ومستقبلهم، لكن الغريب رضا المستعمَرين، وانبطاحهم، وتصديقهم كذب أعدائهم!، لقد صدق

٣٥- أرجو الإطلاع على كتاب الدكتور الأنصاري الذي مر معنا (تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها) ففيه بيان واف حول مسألة التعريب و أهمية التعلم باللغة العربية، مع مراجع أخرى.

عليهم المستعمر ظنه فاتبعوه، ويااله من شيء مخز ومضحك أن يدافع عن سياسات المستعمر أساتذة جامعات، وقادة سياسيون، وإعلاميون من أولي الأذناب في كل عصر ومصر، أما الطلبة فهم لا يعلمون أنهم بضائع المستقبل سيستعملها المستعمر في دعم حياته، وحيوية أسواقه، ويجعل منهم الحواضن الواعدة، لثقافته وأفكاره. والحق أن الميت ليس اللغة فقط، بل كل أمل لبعث حضارة القرآن[٣٦].

أما من احتفى باللغة على الصعيد الرسمي فقد احتفى بها لغاية قومية، وبقيت رغم ذلك دون مستواها بكثير، لأن القضية قضية حضارة كاملة له هويتها الراسخة، ولن تعيد بعثَها محاولات طارئة على حقيقتها الأولى.

والأمة التي أهملت دور العقل منذ قرون باسم القرآن!، ضمرت عضلات تفكيرها، بل أصبحت مشلولة التفكير، وهذا ما يفسر فقرنا المدقع في عالم الأفكار في مجالات الحياة الكثيرة، وشلل الفكر سيشل اللغة أيضاً، لأنها جسده الذي يأكل الطعام به ويمشي في الأسواق، وسيعود شلل اللغة ليزيد الفكر ثبوراً، وهكذا....

٣٦- انظر في مقالة الباحث سلمان بو نعمان: النهضة اللغوية ومخاطر سياسات التلهيج الفرنكفونية - حالة المغرب نموذجا - الجزء الثالث. مركز نماء للبحوث و الدراسات على شبكة النت.

لقد مرّ معنا أن الإشارة إلى اللغة جاءت في سياق الحديث عن خليفة في الأرض، يوم علمه الله تعالى الأسماء، ومنحه استعدادا كامنا لوضعها. وأول آية في القرآن من سورة العلق، بدأت بالإشارة إلى خلق الإنسان واللغة، عندما ذكرت بعض أنشطتها وأدواتها كالقراءة والقلم. وتبدأ الآيات الأولى من سورة الرحمن بذكر اللغة وخلق الإنسان أيضا، ومعه تعليم القرآن. إذن ذكرت اللغة مع ذكر الإنسان الخليفة، في سورة البقرة، وجاءت مع ذكر خلقه وحثه على تسخير الكون، في سورة العلق، وجاءت مع خلقه وتعليمه القرآن في سورة الرحمن، وكل هذه المواضع ترتبط ارتباطا وثيقا بسر الإنسان المودع في نعمة العقل، التي يكون النطق بها، والقرآن يوم نزل، نزل كمعجزة لغوية بيانية، وإذا رجعنا إلى المنطق والنطق والعقل والتفكر(حد الإنسان)، سندرك عمق الدلالة بين هذا القرآن وقوة التعقل والتفكر، واللغة.

إذن إن هذا القرآن لن يكون معجزة إلا مع الإنسان الذي يكون بمستوى إنسانيته، إي باستخدامه عقله وتفكره وتدبره، وفي إتقانه لغته ودلالاتها، ومعرفته بمكامن دلالها وجمالها، وحلالها وحرامها...

ولن نختلف على نعمة العقل (رغم أن البعض لا يزال يقلل من شأنه مراغمة للمعتزلة!)، لكن اللغة هي التي لا يزال الوعي بها طفوليا، وعي كثير من النخب العربية، والطلبة في كل مكان، فإذا أدركنا صرامة

العلاقة بين اللغة والإنسان، أو العقل والإنسان، أو التفكر والإنسان، أو القرآن والإنسان، إذا أدركنا كل ذلك، علمنا أن قيامنا لن يكون بلا مشاريع لسانها عربي مبين، فلن ترتفع اللغة بلا عمل وإنتاج في كل ميدان، ولن نرتفع بعمل وإنتاج إذا كان بغير لغتنا، أي بلغة أخرى، فلا تزرعوا الفسائل في أراض غير أرضنا، لأنها ستقيم حضارتهم لا حضارتنا!.

وهذا نداء استغاثة أوجهه إلى كل من يضع أولاده في المدارس الدولية الخاصة، التي تعلّمهم بلغات أخرى، وربما تكون هناك مادة -وحيدة- باللغة العربية!، دون أن تكون له رؤية حول العربية في عقل أولاده!.[37] وكأن الهدف إعداد موظفين لسوق العمل والمستقبل الشخصي لا بناة أمم. إن الشعوب التي تحترم لغاتها وشخصياتها، ترفض أن تدخل لغة دخيلة على عقل الطفل قبل أن يتقن لغته الأم أو يتمكن منها.

وقد حاورت إحداهن ممن تكاد ثقتها بنفسها وطلابها المتأمركين، أن تسلكها صعدا في السماء، قلت لها: إنكم كمن يبني عالما جميلا لكنه في أمريكا!، فقالت: إننا نبحث عن مستوى التعليم الأفضل، ولسنا مفتونين بالإنجليزية!.

٣٧- وأعلم أن المدارس الحكومية، لا تنبت كلأً، ولا تمسك ماءً، لذا فإن البعض يختار أخف الضررين فيما يرى، وأقول له: لو أردتَ الخروج لأعددت له عدة، فاعلم إن أولادك أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة، وإنها لمحنة كبيرة أن لا نجد البدائل في أرضنا.

أما امرأة عمران فقالت:﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(آل عمران/35) متى سندرك أن الهدف من الحياة ليس إعداد الدواب للعمل فقط، وإنما إعداد إنسان القرآن، الذي يقدر نعمة البيان الذي نزل به، و يعمل لحضارته ورؤيتها، لا رؤى غيرها، وواهم كل من يظن أن اللغة حيادية، وما أجمل جملة الدكتور عادل مصطفى –في كتابه(فهم الفهم)، إذ قال: نحن لغة!.

ومن لطائف القرآن أنه عندما ذكر اللغة فقد عبر عنها باللسان، وكأنها عضو حي في جسد، وليس أي لسان، إنه لسانٌ مبين!، وكيف سيكون مبيناً بلا حدة في الفكر، تملأ النفوس بالأمل، وتطلق الأيدي بالعمل، فالعقل العاطل يده ناعمة!.

بعد كل هذا وذاك ندرك أن واقعنا الكئيب انعكس على اللغة نفسها، فهي لن تزدهر بلا حضارة، ولن تنبعث لنا حضارة بلا قرآن، هكذا أراد الله لنا، وعندما نحمل النية الصادقة، والعزيمة الشاهقة لإقامة حضارتنا، سنجد الوسائل والأفكار التي تعيد دور اللغة من جديد، وترسل سيّالها في كل روح.

إن اختيار العربية لحمل القرآن، يدل يقينا على طاقتها الهائلة، فإذا كان القرآن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام، والكتاب الذي لن تنقضي عجائبه، فلابد أن تطال هذه الصفاتُ لغته التي تمثل جسده،

من قدرة مرنة على تسمية الأشياء، وتوصيف حقيقتها بدقة مع هامش فضفاض غني يستوعب كل جديد، ويرفد علم الأسماء بنماء غزير، إن طاقة الكلمة العربية مذهلة جدا، لقد أشبعت حاجة المعنى في نفس الصحابي الأول، ولا تزال تتسع لكل تفسير جديد مع تقدم العلم بالآفاق والأنفس على قلة بذل أهلها في تطويرها[٣٨]، ولقد لمست هذه الفارق بوضوح أثناء تجربتي مع الإنجليزية، التي تكاد أن تغصَّ الكلمة منها، إن حاولت أن تندبها لمدلول آخر يجاور المدلول الذي وضعت له!، فأنا أزعم إنه لا مجال للمقارنة بين عدد المدلولات للكلمة العربية الواحدة، ونظيرتها من اللغة الإنجليزية، ولا غرابة في ذلك فالوحي الخالد، يجب أن تتحلى لغته بهذه الصفة لتليق به، فالعربية من أصدق اللغات وأقدرها على مضاهاة الكون المادي والمعنوي بكون لغوي، ولابد من أن ينعكس هذا على العقل الذي يحملها، لأن علاقة التفكير باللغة علاقة أصيلة جليلة كما أسلفنا، ولن ينعكس ما لم يستيقظ العقل المسلم وينفض عنه غبار الجمود والبلادة، ويحرك العملاق اللغوي الذي يملكه، ليبتلع أكبر عدد ممكن من مسميات الكون، أي أن يقرأ ويبحث ليساهم في العلم، ويقلص مساحة المجهول، أما إن بقي على حاله، فسيبقى يتعلم العلوم باللغات الأجنبية، لأن أهلها عالمون منتجون.

ألا فليعلم أولو الألباب، ممن يحملون همَّ النهضة، أنها لن تكون بلا إعزاز اللغة العربية، وإعادة تخصيبها بعلوم العصر، والانطلاق

٣٨- اقرأ في صحيفة إيلاف الإلكترونية مقالا لأشرف أبو جلالة:العربية أكثر انتشارا و أهمية من الفرنسية في بريطانيا!.

من جديد، وهذا لن يقوم- بالتأكيد - بإهمال اللغات الأخرى، بل لابد من تعلمها كوسائل تخدم العربية، ضمن مشروع النهضة الكبير. والمسألة كبيرة تحتاج إلى سياسات دول ومنظمات، ومؤسسات تعليمية وتنموية كثيرة، وأفراد، كلّ من أفق إمكاناته ومنبره.

١٤- من ظلال الأسماء:

إن تعلّم اللغات الأخرى، وتعليم العربية للآخرين، من ظلال هذه الآية (وعلم آدم الأسماء كلها)، هل فيها توجيه إلى ذلك؟، وأجيب بكل ثقة: نعم.

لأن غاية الاستخلاف - الذي وردت فيه هذه الآية - أن تسبح بحمد الله وتقدس له، وتعليم لغة الوحي للآخرين وتعلم لغاتهم لمخاطبتهم بعلم أسمائهم الذي يعرفونه، سيعين إعانة حاسمة على هذه المهمة.

إن تعلم أي لغة جديدة سيعين على تقليم العلوم والأفكار والتجارب، ويعين على تلاقحها، وتبادلها بين الأمم، مما يدعم مهمةالاستخلاف، وهو بالنسبة للأمة المسلمة فرض عظيم، لأنها رسولٌ إلى العالمين، ونائبة عن نبيها العظيم في التبليغ.

إذ لا يختلف مسلمان على أن محمداً ﷺ بُعث رحمة للناس كافة، وليس للعرب فقط، ويعني هذا أمرين:

أنه على أمة من العرب أن يتعلموا جميع لغات العالم ليبلغوا رسالة نبيهم، والأمر الثاني عليهم أن يبتدعوا الوسائل والآليات التي تساعد

على نشر لغتهم في العالمين، ليعلّموا علم أسمائها لبني آدم الذين لم تبلغهم الرسالة، فهي لغة الوحي الذي يجب أن يقرع جميع آذان البشر، ويُسمعهم البلاغ المبين، والبلاغ المبين حالٌ ومقال، أو قول وفعل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾(الصافات/٢-٣)، فعندما تدعوا إلى الله، عليك أن تكون حرّاً تقياً عالماً، قوياً غنياً، معافى نظيفاً..

كان على العرب أن يعتنوا بلغتهم، ويضعوا لها الوسائل التي تعين على نشرها في العالمين، أين المعاهد المحلية والعالمية التي تيسر تعلم العربية لكل مدكر؟!.

أين الكتب ووسائل التعليم التي تقنّنها، وتبسطها للأجانب؟.

وأين الاختبارات المعيارية التي تحدد مستوى كل طالب لتعلم العربية، لتعينه على تبصُّر طريقه اللغوي؟.

هل لدينا اختبار عالميّ كالتوفل (TOEFL) الأمريكي مثلاً، أو الآيلتس (IELTS) البريطاني، يحصي مهارات اللغة، ويمنح من يجتازه تأشيرة دخول إلى عالم العلم والعمل[٣٩]؟.

٣٩- وقد يتساءل سائل: من سيحتاج ليتعلم لغتنا، ولا علم لدينا ليجذب الآخرين، فالعلم كله بالإنجليزية؟. وأقول له: لنؤمن أولا بالتدرج أو المرحلية، فيجب ألا يمنعنا واقعنا السيئ عن العمل للواقع المأمول، أي فكر كيف تنتقل مما هو كائن إلى ما سيكون، وأضيف أن دولا كدول مجلس التعاون مثلا، بثقلها الاقتصادي الكبير، تستقبل ألوف الأجانب في مشافيها ومؤسساتها..، دون أن يلزمهم أحد بتعلم العربية!، ناهيك عن حاجة ملايين المسلمين-من غير العرب- إلى تعلم لغة دينهم، فالدين العالمي، لغته يجب أن تكون عالمية.

وإنك لتعجب أن الغرب عمل بذلك، فاستجابوا لنداء رسالاتهم الأرضية ومصالحهم المادية، ونشروا لغتهم، وبلغت ما زوت لهم همتهم من الأرض، ونحن المخاطبون بالوحي الأعلى الفصيح الصريح نكصنا عن ذلك!.

إن أي دارس للغة الإنجليزية مثلاً، سيرى جهد القوم الجبار في تبسيط لغتهم، والاحتيال على تعليمها حتى بالألعاب والأحاجي!، لقد قننوها تقنيناً مذهلاً، ليناسب كل عقل وهمة، ولديهم معاهد كأنها الطبيب الحاذق يشخص علة المريض بدقة، فيصف له من الأدوية ما يناسب مرضه دون قصور أو شطط..

أو كأنها الخياط الماهر الذي يعرف ما يناسب زبونه من الأشكال والألوان، فلديه ملابس كثيرة تناسب الكبار والصغار، حتى ذوي السن المحير، وما إن تدخل مركزاً إنجليزياً حتى تعرف عمرك اللغوي، وكم تحتاج من الساعات لتبلغ أشدك..

فالمركز البريطاني مثلاً، يقوم كل عام بتدريب ١٢٨[٤٠] مليوناً حول العالم على اللغة الإنجليزي، بل لديهم من الأبحاث والدراسات ما يمد أذرعه إلى عمق المستقبل ليتنبأ بمصير لغتهم ولغات العالم، وهم يعملون من الآن على تجنب أي مصير مؤسف للغتهم..

٤٠- المجلس الثقافي البريطاني- Course notes and information

هل خاطبهم الله بذلك؟، هل من المعقول أن تكون دوافع الطين في الحث على البذل والعمل أقوى من دوافع الوحي؟!.

إن اعتزاز القوم بشخصيتهم ولغتهم، ورغبتهم في الغنى والقوة، جعلهم يفعلون الأفاعيل ليبلغوا هدفهم، أما نحن فلم يحركنا ضوء الوحي ولا ضرورات الحمأ المسنون!.

ولدينا كثير من النخب العربية، وأساتذة الجامعات، والمثقفين، والدارسين، ممن يرفض التعليم باللغة العربية، ويأتيك بحجج تطول وتقصر، لا تدل إلا على هوية معطوبة، وشخصية مسلوبة، وخيال عقيم، لأن الذي لا يتبنى قضية أمته، ويحلم في إحياء رسالتها وثقافتها، لن يدرك خطورة هذه المسألة، إنه غارق في حاجات جسده، ولا يرى في تعلم اللغات إلا ما يحقق مجده الشخصي، مع احتفاظي بحق الاستثناء لكل ذي نية طيبة.

ولو فكر الأوربيون إبان نهضتهم بهذه الطريقة، لما كانت لهم نهضة شخصية، بل لبقوا عالة على غيرهم، لكنهم ترجموا العلوم إلى لغاتهم وانطلقوا، وأضفوا على العلوم طابعهم الخاص بعد ذلك..وإن تعجب، فعجبٌ لمن يدعي العلمية، ثم لا يخضع للعلم، ويطمئن إلى ظنون عائمة، و يهمل ما تقوله الأبحاث[٤١] التي تثبت أن التعلم باللغة الأم

٤١- دفاع عن تعليم الطب باللغة العربية: الدكتور زهير أحمد السباعي، أستاذ طب الأسرة والمجتمع، كلية الطب - جامعة الملك فيصل. والدكتور ماجد عثمان، كلية العلوم الاقتصادية والإدارية، قسم الإحصاء -جامعة الإمارات. البحث متوفر على الانترنت. وهذه البحث للذكر فقط، إذ توجد أبحاث عدة حول هذه القضية الخطيرة، تدعم نتائج هذا البحث.

هو الأجدى، وحريٌّ بالعالم أن تكون خارطة دماغه وفق ما يقتضيه الدليل. كل من يرفض التعلم بلغته لم يأتِنا ببرهان على ما يزعم، مع أن الأصل أن تدرس كل علم بلغتك.

إن المسلم العاقل هو الذي يمتلك الرؤية الكلية، التي تربط الدنيا بالآخرة، والشهادة بالغيب، والجسد بالروح، والعلم بالتقوى، والقرآن بالكون، واللغة العربية بالنهضة، فلا تفلت منه هذه الرؤية، أو تضيع وهو يكدح في هذه الأرض، لأنه إلى ربك الرجعى، ومن عرف ذلك، فسوف يخطط لأهدافه ضمن هذه المنظومة، فلم يخلقنا الله، لنصلي له في المسجد، أما علومنا وسواعدنا فتصلي لغايات أخرى. أسوق هذا الكلمات إلى كل من يحمل هم هذه الأمة، كي لا تتخطفه شياطين الإنس، ممن يزعمون أنهم مفكرون وعلماء وجامعيون، ممن ضيعوا الهوية، وفقدوا الحساسية تجاه الأهداف الكبرى، ولا تزال أعينهم يتخطفها بريق الحضارات الأخرى .نعم..أمتنا تخلفت، وهي أكثر الأمم جهلا وفقرا وفوضى وفسادا، لكن ما العمل؟. سنتعلم كل لغات الأرض، ونتقنها أيما إتقان، لكن لنجعلها خادمة للغة العربية، وعاء وحينا وحضارتنا، سنتعلم ذلك لننطلق، ونجعل العلم علمنا، لا أن نبقى عالة على أمم الشرق والغرب.

يؤلمني جدا، أن يقال أن بحثنا العلمي ضعيف ومصداقيته كذلك، وليس لدينا ما يضاهي الغرب أو الشرق في الأبحاث والمصادر والإتقان، وهذا صحيح و يجب أن نعترف به، لكن كيف سنغير هذا الواقع، إن بقينا نتعلم لغتهم، ونكتب بلغتهم، وننشر بلغتهم، دون أن تكون لنا خطة شاملة نبعث بها نهضتنا المرتقبة، فالعربية لم تقنن علميا مثلا، وكيف سنشعر أننا بحاجة إلى ذلك ونحن أفقر الأمم بالبحث العلمي ومن النوادر أن يكون لنا مجلات علمية في العلوم المختلفة التي تعتمد نهجا لغويا علميا رصينا دون ترهل.. فكروا بالحلول، وليضع كل عا لم ومفكر وباحث هذه الحقائق نصب عينيه.

فما بال أقوام يُنادون من مكان بعيد، عندما نسوق هذه الكلمات وأمثالها؟، ممن تعلموا العلم ليعلوا به على جراح أمتهم لا لكي يعينوا على شفائها، تعلموه ليتشدقوا بمنجزات غيرهم، وكأنهم أبناء تلك الحضارات، نعم هم أبناؤها حقا، فلسانهم أعجمي مبين!. وإذ قلنا: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا، أن نعمل لأمتنا ونرفع خسيستها، وجدتهم يتذرعون بأمراض الأمة ومشاكلها، وأنهم لا يستطيعون العمل في هذه الظروف البائسة. نعم..هم يريدون مناخا جاهزا يصنعهم، ولا يساهمون في صناعته، فإذا حاصرتَ أحدهم بدينه التقليدي، خرَّ متواضعا:(إنها لغة القرآن، واللغة التي استوعبت كل شيء!)، فلماذا إذن لا يرتعش فؤادك إلا على أوتار لغات أخرى وحضارات أخرى؟!.

إن لغتنا أصبحت ترفا مملا يتلذذ به كثير من العلماء والمثقفين في أوقات فراغهم، فهم يفخرون بمكانتها كما يفخرون بعدد ختماتهم للقرآن أو حفظهم له، أما إذا أرادوا أن يعملوا للحياة فهم يمتطون جواد لغة أخرى بل يحرصون على تعليمها لأطفالهم، ليضمنوا مستقبلهم، إنهم يتعاملون مع أطفالهم كما يتعامل التاجر مع تجارته، أو المستثمر مع استثماراته، لا ينشط إلا لما يجعلهم بضائع مناسبة لسوق العمل، هذا همه من مستقبلهم، حتى وإن كانوا أيقونات في منظومات أخرى، ثم إنه يصلي ويصلون، ويصوم ويصومون، ويحب محمدا وصحبه، لكنه حب الحبيب الذي لا يقدم لحبيبته إلا الشعر والتوجد!.

إن العجز التهم حتى أحلامهم، فهم لا يستطيعون أن يحلموا بقدرتنا على بناء حضارة جديدة لسانها عربي مبين، إنهم جاهلون بمنطق غرس الفسائل في لجج العواصف، ولا شكَّ عندي أن هذا يأس يظهر في وجه نشاط وجد وتحضر!، إذ ترى صاحبه ينطلق في الحياة كالصاعقة، يأخذ بكل شيء قد يعود عليه بنفع، لكن لا علاقة لرؤيته أو مشروعه بما أراده الله من الناس، أو بمبادئ حضارته التي قامت عليها أول الأمر، ولن تقوم بسواها أخر الأمر. إن صلاته وصيامه وكل عباداته، إكسسوارات لا أكثر، تزين الصورة النمطية للمسلم، لكن لا علاقة لها بما ينشط له أو يخطط، إنه يعمل بتوقيت منظومات أخرى،

أو حضارات أخرى. وهذا الصنف لم ييأس من تغيير الواقع فقط، بل زاد عليه بالانهزام أمام الآخر، فانسلبت شخصيته.

حقا إن عديمي الخيال والأمل، محنة كل أمة تريد أن تنهض من كبوتها، لأنهم لن يستطيعوا أن يتخيلوا عالما آخر لهم يعزون فيه، ويشرُفُون، لذا فلن يعملوا له!، ﴿..هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ..﴾ (المنافقون/٤)!.

إن من هذا شأنه، لن يزيد نهضتنا إلا خبالا، لأنه يعيش بلا بوصلة، أو ثوابت أو منهج يحكمه ليستقر و يعتدل، هو يعلم ظاهرا من حقيقة العلم، وما قيمة المعلومات الكثيرة و أنت بلا انتماء، تعيش لهموم صغيرة لا تتجاوز سطح الغلاف الجوي!، إن الفرق كبير بين دكان صغير في حي شعبي، وبين شركة عابرة للقارات، وبين من يدوخ في الجزئيات، وبين من يستطيع أن يحكمها بمفهوم كلي فيعلو عليها. والفرق كبير بين من لا يتجاوز تخطيطه الحياة الدنيا، وبين من لا يرى إلا الغيب من وراء كل حركة يصنعها، ثم إنه يصلي ويصلون، ويحج ويحجون، ويقرأ القرآن ويقرؤون.!

إن قضية التعلم باللغة الأم قضية نهضة كاملة، لا أراء شخصية يغفو عليها كل مستريح، الأمم تعتز بلغاتها وتراها رمزاً للسيادة والهوية إلا العرب!، يبدو أن ضعف ثقتهم بأنفسهم جعلهم يظنون أنهم سيبقون يتسولون العلم من الغرب والشرق، ولن يساهموا في إنتاج المعرفة،

سيظلون كسالى مستعمَرين، لا شخصية لهم!. إن من لم يحمل همّ هذه الأمة، فهو من همومها الذي نحمله مع بقية الهموم.

ثالثا- التقوى:

١- مقدمة:

إن تقديم الصفة الأولى- في مطلع سورة البقرة - للمستخلف وهي التقوى على الصفة الثانية وهي العلم، بيانٌ صريحٌ أن العلم يجب أن يكون في خدمة التقوى، ووسيلة إليها ولها، وضمانة لامتداد تطبيقاتها في النفس والمجتمع..

وهذا ما نصت عليه سورة العلق، فالقراءة باسم الله الذي خلق، تطلق قدرة الإنسان في الكون فيخلق ما يسخره به (صفة العلم).

والقراءة مع الله الأكرم، الذي علم بالقلم، فأعان الإنسان على تسخير الكون، تُلزِمك أن تكون الأكرم أيضاً، لأن ربك الأكرم، ولن تنال صفة الأكرم حتى تكون الأتقى (صفة لتقوى):﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات/١٣). إن الذي علم الإنسان ما لم يعلم بالقلم، يريد منك أن تقرأ كل يوم بل كل لحظة لتعلم ما لم تعلم، فلن تكتسب العلم إلا بهذه الدفعات المقلمة، التي ستنقلك من طور العلق إلى طور الخلق الآخر الذي يستطيع أن يقيم الشكر للرب

الأكرم الذي وهبه وسائل التعلم، وإقامة الشكر هي التي ستدخلك في منافسة التقوى، لتفوز بصفة الأكرم عند الرب الأكرم.

ويوم يكون عملك منضبطاً بتقوى الله، فهذا هو الشكر الذي تؤديه لله الذي أكرمك وعلمك، فالشكر هو العمل الصالح، المنضبط بضوابط التقوى، الذي يوظف الأشياء فيما يرضي الله وفيما يخدم دينه: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(سبأ/١٣)..

إن عمل المحاريب والتماثيل والجفان والقدور هو عينه القراءة باسم الله الذي خلق، إنه تحويل المواد الخام (مرحلة العلق) إلى خلق آخر يخدم الإنسانية، أي أن يخلق هذا الإنسان أشياء جديدة أو مخترعات ووسائل لم تكن موجودة، وهذا لن يكون إلا بعلوم كونية، ثم تأتي جملة (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً) كتذكير بالأكرم الذي اقترن بأمر القراءة الثاني، فالشكر مرتبط بالأكرم، والشكر هو وجه العمل الصالح المتقي، الذي يربط نشاط الإنسان بخالقه، وينسب الفضل إليه فلا يطغى، لأن العلم والاقتدار على الأرض، يفضي إلى الغنى والقوة فالطغيان، وهذا ما يقرره القرآن في سورة العلق أيضاً بعد أمري القراءة: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾، وهذا المعنى عينه قررته آية سبأ، بعد الأمر بالعمل شكراً!: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾...

ثم تعود سورة العلق فتذكّر هذا الإنسان بعاقبته، لعله يتقي: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾، لكن هيهات أن يقتصر الطغيان على عالمه فقط، ويترك الآخرين وشأنهم، إن التقوى تهدد وجوده، كما تهدد النظافة بعوضَ المستنقعات، وهذه سنة في المجتمعات تقررها سورة العلق أيضاً ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾(العلق/١٠-١٤).

إذا صلى..إن كان على الهدى..أو أمر بالتقوى..ألم يعلم بأن الله يرى؟!..إن هذه الكلمات تذكرك بمطلع البقرة: المتقين..الذين يؤمنون بالغيب..ويقيمون الصلاة..أولئك على هدى ربهم!

إن حضارة الطغيان لو كانت تعلم أن الله يرى، لما حاربت حضارة التقوى وأهلها، وكيف لها أن تفعل ذلك وهي كافرة بالغيب، والكفر بالغيب سيلد الأنداد من دون الله حتماً والحضاراتِ الطاغية الغاشمة.

وهنا شيء مهم جداً، لابد أن نلتفت إليه، تقرره سورة العلق: وهو أن هذا النوع من الطغيان لا يكون إلا طغياناً عالماً (عالم غير متق)، يمتلك زمام العلوم والمعارف والقدرة على تسخير الأرض، وما إن يستغني ويقوى حتى يبطش بكل حضارة تقوم على التقوى، وتحاول أن تربط الأرض بالسماء، إن قيامنا بهمتنا، ورفع صرح قوتنا، لن يقتصر على حماية وجودنا وحضارتنا فقط، بل سيمتد إلى كل المستضعفين

في الأرض، لأنه سيخلق التوازن الذي يكفكف قوى الطغيان فيها، ويمنعها من الفساد وسفك الدماء، لأنها تعلم أن للحق قوة شامخة تبذل نفسها و نفيسها دونه، وقد قيل للجبل: مما علوت، قال: من دنو الوادي، فهل نعي؟!.

إن أي حضارة تذوي فيها الأخلاق، وتنحسر فيها أشواق الروح، ليست بحضارة مستخلفة، بل سيجعل منها العلم غولاً لا يشبع من سفك الدماء والفساد في الأرض، سيزيد العلم من شدتها على الفساد، ستكون حضارة براقة جداً، لكن نفسها معتمة، كـ (بئر معطلة وقصر مشيد)!.وكم يبهرك القرآن، إن هذه الكلمات الأربعة تختزل المشهد كله، فالبئر هو رمز الحياة، والقصر رمز العمران المادي الضخم، إنها حضارة ضخمة براقة لكنها بلا روح كبئر معطلة.

إنها حضارة تحتفي بعلف الأجساد، وبكل ما يزيد رفاهيتها، حضارة تتمدد بأقصى طاقاتها في فضاءات البدن.. فضاءات التدسية، وتستدبر فضاءات الروح .. فضاءات التزكية.

وهناك تطبيق نبوي على هذه الحقيقة، يبيّن صفة الإنسان الكافر بالغيب، أو الضعيف الإيمان به، إنسان البئر المعطلة والقصر المشيد، حيث يقول عليه الصلاة والسلام، عن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهما، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة: (أن رجلا كان يأكل

كثيرا فأسلم فكان يأكل أكلا قليلا، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: إن المؤمن يأكل في معي واحد، و الكافر يأكل في سبعة أمعاء). عندما آمن الإيمان الحق، قلّ نهمه، لأن روحه اتصلت بفاطرها، فلا غرابة أن تكثر في الحضارة المعاصرة أمراض البدانة وما ينتج عنها من سكري وارتفاع ضغط، وعطب كلى!، إن هذا مؤشر دقيق على جزر الروح، ومدّ الجسد، وكثرة الخضم والهضم، إن إنسان البلدان المتحضرة سمين الجسد، ضئيل الروح، كبئر معطلة وقصر مشيد!.

٢- قلب البقرة:

إن معادلة سورة البقرة لتقوم على هذه الحقيقة:

إن ضعف الإيمان بالغيب (الله)، أدى إلى البحث عن إله مادي (العجل)، والتعلق بالأنداد الأرضية، وانعكس ذلك في عدم أخذ الكتاب بقوة، وعصيان أوامر الله، والتلكؤ في تنفيذها، وهذا ما تجلى في قصة البقرة، التي كان هدفها اختبار امتثال بني إسرائيل للأمر الإلهي، لأن الطاعة هي المؤشر الحق في تمحيص الإيمان بالغيب، لأنها تنقله من الحيز النظري إلى العملي، فيظهر الصدق من الادعاء والكذب.

لذا كان من أهداف البقرة، إحياء تلك الصفة الدراسة في قلوب القوم، صفةِ الإيمان بالغيب، عن طريق إحياء الميت، وقد رأى القوم كيف أحيا الله الموتى، لكنهم لم يعقلوا!، فقست قلوبهم من بعد ذلك..

واختبار الطاعة هو سنة الله الأولى مع كل أمة مستخلفة، فقد أمر الله تعالى الأمةَ الأولى، آدم وزوجه بألا يقربا تلك الشجرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾(البقرة/٣٥).

وقد أمر بني إسرائيل – الأمة الثانية – بأوامر كثيرة، بلغت ذروتها في قصة البقرة، التي حملت السورة اسمها، لتحذرنا من الداء الأهم في كل أمة كتابية تحمل راية الوحي، لكي تخلص له، وألا يصبح الأمر، ظاهره نسب للوحي، وحقيقته عمل للتراب!.

ثم تأتي الأمة الثالثة — إبراهيم عليه الصلاة والسلام – التي نجحت في اختبار الطاعة، وأتمت كلمات الله، فنالت درجة الإمامة والاستخلاف: ﴿ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(البقرة/١٢٤).

وقد دعت هذه الأمة التي نجحت في الاستخلاف، دعتِ الله تعالى أن تكون ذريتها على النهج نفسه، لتستحق أمن الله ونعمه، لكن قُيد الأمر بالإيمان بالله، واليوم الآخر، أي الإيمان بالغيب الذي يضمن الامتثال لأمر الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة/١٢٦).

ثم تأتي الأمة الأخيرة – الأمة المسلمة – التي لن تكون بدعاً مما قبلها من الأمم في اختبار الطاعة ودرجة الإيمان بالغيب، وكان الاختبار في تغيير القبلة!: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(البقرة/١٤٣).

ثم تتالت الاختبارات في مفردات المنهج الكثيرة في العبادات والقصاص والقتال والأسرة والإنفاق... ولا يزال الاختبار قائما لكل من يريد أن يكون الخليفة في الأرض، فالأمر لن يكون بالدعاوى العريضة والسواعد المريضة، وإلا سنكون في فسطاط الظالمين، الذين شرفهم الله بالوحي، فهبطوا منه!، وقد حذرتنا سورة البقرة من مسالكهم وأمراضهم، واتباع أهوائهم. وهذه الآية حاسمة في تقرير ذلك، التي أتت بعد آية تغيير القبلة!: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة/١٤٥)وتذكر خاتمة الآية في الأمة الأولى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾(البقرة/٣٥)، وخاتمتها في الأمة الثالثة:.. ﴿قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(البقرة/١٢٤). وكم وكم

تكررت هذه الخاتمة في آيات الأمة الثانية، أمة بني إسرائيل!. ولا ننسى أن نذكر أن من صفة الخليفة التوبة المستمرة، فإيمانه بالغيب في صيرورة مستمرة، ينتقل من أفق إلى أفق، فهو بشر وليس معصوماً من الخطأ والنسيان وضعف العزم، بخلاف بني إسرائيل الذين اقتفوا أثر إبليس في الاستكبار، وعدم التوبة.

فهل أدركت الآن – أيها المسلم- لماذا كانت أول صفة للمتقين في مطلع البقرة (الذين يؤمنون بالغيب)، فلن تقام الصلاة ويشكر الإنسان ويقوم بكل مهام الاستخلاف ويصبر عليها، ما لم يؤمن بالغيب، بالله الذي أوجده وأمده، وباليوم الآخر الذي سيلقى جزاءه الأوفى فيه:

﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(البقرة/٤٥-٤٦). وقد أشرنا من قبل إلى كثرة الآيات التي تدل على إحاطة علم الله بالإنسان وإطلاعه عليه، وكثرة الآيات التي خُتمت بـ(وما الله بغافل عمّا تعملون)، لتدلك على أن العلة الكبرى لهذه النفس الإنسانية هي ضعف الإيمان بالغيب وقد جسدها بنو إسرائيل أروع تجسيد!

٣ – علم التقوى:

إذن: إن العلم بلا تقوى سلاحٌ للفساد، لأنه سيكون في خدمة الأنداد من دون الله، وقد تحدثنا عن صفة العلم التي يجب أن يتسلح

بها الإنسان المستخلَف ليسخر الكون، لكنّ الإنسان يحتاج إلى علم آخر لتقوم تقواه.. إنه علم بالله، فمن هو ربك؟، كيف ستعلم أسماءه وصفاته؟.

إنه الشق الثاني من العلم الذي يجب أن يحمله الخليفة، فقد تدلك قراءة الكون على إله عظيم بديع جميل، لكن قراءة القرآن ستحدد لك صفات هذا الخالق، وتبيّن لك منهجه، الذي يجب أن تسير عليه في مهمتك ﴿اقرأ باسم ربك﴾..

فالله وحده، هو الذي يخبر عن نفسه في وحيه، فهو الحق، وليس الأمر متروكاً لأوهام البشر وتخيلاتهم، إن هذا القرآن قلم يستهدي به المتقون، المستخلفون في الأرض، إنه قلم جامع يوجه عقولهم، ويزكي نفوسهم، إنه الحبل الذي يربطهم بالغيب، ليحفظ نسب أرواحهم الذي انحدر من هناك، لتكون الغلبة للتزكية على التدسية، فتنتصر النفس المطمئنة على الأمارة، فلابد من قَرن قراءة الأكوان، بقراءة القرآن، ولا تنسَ أن القراءة هي مفتاح العلوم كلها، التي تضمن مهمة الاستخلاف، وتمنع الفساد في الأرض.

وانظر إلى تلازم الأمر بالتقوى مع العلم بالله في خاتمة هذه الآيات، لتنتج الخليفة المتقي العالم، والملفت أنها آيات متنوعة في القتال، وشؤون الأسرة، والعبادات كالحج، وأعمال البر كالإنفاق، إنها الحياة ببساطة!، قال تعالى:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(البقرة/١٩٤).

﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(البقرة/١٩٦).

﴿وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْه لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(البقرة/٢٠٣).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(البقرة/٢٠٨-٢٠٩).

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(البقرة/٢٢٣).

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(البقرة/٢٣١).

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(البقرة/٢٣٣).

﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾(البقرة/٢٣٥).

﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(البقرة/٢٤٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(البقرة/٢٦٧).

مع كل أمر بالتقوى، حض على العلم بأسماء الله وصفاته، كلها آيات تبين أنك إن لم تعلم أسماء الله وصفاته فلن تتقيه، فكيف تتقي ما تجهل، لقد أتاك منه هدى يعرّفك به، وخلق لك كوناً يقودك إليه، فقد جاء ذكر الكون، بعد ذكر الخلق:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/٢١-٢٢).

وبيّن أن عبادته تثمر التقوى في الناس، وكيف لا؟ والله عز وجل مصدر الحق والخير والجمال، له الأسماء الحسنى والصفات العلا، فمن يرتبط به حقَّ الارتباط، ستثمر صفات الله العالم الحق العدل الكريم الصبور الرحيم، ستثمر علماً وعدلاً ورحمة وصبراً في نفس العابد وتصرفاته مع من حوله..

وستكون العبادات والتكاليف كلها بذوراً عقيمة ما لم تحتضنها تربة الإيمان بالغيب، الإيمان بالله وباليوم الآخر، الإيمان بلقاء الله (وإنها

لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون)، هذا الإيمان هو الدم الذي سيجري في عروق كل التكاليف الأخرى ويمنحها الحياة لتثمر، وهو النسغ الغني الذي يسري في أغصان النبات، ليجعلها خضراء وارفة الظلال، تسر الناظرين، ويستظل بها المتعبون..

فالله الذي أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لنا، أنزل لنا من السماء وحياً، ليخرج به من نفوسنا ثمرات تقيم مهمة الاستخلاف في الأرض، وهذا هو لب قضية الإيمان التي يريد الحق أن نفهمها ونعتنقها، ونضحي من أجل بسط ظلالها على العالمين، لابد أن يبني فينا صرح الإيمان راسخاً، حتى نبني الأرض بمقتضاها..

وهنا تدرك ما وظيفة العبادات، إنها لإعدادك للخلافة، فالصيام للتقوى، والحج للتقوى، والبر للتقوى، وكل شيء من أجل التقوى، لأنها النتيجة النهائية لعبادة الله، فآيات الصيام، والحج والصلاة تجاور آيات القتال وأعمال البر من إنفاق وصبر ووفاء بعهد.. لتعلم وتفهم أن العبادات لعمارة الأرض، وليست معزولة عن حركة الحياة، كما يفهمها مسلمو اليوم!.

٤- الأسرة والقتال أصدق تمحيص للتقوى:

وانظر كيف تبرز آية المحافظة على الصلوات حتى أثناء القتال -وهي سنام العبادات- من بين آيات الأسرة في الطلاق والرضاعة، والمتوفى عنهن أزواجهن، وكيف لا؟ والصلاة أولى ثمرات الإيمان بالغيب، وهي الوسيلة الدائمة للاتصال بالله الذي به تستعين على مهام الاستخلاف، قال تعالى:

﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/٢٣٨-٢٣٩).

يبدو أن المسؤولية الأسرية ثقيلة جداً، ومعظم الناس يفشل في سياستها على التقوى والعدل، والواقع يشهد باكتظاظ الأسر بمظالم لا حصر لها، وللمرأة النصيب الأكبر من هذا الظلم، وفي غمرة هذه البيئة الأسرية الدقيقة، المليئة بالواجبات والأحداث التي تبتلي حقيقة الإنسان، وتحتاج منه إلى تقوى عالية، في غمرة هذا كله، يأمر المولى بتفعيل الإيمان بالغيب، بتذكره بالحفاظ على الصلاة، لأن هذه الظروف المشحونة قد تُنسي الإنسان المصدرَ الذي يجعله يحافظ على توازنه فلا يظلم، وكأنه يقول: إن من لم يحافظ على صلاته، لن يحافظ على أسرته، ويحفظ حقوق غيره!، تذكر الله القوي العليّ وأنت قوي أمام

امرأة ضعيفة، وتذكره وأنت خائف ضعيف حين البأس يوم تحمر الحدق في المعارك!.

ويبدو أيضاً أن من يتقي الله في المرأة فلا يبطش ويظلم، سيكون شجاعاً حين البأس فلا يجبن، لأنه يستمد توازنه في كلتا الحالتين من الله عز وجل، من إيمانه بالغيب ورقابته، فلا يتجبر في الأولى، ولا يخاف ويجبن في الثانية، ونستطيع أن نقول، على ضوء هذه الآيات، إن الإعداد للعدو المتربص، يبدأ من إعداد الأسرة الصحيح، وقد لفت نظري، أن الله تعالى، ذكر أن من مضارّ السحر، التفريق بين المرء وزوجه، مع أن للسحر مضار كثيرة بين الناس:

﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾(البقرة/١٠٢).

يبدو أن فساد بني إسرائيل كان رهيباً في عالم الأسرة، وفي ظلم النساء، فهم ممن امتهن السحر، واستبدله بهدي الكتاب، وجعلوه وسيلة لتحطيم الأزواج، لذلك خص الله مضرة التفريق بين الزوجين بالذكر،

من بين كل مضار السحر، وفي ذلك دليل قوي على دور الأسرة في الاستخلاف، فإن صلحت كانت مهاداً لصلاح المجتمع كله.

وهذا يرشدنا أيضاً إلى سر ذلك البيان الطويل في أحكام الأسرة التي خاطب الله بها المسلمين من زواج وطلاق ورضاعة، مع تشديد كبير على التقوى والإصلاح بين الأزواج، وتحذير أشد في أكثر من موضع بـ(العزيز الحكيم)، عند تعدي الحدود التي رسمها الله في هذا المجال المقدس، فصلاح الأسرة، وتقوى الأزواج، مؤشر دقيق على نهضة الأمة واستخلافها..فإذا رأيت النساء مظلومات مكلومات، بنات كنّ أو مطلقات أو أرامل، فاعلم أن الأمة ليست مستخلفة.

إن أسرة ناجحة، تقوم على الحب، وتصنع الأبطال، هي أغلى ما تحتاجه الأوطان، لأنها تقدم للأوطان بناتها وحماتها، فالأسرة الصالحة مهاد العظماء.

ونقر أن بناء أسرة كهذه، يحتاج صبراً وعلماً وتعاوناً ذكياً بين المرء وزوجه، لكن لا نستطيع أن ننكر اللمسة الخاصة التي تتركها الأم على أطفالها، ولكن كم من امرأة خواء، امتد شرها إلى ذراريها، ويا ليتها بقيت فرداً عقيماً!، فأمّ كهذه، تزيد الكم ليشقى به النوع، وتعد دواباً للعلف، لا هماً للبناء!.

٥-البقرة سورة التقوى:

وقد تتبعت الآيات التي ذكرت فيها كلمة التقوى ومشتقاتها، فكانت واحداً وثلاثين آية، ذُكرت فيها التقوى ستاً وثلاثين مرة، في مواضيع مختلفة من شؤون الحياة:

١- ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة/٢).

٢- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة/٢١).

٣- ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٢٤).

٤- ﴿وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾(البقرة/٤١).

٥- ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(البقرة/٤٨).

٦- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة/٦٣).

٧- ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة/ ٦٦).

٨- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾(البقرة/١٠٣).

٩- ﴿واتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(البقرة/١٢٣).

١٠- ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(البقرة/١٧٧).

١١-﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة/١٧٩).

١٢- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾(البقرة/١٨٠)

١٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة/١٨٣).

١٤- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا

عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾(البقرة/١٨٧).

١٥- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(البقرة/١٨٩).

١٦- ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾(البقرة/١٩٤).

١٧- ﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(البقرة/١٩٦).

١٨- ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾(البقرة/١٩٧).

﴿ومِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(البقرة/٢٠١).

١٩- ﴿وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْه لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (البقرة/٢٠٣).

٢٠- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (البقرة/٢٠٦).

٢١-﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(البقرة/٢١٢).

٢٢-﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(البقرة/٢٢٣).

٢٣- ﴿وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(البقرة/٢٢٤).

٢٤-﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٣١).

٢٥- ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(البقرة/٢٣٣).

٢٦- ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إَلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(البقرة/٢٣٧).

٢٧- ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾(البقرة/٢٤١).

٢٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(البقرة/٢٧٨).

٢٩- ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(البقرة/٢٨١).

٣٠- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ

مِنْهُ شَيْئاً فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٨٢).

٣١- ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٨٣).

إن التقوى كالشريان الضخم الممتلئ بالدم النقي والمواد المغذية، تمتد فروعه وشعيراته في كل الأنسجة، هي أنسجة مختلفة لكنها تسقى بدم واحد، وكذلك التقوى تمتد شعيراتها إلى كل أنسجة الحياة، في نسيج الأسرة، والحدود، والمواريث، والعبادات، وأعمال البر، والتداين، والتطوع ومختلف العلوم..

ورئتها التي تتنفس بها هي الإيمان بالغيب، بالله العلي العظيم، فهل علمت لماذا ابتدأت سورة البقرة بالحديث عن المتقين وصفاتهم، إنهم المعنيون بالاستخلاف، ومن هنا تدرك لماذا كانت التقوى كاللحمة التي تمسك نسيج البقرة كله، فالاستخلاف مسؤوليتك أيها المتقي، وأي ظلم وفساد يقع في هذا الأرض، سببه أنك لم تقم بمهمتك، ولم تستعن بالله عليها، وهل ظننت أن النصر بجهدك المحض؟، إن الله يأمرك أن تؤدي ما عليك من واجبات، وليست هي سبب النصر وحدها، بل اتصالها المباشر الدائم معه تبارك وتعالى.

٦- المتقون سنة الله في دفع الظلم (**تطبيق عملي**):

وقصة طالوت وجالوت خير مثال على ذلك، فالقوم قلة و الذين ظنوا أن النصر بأيديهم ﴿قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ﴾، بينما ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. إنهم العالمون بالله، المستعينون بالصبر والصلاة على الإعداد، فملكهم طالوت ذو بسطة في العلم والجسم، ولا شك أنه علم بالله وبكونه، أي جمع بين القوة العلمية والعملية، ويوم التقى الجمعان، هرعت القلوب إلى ربها:﴿ربنا افرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا﴾..

وكلمة (أفرغ) تشعرك أن الأمر أتى من علو، فهزموهم بإذن الله..

إنه الإيمان بالغيب، كان حاضراً في تلك اللحظة العصيبة، وهذا ما صدقه دعاء القوم: ﴿ربنا افرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا﴾.

ولا شك أنه أول مقوم من مقومات الاستخلاف، تجلى بالاستعانة بالصبر والصلاة من قبل، وتخيل معي، أيَّ نصر سيحققه الفساد، لو كان كل جنود طالوت ضعفاء من ذلك الصنف الذي فشل في ابتلاء النهر لقلة صبره، أو الذي قال لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده لضعف إيمانه بالغيب، وظنه أن الأسباب المادية هي وحدها سبب النصر!.

وتدرك هنا، لماذا كان دعاء المسلمين في أواخر البقرة: ﴿ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به﴾.

لقد بيّن الله تعالى قبلها، أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، اعمل ما أمرك الله به من أسباب، وثق بأن نصره سينزل، وسنام الأمر كله أن تتخذه ولياً لكي ينصرك، وألا يكون في قلبك ندا ندٌ له، ﴿أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾،وهذا الدعاء منهج قلوب وأيدٍ وليس حركة لسان.

ثم يقول الله بعدها: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة/٢٥١).

إن الله من يدفع بالمتقين الظالمين المفسدين، بعد أن يكونوا متقين حقاً، فلا تسب الظالمين بعد اليوم وتظنهم غلبوا لقوتهم ومكرهم، بل

لأنك أنتَ لم تكن عالماً متقياً، وأي طريق سوى ذلك، سيجعلك من الظالمين. فإن خالفت أمر الله فقد ظلمت نفسك:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾(البقرة/٣٥) ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(البقرة/٢٢٩).

وإن كفرت نعمه، ولم تشكر فقد ظلمت نفسك:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(البقرة/٢٥٤). ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(البقرة/٢٧٠).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(البقرة/٢٥٨).

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة/٥٧).

وإن استهزأت بأمره فقد ظلمت نفسك:

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ (البقرة/٥٩).

وإن اتخذت نداً من دونه فقد ظلمت نفسك:

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة/٥١). ﴿وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة/٩٢).

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة/١٤٥).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (البقرة/١٦٥).

وظلمك سيجعلك خارج دائرة الاستخلاف:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً

قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾(البقرة/١٢٤) لأن ظلمك سيمنعك من القيام بتلك المهمة الجليلة، فلست أهلاً لها، وستجبن عند لقاء الله، لأن عدم تمني الموت والجبن في المواقف الحاسمة، ينتج عن المعاصي في سلوك الأفراد، فكأن هذه المعاصي كالفيروسات الكامنة في الجسد (فترة حضانة) التي تبقى كامنة حتى إذا ما وجدت فرصة ظهرت أعراضها على البدن فأهلكته، والمعاصي كذلك، فهي تتراكم حتى إذا جاءت المواقف التي تمحص الرجال والفعال، فعلت فعلها فأقعدت المرء عن البذل وأركسته في حضيض الجبن والبخل:

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ ﴾(البقرة/٩٥).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة/٢٤٦).

وستكون على الضفة الأخرى، ضفة المفسدين، وهدفاً مشروعاً للمتقين المستخلفين:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾(البقرة/١٩٣).

وفي الختام، يخبرك الله بأنك صائر إليه، فإن لم تظلم وتتخذ نداً لله، فإنك لن تُظلم! وستأخذ حقك كاملاً وزيادة: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(البقرة/٢٨١).

وإياك من التولي وأنت معرض، فقد سبقك قوم فشلوا في الاستخلاف، اتخذوا أنداداً لله، فليس لهم يوم القيامة من ولي ولا نصير، وقال لهم قولاً قريباً من قوله لنا:

﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(البقرة/١٢٣).

الفصل الرابع
خواتيم

أولاً- الكلمة مشروع استخلاف:

قال تعالى:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٢٨٥-٢٨٦).

إن في هاتين الآيتين إيماناً جامعاً بالأنبياء والرسل والكتب، وإعلاناً للسمع والطاعة، وإيقاناً بيوم يرجعون فيه إلى الله، لكنّ بني إسرائيل قد حملوا ما يناقض هذه الصفات، إذ قالوا: سمعنا وعصينا، ونسوا اليوم الآخر، ومَن إليه المصير، وكفروا بما أنزل على باقي الأنبياء...

كأن هاتين الآيتين تلخيصٌ لكل سورة البقرة.

والإيمان بمن قبلنا له فائدة من اتجاهين:

الأول: أن تعلم معنى صفات الله وأسمائه في تعامله مع من قبلك من مؤمنين وكافرين.

والثاني: أن تتجنب أخطاء من قبلك مع أنبيائهم والوحي الذي أُنزل عليهم.

فإن كفرت بموسى، فلن تعتبر بقصص بني إسرائيل، ولن تعلم صفات الله التي تجلت في تعامله معهم، كتوبته عليهم، وغضبه، ورحمته بهم.. كيف ستعتبر بذلك، إن كنت ترى أن موسى ليس نبياً؟

وكلمة (كسبت) تدلك على أنه لابد من عمل، لابد من الأخذ بالأسباب، إنها نفس تعمل وتكسب

وهذه الأدعية الحارة، تدلك على أن الدعاء يجب أن يكون حادياً لهذا العمل، ليكون خالصاً وتكون مخلصاً.

ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا:

فيهما دعوة إلى تجنب سلوك من استهانوا واستهزؤوا بأوامر الله، فشدد عليهم، وهذا عودٌ على بدء، لقد كان الخطاب الإيماني الأول: (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) التي فيها الأمر بمخالفة اليهود وأخذ الدين بقوة)..

وها هي الخاتمة تصدح بدعاء حار لتجنب ذلك المسلك الخسيس، وذلك المسلك ظهر جلياً في قصة البقرة التي حملت السورة اسمها، وها هي الخاتمة تحمل إشارات خفيه إليه!.

لقد ورد في الحديث الصحيح أن من قال هاتين الآيتين في كل ليلة كفتاه.

نعم، يبدو لأن فيهما براءة من صفات بني إسرائيل التي تجلت في قصة البقرة، وقصة طالوت وجالوت أيضاً، وطلب للإعانة على تجنب تلك الصفات الفاسدة، إنه الإعلان عن ولادة أمة جديدة.. خلق آخر، سيتولى مهمة الاستخلاف، ويمنع الفساد في الأرض، فهل نحن كذلك الآن؟.

وهناك شيء آخر، لقد أسلفنا أن آية الكرسي تعني إعلان الولاء لله، والتطهر من كل ند من دونه، وهي من الأذكار المأمور بها بعد كل صلاة، ويشبهها في ذلك هاتان الآيتان من أواخر سورة البقرة، من حيث الأمر بقراءتهما كل ليلة..

إن في ذلك توجيهاً لكل مسلم، لتكون رسالة أمته هماً شخصياً له في يومه وليلته، ليرتب أوقاته بما يخدم نهضتها ويعينها على القيام بمهمتها..

ولابد من وقفة متأنية هنا، حول قراءة هذه الآيات العظيمات: لقد كانت الكلمة الأولى من القرآن: اقرأ.

وقد قلنا أن القراءة أكبر من أن تكون تلفظاً ببضع كلمات.

إن (اقرأ) هي العلم والعمل باسم الله، هدفهما لله، وكل ثمراتهما يجب أن تكون وقفاً للإيمان، ضد الكفران والطغيان، فهل يستقيم أن تقول باسم الله ثم تفسد في الأرض؟.

ليس الأمر كلمات مجردة ينشط بها لسانك. وقلبك مُشرَبٌ بالطاغوت، ويداك تقرآن باسمه، لذا أرى أن كل أمر نبوي بالقراءة، هو على هذا النوع من الفهم.

إن آية الكرسي تعني نبذ الأنداد وإعلان الولاء لله، فأنت بعد كل صلاة تعلن ولاءك لله، فهل الأمر مجرد كلمات لفظية، أم منهج حياة؟، ماذا تعمل قبل كل صلاة، وبعدها؟.

إن آية الكرسي تعني أن يكون عملك في خدمة الإيمان، فبعد كل صلاة ينطق لسانك بما في قلبك ويدك، لكن أعمالنا في واد، وألسنتنا في واد!.

ليست كلمات لفظية، قال تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾(البقرة/١٢٤).

هذه الكلمات كانت أعمالاً كُلّف بها الخليل ونجح، كلمات ليست كالكلمات..

والمتأمل في صفات المنافقين خصوصاً، وورثتهم من بني إسرائيل، يجد كم تكررت كلمة: قالوا وقالوا....

نعم، إنه إيمان قولي، كلماتٌ تجري على الألسنة، لا في الأفئدة، وقد ورث المسلمون هذه المآثم النفسية، فصرنا نكرر الأذكار والآيات، ورصيدنا من الأعمال صفرٌ وأفئدتنا هواء.

إن الكلمة مشروع استخلاف، فقد قال الله تعالى عن المسيح بن مريم عليه السلام أنه كلمة منه، إن الكلمة هنا نبيٌ من أولي العزم استعمر الأرض بالحق. إن الكلمة عملٌ، وقد ذم الله بني إسرائيل فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة/٤٤).

أمر قولي بالبر، وكفر عملي به!، إنهم لم يكونوا كلمات استخلاف، بل أقوالاً جوفاء فقط..

وانظر كيف انفصلت العلاقة بين القول العقيم من العمل وبين العقل، فالنقيض يعني أن العقل مرتبطٌ بالقول الذي يثمر العمل، لأنهم لو عقلوا لما أمروا الناس بالبر ونسوا أنفسهم!، فكلمة (تعقلون) في الآية تحث على استخدام السمع والأبصار والأفئدة في مهمة الاستخلاف، لأنها وسائل العقل الذي يجب أن يثمر الإيمان والعمل الصالح.

ونستطيع أن نلتمس هذه المعاني في حديث النبي عليه الصلاة والسلام لابن عباس، عندما قال له: يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك.

إن الحفظ:أن تحفظ حدود الله، وتفعل أوامره وتجتنب نواهيه. فلماذا لم يفهم المسلمون من حفظ القرآن هذا المعنى؟. الحفظ لدينا أن نستظهر الآيات فقط، ونرددها بالألسنة..

وهناك من يفخر بـ(حمل القرآن)، والحقيقة هو حمل مادي، لا حمل بالمعنى القرآني.

إن حمل القرآن يعني أن تعمل به، أما حملنا اليوم فهو الحمل الإسرائيلي، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(الجمعة/٥).

إن حفظ القرآن –كما يفهمه كثير من مسلمي اليوم – لم يحفظ الأمة من الانهيار، وعصر الختمات ختم على القلوب!، والعجيب أن القرآن ذاته لم يأتِ به أمر بالحفظ بل بالتدبر (ولو أتى سيكون بالمعنى الإيجابي بلا شك). لقد علِم الله تعالى أن هذا الأمر سيكون فتنة لأولي العمى يتمسكون به، ومع ذلك انحرف المسلمون في مفهوم الحفظ!.

ثانياً- دعوات ثلاث:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(البقرة/١٢٧)

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة/١٢٨).

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾. (البقرة/١٢٩)

إن هذه الآيات الثلاث جامعة لنهج الأمة المسلمة كما خطه أبواها، ففيها جوامع الأمر كله..

ولقد ورد كل من السميع العليم، والتواب الرحيم، والعزيز الحكيم، في كثير من آيات البقرة وقد ناقشناها في أكثر مناسبة.

١- ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(البقرة/١٢٧)

إن سلاح الأمة الأول هو الدعاء، والاستعانة بالله، والدعاء كما قلنا، قلبٌ يوجل، ويد تعمل.. وتأمل الآية وانظر، كيف أنه لم يقل: ويقولان: ربنا. بل جاءت كلمة: ربنا مباشرة بعد عمل رفع البيت، وكأن عملهما هو الذي يقول!، فحالهما هو الذي يقول قبل مقالهما.

ومن جهة أخرى، فالسميع العليم يسمع ويعلم كل ما تقول بلسانك وقلبك، ويدك، إن خيراً أو شراً، فهو ليس غافلاً عما تعمل.

٢- ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة/١٢٨).

إن التواب الرحيم يعلم أنك ستخطئ وتنسى وأنت تقوم بمهام الاستخلاف الكثيرة، لأنك بشر ضعيف، لذلك فبابه مفتوح لك دائماً، لتثيب وتنيب، وتصقل روحك من جديد بعد كل كبوة أو جفوة، أو صبوة، وهذه هي سمة الإنسان المستخلَف التي تميزه عن إبليس، إن أخطأ يتوب، كما علمه أبوه آدم، لا كما استكبر إبليس وأبى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة/٣٧).

فقلب المستخلف يثوب إلى ربه بسرعة إن أخطأ أو نسي، ويتوب ويدعو.. ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.. بينما الفاسد الظالم فقلبه قاس، شيمته التولي وهو معرض.

٣- ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(البقرة/١٢٩).

فهو الحكيم الذي يضع الأمور في مكانها، ولا يليق به عبث أو استهزاء، فأوامره وتشريعاته كلها حكيمة..إن اتبعت هداه، أصبحت عزيزاً، وإن توليت، فحذار من العزيز!، الذي لا يفلت أحدٌ من عقابه.. إن العزيز الحكيم يريد منك أن تأخذ الدين بقوة، وتعتز به، وألّا تقترح عليه، كما فعل بنو إسرائيل، واستهزؤوا بدينه.

ثالثا– عودٌ على بدء، التقوى و العلم، روح وجسد:

١– العلم:

إن لب القضية الإنسانية هو القدرة على الانتقال من معلوم إلى مجهول، أي قدرة على معرفة الغيب عن طريق العلم، في نطاق المحسوسات، وليس الغيب المتعلق بالخبر الصادق أو الوحي. ونرى أن الأول كسبي، والثاني لا سبيل إليه إلا باتصال مباشر مع الملأ الأعلى، والأول متعلق بالأرض بكل ما فيها من مخلوقات خلقها الله للإنسان، وهو ألصق بجسده وحواسه، لأنه يتعلق بالأرض التي يشترك معها بمادته، ويعرف كيف يحاورها بحواسه دون حيرة، أما الثاني فهو ألصق بروحه، بحقيقته العليا، ولذا فالوحي روح!، والسلوك الاستخلافي هو الذي يزاوج بين هاتين الحقيقتين، أن تنفخ في نشاطك المسخّر للأرض روحَ الوحي أو التقوى أو تعليمات القرآن، هذه هي المعادلة الاستخلافية الدقيقة، وسنفصل قليلاً في هذا المعنى في بيان آتٍ.

إن هذا الانتقال من معلوم إلى مجهول، والقدرة على الغوص في حقائق الأرض، هو الذي ضمنه الله تعالى لآدم يومَ علّمه الأسماء كلها، وهو الشهادة التي تثبت جدارته بالاستخلاف،لأن الملائكة ليس لديها القدرة على أن تعلم من غيب السموات والأرض فعلمها توقيفي محدود، ويبدو أنهم أدركوا تفوق آدم لما علمّهم جزءا من ذلك الغيب،

فهل التقديس بحمد الله والتقديس له (أي الاستخلاف) مرهون بقدرة آدم على الإبداع في علم الأسماء، أي في زيادة مساحة معرفته بالغيب و ردم الفجوة العقلية الكاذبة بين العلم و الإيمان؟. لا شك في ذلك فالله تعالى يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت/٥٣). وسيرنا الله تعالى ذلك باستخدامنا لعقلنا، وهذا مشاهد اليوم بوضوح.

إن الغيب الذي يكشف سدله العلم هو الذي سيتصل مع الغيب الذي أتى به الوحي. وقد يقول قائل: لماذا لم تصل أمم الحضارة الحديثة إلى الله لما أبدعت في علوم الكون؟. وأقول أن كثيرا من العلماء آمنوا لما رأوه من بديع السموات والأرض، لكن الأمر لن يكتمل بلا غيب الوحي، الذي غيّبته أمة لم تبدع في علوم الكون، فضيّعت هداياته على العالمين.

ثم إن الله تعالى قال عن نفسه: إني أعلم ما لا تعلمون، وقال: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات و الأرض، وقالت له ملائكته: إنك أنت العليم الحكيم، فلا بد للخليفة المجعول في الأرض أن يقبس من نور هذه الصفات الإلهية، و يعمل بها، لا بد أن يخترق سدف الغيوب بالعلم والبحث ويخطط بالحكمة ليضمن حياة الإيمان للناس، لا حياة الفساد.

إن الله تعالى يعلن للملائكة أن هذا الخليفة مزود بقدرة على تعلم ما لا يعلمون، بقدرة على الوصول إلى غيب السموات و الأرض، فكأن جوابه لهم (إني أعلم ما لا تعلمون) يعني (إنه-أي آدم-يعلم ما لا تعلمون). وهذه القدرة هي التي يجب أن تصون الأرض من الفساد ومن سفك الدماء، وغيب السموات والأرض لن يُتوصل إليه إلا بالعقل الذي يعقل الوحي فيتبع هدى النبي، والذي يعقل آيات الكون من خلال العلم والبحث العلمي، فيكتشف غيبها ويجعل منه شهادة على تقواه واستخلافه.

لقد كان النفط غيبا فصار شهادة، لكن الأشرار انحرفوا به عن التسبيح بحمد الله والتقديس له، انحرفوا به إلى الفساد في الأرض وسفك الدماء، لأنهم استدبروا غيبا آخر أتى به الوحي..فما بال الذين يزعمون أنهم يتبعون غيب الوحي قد استدبروا الغيب الذي يأتي به العلم؟!، ولماذا لم يكونوا أسرع إليه من المفسدين ليمنعوا فسادهم؟. أليس من المحزن أن غير المؤمنين هم الذين برعوا في علوم البحث العلمي والإدارة والتخطيط لعشرات السنين لما سيأتي من غيب!؟..أين اختفت هذه الميزة عند من استخلفهم الله؟

<u>علّمه الأسماء كلها = علّمه ما لم يعلم بالقلم: آتية في سياق الاستخلاف فهي نبأ عظيم: انبئوني</u>

فآية ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ هي التي تفصل الجنس الإنساني عما سواه من المخلوقات، إننا الآن نحدُّ ماهية (حقيقة) الإنسان بقول أرسطو أنه (حيوان ناطق)، وما يهمنا هنا (الناطقية) التي تعني (القدرة على إدراك الكليات) والناطقية منطقياً هي (فصل) الإنسان أي هي التي تفصله أو تميزه عن غيره من الأجناس..

وأرى أن هذا التعريف من أجمل التفاسير لآية ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ التي بيّنت من هو الخليفة المجعول في هذه الأرض من بين كل المخلوقات، وما هو العلم الذي تلقاه ليكون كذلك، فلا شك- إذن- أن علم الأسماء هو قدرة على إدراك الكليات، وقدرة على اكتشاف العلاقات التي تربط بينها، والقوانين التي تحكمها في الكون، ومن هنا ينطلق أساس كل العلوم التي ابتدعها الإنسان من استقراء الجزئيات أو المصاديق..

لأن إدراك الكليات لابد أن يمر بإدراك الجزئيات بتمييزها عما سواها (تقليمها)، ويعني ذلك بداهة إدراك صفاتها وخصائصها (قدرة الملاحظة) ثم مقارنتها مع غيرها لإدراك وجه التشابه والاختلاف (قدرة مقارنة)، ثم ضمها مع بعضها البعض (قدرة تصنيف) في مفاهيم كلية ذوات أسماء، ونرى بهذا، أن المفهوم الكلي يدل على تعلم الجزئيّ دلالة تضمين، ويلخص كل خصائص الجزئيات وصفاتها عن طريق إدراك

الأمور الأساسية أو الجوهرية التي تجمعها، والمفهوم الكلي تصور ذهني لن نستطيع أن نتعامل معه لولا وجود التسمية أو اللغة، فالتسمية مرحلة جوهرية في هذه العملية الإدراكية التمييزية، فهي الوسيط المادي الذي يحمل تلك التصورات الذهنية الأولى لمفردات الكون، التي تُختزل في مفهوم كلي جامع يلخصها كلها، ويسهل التعامل معها مشكلاً اللبنة الأساسية التي تقوم عليها العلوم.

وكلمة (كلها) لغوياً تفيد الإحاطة والشمول، ولا أستطيع أن أفهمها إلا قدرة على الإحاطة بالمسمى كله، عن طريق إدراك صفاته أو خصائصه بحيث تكون كافية لفصله أو تمييزه عما سواه، أي أنه عندما علّمه الأسماء كلها، فقد علمه كل الأسماء التي توثق مسمى ما، خصائصه وصفاته، والقدرة على حدِّ ماهيته (حقيقته)، كما أن هذا يستلزم منح الإنسان استعداداً كامناً ودائماً لكشف حقائق كل مسمى يصادفه في هذا الكون بحيث يفصله عما سواه (تقليم)، ويكتشف القوانين التي تسلكه مع مثيلاته، فيبني عليها العلوم، ويسخر بها الكون.

وتأتي الأسماء هنا كالوسيلة لقراءة المسميات والتعامل معها، ونقلها من مرحلة العلق الموجودة عليها في الكون، إلى مراحل التخلق الأخرى، التي تحولها إلى شكل جديد يدفع عجلة الاستخلاف نحو الأمام، وذلك عند القراءة باسم الله الذي خلق، فالأسماء هي الواسطة التي

يوثق (يعقل) بها العقل المسميات، فينقلها من وجودها الحسي الخارجي إلى وجودها الذهني في مختبره، ليجري عليها عملياته المختلفة، ويتواصى بها مع أقرانه، مشكلين (واو الفاعل) في (وما يسطرون). فلا يمكن فصل المسميات عن أسمائها فالله تعالى قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ -أي المسميات-عَلَى الْمَلاَئِكَة﴾، ما إن تعلم الأسماء حتى أصبحت المسميات في متناول العقل!، فالأسماء هي الرحم الذي يصل الإنسان الخليفة بأرضه، لأنها رابط بين مسخَّر (الكون) ومسخِّر (الإنسان)، أي مستقطبة بين طرفين، أو منقسمة بين مكونين، وجود أحدهما سابق على الآخر، الأول هو الكون بما يحتويه من مسميات، والثاني هو العقل بما يحتويه من أسماء، فكأنها -أي الأسماء- الحبل السري الذي يربط الجنين بأمه!.

ولن تستطيع أن تسمي ما لم تستطع أن تفصل أو تقلم أو تميّز المسمى عما سواه، فأنت بالاسم توثقه أو تربطه أو تفصله، فالعلم بالأسماء يلزم منه معرفة ما، بالمسميات، ومهما كانت هذه المعرفة صغيرة أو بدائية فهي البوابة العريضة للإحاطة بها كلها، ثم تسخيرها.

فالكون كله وحدة متكاملة، لكن لا يمكن إدراكه إلا بالتقليم، أي تفكيكه أو تحليله بالتدرج إلى مسمياته الكثيرة، فتسميتها ثم إعادة تركيبها في كليات (مفاهيم وقوانين) تعين الإنسان على تنظيم

الوجود في ذهنه. إذن لقد استخدم آدم مهارات التساؤل والملاحظة والمقارنة والتصنيف والتفسير والتلخيص وإدراك العلاقات بين الأشياء، واستطاع أن يصنع المفاهيم كلها ويسميها، وأعانته قدرته على إدراك حقائق الأشياء على معرفة وظائفها، فتوظيفها وتصريفها في المجالات التي تجعلها فاعلة في تسخير الكون، وهذه هي ثمرة القلم التي تعني القدرة على إدراك فصل الأشياء، أي حقائقها أو ماهياتها التي تميزها عما سواها.

ونرى بذلك أن علم الأسماء يعني قدرة الإنسان على التعامل مع الكون، قدرة تحليل وتركيب، أو تفكيك وتجميع، أو استقراء وقياس، والتحليل والتركيب أو التجميع والتفكيك هي المرادفات الرائعة لعملية التقليم، وهي الحاضنة لكل المهارات الإنسانية، التي تبتدع العلوم.

٢- التقوى:

ونجد- من جهة أخرى - أن المفاهيم المجردة كالحق، والخير، والعدل، والأمانة، والصدق... التي تنتظم كلها تحت اسم التقوى ألهمت إلهاما لآدم، وكذلك أضدادها التي تنتظم تحت اسم الفجور: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(الشمس/٧-٨). وهذا ما يعنيه مفهوم الفطرة، بينما الأمور المتعلقة بالتسخير والعلم تعلمها آدم عن طريق تعلم الأسماء، ولن يتحقق الاستخلاف ما لم يقُد علم الأسماء إلى

تسخير الأرض باسم التقوى، أي أن تتنفس صفة العلم برئة التقوى، فلا استخلاف لحضارة ظالمة غاشمة، كالغرب اليوم، أو تتنفس صفة التقوى برئة العلم، فلا استخلاف لحضارة جاهلة، كالمسلمين اليوم.

وهل فُتن الناس إلا بهذا الانفصال بين التقوى والعلم؟، إن العلم جعل الناس يثقون بقيم الغرب لأن تفوقهم في تسخير الكون أعطى قيمهم بريقا ساحرا يخطف الأبصار مع أنها قيم بلا روح من التقوى، تغري بالتجبر و استضعاف الآخرين.

أليس في ذلك تفسير جليل لجواب الله تعالى على الملائكة بقوله: وعلم آدم الأسماء كلها، التي قالت أن هذا المخلوق سيفسد في الأرض وهم يسبحون بحمده ويقدسون له؟!، إن هذا يدل على أن العلم – الذي سبيله تعليم الأسماء- هو الضمان الوحيد لحماية التقوى وقيمها الكثيرة، من القيم الأخرى المضادة، فالعلم وتطبيقاته الكثيرة التي تضمن العزة والتمكين، هو البلاغ المبين الذي يحمي قيمك من التآكل والهوان، ويضمن لها السبق الحضاري، بل يوفر لها وسائل الحماية المادية إن أرادت حضارة أخرى أن تتجاوز التنافس الثقافي والقيمي، إلى الهيمنة المادية على أرضك ومصالحك.

فهل سنعي هذه الحقيقة الخطيرة، ويصبح التدين تفوقاً في علوم السموات والأرض؟.

وأحب أن أضيء هذه الفكرة بضوء قرآني، قبسته من هذه الآية: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾(البقرة/١٩٧)، لقد جاء في التفاسير أن أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس.

واختلفت التفاسير حول التقوى.. هل هي التقوى بمعنى زاد الآخرة أو اتقاء ذل السؤال وبذل ماء الوجه بالتزود بطعام السفر..

إن المعنى الذي تمتلئ به نفسي: أن اتخاذ الأسباب المادية هو السبيل إلى تحقيق التقوى المعنوية، أي زاد الآخرة، بمعنى إن تسخيرك للكون هو السبيل إلى إقامة التقوى، إلى التسبيح بحمد الله والتقديس له.

إن هذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء..﴾(البقرة/٣٠-٣١)

مثلما أن التزود بالطعام (وهو سبب مادي).. أدى إلى تحقق التقوى المعنوية، فكذلك تعليم الأسماء يجب أن ينعكس تقوى لله.

والتزود بالطعام هنا، يعني اتخاذ كل الأسباب المادية التي تضمن عزتك في سفرك على هذه الأرض فلا تحتاج إلى غيرك.. بكلام أدق: التزود هو تسخيرك لهذا الكون بما يحقق تقواك التي ستدخلك الجنة، وما سفر الحج إلا رمزية صغرى لسفرك في هذا الزمن الأرضي باتجاه الله تعالى وجنته.

تذكر أن الحاجة والضعف يهدران تقواك، ويجعلان قيمك مكشوفة مهانة لا تغري بالاتباع: (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وصفة كاملة، تلخص كل ما نحتاجه لنقيم حضارة الإيمان والقرآن، فحذار من لصوص الدين ومفاهيمه الكلية الكبرى، المبعضين المولعين بجعلها عضين، إنهم حفدة بني إسرائيل الجدد لكنهم لا يعلمون!.

إن تعليم الأسماء التي سخر بها آدم الأرض، هي الضمانة الحاسمة لمنع الفساد في الأرض ومنع سفك الدماء والتسبيح بحمد الله والتقديس له، لا طريق آخر للتقوى إلا من هنا، وأي تقوى لا يستلهم أهلها ودعاتها هذه المعاني، فهي تقوى العجزة، فاللهم إنّا نعوذ بك من جلد الفاجر، وعجز الثقة!.

إن الإنسان ذو طبيعة مزدوجة من روح وجسد، ومناط تكليفه أن يرتقي إلى خصائص روحه العلوي الطهور بجسد من طين الأرض، وكلما انحاز إلى شقه العلوي فهو على الهدى، لكن هذا الاختبار لن يكون إلا عن طريق الجسد، وإلا فلا فضل له، فكثيرٌ من مراقي الروح يكون برفع الفقر والظلم والجوع والجهل عن أجساد الآخرين!، ويكون باستعمار الأرض، وبناء العمران الذي يذلل الحياة للناس، ويضمن لهم حياة طيبة تؤمن حاجات أجسادهم بهيمنة من الروح. فالتقوى وما تتضمنه من أسماء كثيرة، كالخير والصدق والأمانة والشرف والعدل لا

وجود مستقل لها في الواقع أو الخارج، ولكنها من أمر الروح، وكالروح لابد أن تتجسد في شيء مادي، فهي تظهر في سلوكات بشرية مادية، فالخير مثلاً أن تتصدق بمال على فقير، والعدل أن يأخذ كل أحد حقه، ويؤدي ما عليه، لذا فهي تتوافق مع طبيعة روحها من حيث أنها لا تُدرك أو لا تدرك أثارها إلا بسلوكات مادية محسوسة.

إن كثيراً من الأمم استطاعت تسخير الأرض، واكتشاف ثرواتها، وإبداع المخترعات الكثيرة، والبعد الروحي وحده هو الذي يعطي هذه الوسائل الحيادية، دورَها المفسد أو المصلح، فالسلاح في يد المؤمن، ليس كالسلاح في يد الكافر، مع أنه هو ذاته في يد الاثنين، لكن اليد التي تحمله هي التي تجعله يؤمن أو يكفر.

وإنها لعلاقة عجيبة جميلة بين الروح والجسد، كيف يتوهج الغيبي عن طريق المحسوس، كيف تشرق الروح، عندما تبر بالأجساد المتعبة، وكأن الغيبي في يدك، مع أنه ليس في يدك!.

وتجد على الضفة الأخرى، أن عطالة الجسد، بما فيه من عقل وجوارح، تنعكس على الروح فيخبو وهجها، ثم يخرج عليك لسانُ ديني، يقلل من شأن العلوم التي تضمن تفعيل هذا الجسد!، كيف تصفو روحُ جسدٍ عاطل خامل؟.

إن أدبيات الإسلام كلها في الإيمانيات والأخلاقيات والعبادات، ليست إلا ضمانة لعمل هذا الجسد في الأرض دون فساد، ما هي إلا قنوات تربطه بالغيب، بأمر ربه، بروحه، ليبقى على طريق الرشد فلا يضل أو ينسى، لكن العقول البليدة أفهمت الناس أن الدين حركة جسد في بعض العبادات، وكأنها غاية لا وسيلة!، ولتذهب الأرض إلى جحيم شعوب أخرى لا تعرف الله، فتهيمن عليها، وتضطر الناس كلهم إلى حياة مادية بلا ذاكرة من روح الله!.

إن تلك النفخة الروحية جعلت ذلك الإنسان خلقاً آخر يقبس من صفات الخالق من سمع وبصر، وخلق، وإرادة، وعلم.. ما يجعله متصرفاً في هذا الكون، وكأنه يضيف على هذا الكون ما بدأته القدرة الإلهية، ومن هنا تأتي عظمة هذا المخلوق الذي سجدت له الملائكة، وما إرسال الرسل إلا لاستحياء منابع الفطرة في الإنسان، وإزالة أدران الأرض عن نسبه السماوي ليسبح بحمد الله ويقدس له.

رابعاً- **التقوى والعلم: آية وحديث:**

آية وحديث، المشترك بينهما: زلزلة الساعة، الأولى تأمر بتقوى الله، إي إن نسبها يتصل بعالم الغيب، والثاني يأمر بعمل دنيوي يقوم على علم كونيّ، أي أن نسبه يتصل بعالم الشهادة. والنتيجة: اتحاد العبادات التوقيفية والأعمال الدنيوية في تحقيق التقوى وعمارة الأرض.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾. (سورة الحج/١-٢) وقال رسوله ﷺ: (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل).

لا شيء يقيك زلزلة الساعة، والعذاب الشديد كغرس الفسائل. لماذا لم يقل إن قامت الساعة وكان أحدكم يصلي فإن استطاع أن لا يقوم حتى يتم صلاته فليفعل. لماذا لم يضرب المثل بأي شيء تعبدي جليل من عبادات الإسلام؟. لماذا كان المثل بعملٍ يبدو من ظاهره أنه شأن دنيوي، غرس نخلة صغيرة، لماذا، ولماذا؟.

لكن لا. إنك يوم تتبوَّأ مقعدك للاستخلاف، ستكون كل أعمالك عبادات، ولن تكون التقوى حينها بلا غرس الفسائل، ولن تستطيع أن تتقي الله حق تقواه ما لم تعمل على عمارة الأرض، والعمل والإنتاج. هل أحتاج أن أبيّن أن غرس الفسائل فيه رمزية لكل عمل يستثمر إمكانيات الإنسان في أي علم من علوم الكون؟، وعندما تمتلك العلم والمعارف الكثيرة، ستمتلك كل أعنة القوة، التي تعينك على تقوى الله في الأرض. ويجب أن نتذكر أن هذا العمل هو خير زاد للتقوى، لأنه سيكف يد أمتك عن سؤال الأمم فتتقي ذل المسألة، ويعينها على

منع الظالمين والطغاة المتجبرين عن ظلمهم وفسادهم، فالتقوى ليست شأنا شخصيا، بل تتصل بعملك الذي يتعلق بمجتمعك، وبعمل أمتك الجماعي الذي يتعلق ببقية الأمم، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، وجهادا للظالمين. لكن الأمة التي شرفها الله بهذه المهمة الجليلة، نسيت مهمتها وجعلها ضعفها نهبا لكل لص.

إن هذا الحديث يفجر الرأس بالأفكار، والقلوب بالأمل، والأيدي بالعمل، إنه زلزال كزلزلة الساعة لمن تأمله وتدبره، سأسميه حديث الأمل والعمل. إن سياقه يوحي لك بشيء عميق، تأمل هذه الجملة: إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة.. إن الساعة تقوم، ويدك ممتلئة بغرسة، وأنت منكبٌ على معالجتها، أي إنها قامت حال كونك في عمل، أنت تغرس وتغرس.. ويا ليته كان عملا بسيطا، إن غارسه يجب أن يكون صبوراً وذا معرفة جيدة بنوع غرسته التي سيغرسها، وبنوع التربة التي ستحتضنها، وبنوع المناخ الذي يلائمها، والنبي عليه الصلاة السلام يأمره أن يتمه رغم صعوبة الظرف!، فكم منا يا ترى من ترك عمله بلا إتمام لحدث قد يكون تافها ناهيك عن حدث جليل كقيام الساعة؟. إن من شيمته غرس الفسائل أي الأهداف الباسقة، لن يترك عمله مهما كانت الأوضاع، فإن كنت طبيبا وقامت الساعة وبين يديك مريض، فإن استطعت إلا تقوم حتى تعالجه فلتفعل، وإن

كنت مهندسا وبين يديك بناء فإن استطعت ألا تقوم حتى ترفع قواعده فلتفعل، وإن كنتِ أما تبني طفلها فافعلي، يجب أن ندرك أن هذا الحديث، يخص الأعمال التي لا تأتي ثمارها بسرعة، لأنها أعمال كبيرة، أعمال تهدف إلى التنمية الحضارية التي يمتد خيرها إلى كثير من الناس،كفسيلة الغارس هنا التي تحتاج سنوات لتثمر. لكنه حديث يستوعب -بلا شك- كل أعمال الخير مهما صغرت، لمن عظمت نيته!.

لا شيء أدهى وأمرّ من الساعة، فإذا كنت مأمورا بإتمام العمل فيها، فإن إتمامك له في ظرف أقل جسامة، سيكون أَولى وأَولى، فما هو نصيب اليائسين والمحبطين من نبيهم؟!. هذه هي حال الإنسان المستخلف، إنه في عمل دائم دائب من أعمال الاستخلاف، أو عمارة الأرض وبنائها حتى وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة!.

خامساً- لا خليفة بلا تقوى كاملة:

١-مدخل:

لقد جعل الله تعالى الإنسان خليفة في الأرض، و أمره أن يعبده لعله يتقي، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة/٢١)، فالعلاقة بين العبادة والتقوى كعلاقة الظل بصاحبه لا يفترقان، فأي عبادة لا تثمر التقوى فهي عبادة عقيمة،

رسم بلا روح، وأرى أن مفهوم التقوى ناله من التشويه والاختزال ما ناله في الوعي المسلم، وما ذاك إلا انعكاس لتشويه واختزال آخر نال مفهوم العبادة نفسها. فما الظل إلا انعكاس لهيئة صاحبه، ويوم تعبد الله حق عبادته، فأنت الخليفة حقا، الذي أراده الله، ليمنع الفساد وسفك الدماء ويقيم العدل مقلما أظافر الظلم.

فما هي التقوى التي تمنع الفساد وسفك الدماء، التي إن تحققت صحت عبادتنا؟، وما هي وسائلها؟. وليعذرني القارئ إذا أعدت على بصره بعض الأفكار، لكنني أريد أن أبحر في هذه الأفكار مرة أخرى من نافذة جديدة، هي نافذة سورة الأنفال، لأنها تعرض القوانين التي تحكم النصر الإلهي، بعرضها المراحل الثلاث من التقوى، في مثال تطبيقي هو معركة بدر. وكم يحتاج الخليفة أن يفهم هذه المراحل، ليرهب الظالمين ويمنع فتنتهم وفسادهم في الأرض.

إن تشوه مفهوم التقوى في وعينا يقابله تشوه مفهوم آخر يتصل به ويؤثر فيه، هو مفهوم الفتنة التي وردت في سورة الأنفال أربع مرات، وهي الفتنة التي تؤدي إلى الفساد، وتمنحه المناخ الخصب للانتشار، وسنرى أن التقوى الحقة هي العلاج الناجع للفتن، لكنها التقوى الإيجابية التي تتقي الفتن بمنعها أو علاجها لا أن تعتزلها.

وأيُّ دينٍ هذا الذي يقصي المؤمنين من معركة الحق والباطل بذريعة التقوى ويترك الأمر للظالمين يعربدون ويفسدون كما يشاؤون؟!.

٢–أنواع التقوى والفتنة:

إن العنوان العريض هو التقوى، تقوى الله تعالى، بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، إن طاعته بتفضيل أجره على حطام الدنيا ستنتج التقوى الأولى، وطاعته بتوحيد الصف وإصلاح ذات البين ستنتج التقوى الثانية، وطاعته بإعداد القوة ستنتج التقوى الثالثة، ومع كل تقوى تولد، هناك فتنة تموت، والغاية النهائية من كل أولئك، هي تكوين الجماعة المتوحدة القوية التي تمنع الفتن والفساد في الأرض:

﴿وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾(الأنفال/٧٣)

إن الله تعالى يقول:(إلا تفعلوه) ونحن نصر على (اللافعل) على (اعتزال الفتنة!)، وأرى إن مفهوم (اعتزال الفتنة) هو الفتنة بعينه، وعصيان مباشر لله تعالى ورسوله ﷺ، إن الله تعالى أمر بمنع الفتنة وعلاجها إن وقعت، فمن أين جاء هذا المسخ الغريب مفهوم (اعتزال الفتنة)!؟، هذا مفهوم ميت، لا يعيش إلا في دنيا الفرعونية، لتحييد المؤمنين عن منع فتنة الظالمين.

إن تسمية السورة بالأنفال يعكس خطورة الفتنة الأولى وأهمية التقوى الأولى، لأنها الأساس الذي تقوم عليه لبنات التقوى الأُخر، وهذا الذي جعلني أضع الآية الأولى من سورة الأنفال مع كل نوع من أنواع التقوى

والفتنة كما سيأتي.. والأنفال هي الغنائم التي غنمها المسلمون في بدر، وكادت أن تمزق وحدتهم، وهي رمز لكل حطام دنيوي، قد يمتلئ به قلبك، فينسيك أجر الله العظيم، ومغفرته، ورزقه الكريم.

والملفت أن القرآن قال لهم أنها لله ورسوله، ثم أجابهم في الآية: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الأنفال/٤١)، ليعلمهم أن رسالة المؤمن لله، لمنع الفساد ونشر الخير والحنو على الضعفاء، وليست لتحقيق مكاسب مادية، ومن هذا شأنه يجب ألا تمنعه فتنة أخرى عن مهمته كالمال والولد والغنائم أو الأنفال، والمشترك بين الأنفال والمال والولد أنها كلها قد تعرقل عمل الجماعة المؤمنة وتشق صفها.

وسأوجز العناوين الرئيسة للتقوى والفتنة ثم أعرض بياني حولها، وهي كالتالي:

فتنة الأشياء كالأنفال والمال والولد، واتقاؤها بتفضيل أجر الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(الأنفال/١)

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(الأنفال/٢٨)

هنا خطاب عام للجميع.

فتنة التنازع والفرقة، واتقاؤها يكون بالتوحد:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(الأنفال/١)

﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الأنفال/٢٥)..هنا خطاب للجزء المتقي من المسلمين ليمنع فتنة الجزء الآخر الذي قد يضعفهم، فتشملهم الفتنة جميعا ويصبحون فريسة سهلة لأعدائهم.

فتنة الضعف، واتقاؤها يكون بإعداد القوة بكل أشكالها:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(الأنفال/١)

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(الأنفال/٣٩)

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾(الأنفال/٦٠)

٣–تفاصيل:

تبدأ سورة الأنفال بسؤال المؤمنين حول الغنائم التي أوشكت أن تفرق جمعهم وتخالف بين قلوبهم، لكن الجواب يأتي في سياق آخر تماما!، محذرا من حطام الدنيا الذي يفرق الجماعة المتقية، ويمنح الفراغ الملائم لانتشار الفساد: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(الأنفال/١)..اتقوا هذا الحطام قبل أن يفرقكم، هذه هي التقوى في سورة الأنفال، التقوى التي تمنع الفرقة، ثم تكمل الآيات طريقها في عرض الصفات التي تحقق هذه المرحلة الأولى من التقوى، وهي صفات عنوانها العريض طاعة الله ورسوله:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

و لنسمِّ هذه المرحلة من التقوى بالتقوى الذاتية، أو الفردية التي تتخلق في حجرات النفس، لتلد مرحلة التقوى الثانية، وهي التقوى التي تتقي الفرقة فتوحد المؤمنين أي تقوى ضمن الجماعة المؤمنة. فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ..التي قد يمزقها حطام الدنيا من غنائم أو أنفال وما سوى ذلك من أموال وأولاد ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ

﴿وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(الأنفال/٢٨)، وهذه هي الفتنة بمستواها الأول التي تقابل المستوى الأول من التقوى، والتي تثبتُ أن في قلب المؤمن ندا من دون الله، لذا فلم يأبه لوحدة الصف، وإنما إيمانه إيمان صوري لا واقع له، فشتان بين المؤمنين والمؤمنين حقا، فما هو الحق هنا؟: قال تعالى في سورة يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّا...﴾(يوسف/١٠٠)

إذن الحق هو تحول القول أو الرؤيا أو الأمر النظري إلى عمل، إلى واقع تمتلئ به الحواس والدنيا، لقد كانت رؤياه شمسا وقمرا يسجدان له، فأصبحت واقعا تمتلئ به عيناه ويداه..المؤمنون (حقا) هم الذين يطيعون الله ويتبعون رسوله، فيتحول إيمانهم إلى عمل، فكان من المناسب أن تذكّر السورة بطاعة الله ورسوله في مواضع عدة: :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(الأنفال/١)..﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾(الأنفال/٢٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(الأنفال/٢٤) ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(الأنفال/٤٦).

ثم تأتي آية مفصلية بعد الأمر بالاستجابة لله وللرسول ﷺ: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الأنفال/٢٥)

إنه تحذير أصرح من فتنة التفرق (الفتنة بمستواها الثاني التي تقابل التقوى بمستواها الثاني)، ولن تعفيك تقواك الفردية من السعي إلى عمل جماعي تتآلف فيه القلوب، وتجتمع عليه الأيدي، لكن الآية صريحة أنه سيوجد في المجتمع المؤمن، من سيظلم ويحاول أن يشق الصف، فهنا يبين الله تعالى أن المسؤولية على الجماعة المؤمنة التي ارتفعت فوق أهوائها، عليها أن تنصح الظالم منها فلعله يفيء إلى أمر الله، أو تكبح يديه إن أبى، لأنه سيخلق فتنة تضعف الجماعة فتنكص عن مهمتها الجليلة في منع الفساد في الأرض.

إن من يوجل من آيات ربه ويفور الإيمان في قلبه، ويقيم صلاته، لا بد أن ينعكس إيمانه حقا واقعا، فينفق من قلبه ويده ويتآلف مع أخوته صفا واحدا، ويتقي ذات البين، ليكوّنوا جميعا الجماعة المؤمنة المتقية التي تقارع الطغيان، وما إن تتحقق التقوى بمعناها الفردي والجماعي(الوحدة)، حتى تصبح الجماعة مستعدة لمنع الفساد في الأرض، أي إن الحديث عن الخروج إلى المعركة سبقه كلام عن تقوى الله بإصلاح ذات البين وطاعة الله ونبيه، وإقامة الصلاة، والإنفاق

مما رزق الله، أي جماعة موحدة تنفق مما رزقها الله للإعداد لمواجهة لا بد منها مع أعداء الله. لذا تتحدث الآيات بعد ذلك فورا عن قتال المشركين في بدر، وهي التقوى على المستوى العالمي، التي تمنع فساد الظالمين في الأرض،﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾(الأنفال/٥)..إنه الخروج لمنع الفساد في الأرض، ومنع فتنة أخرى أعظم وأكبر لأنها ستعم العالم كله: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(الأنفال/٣٩)، يوم خرجوا لقتال قريش.

وقد رأينا أن الغنائم والأنفال والأموال والأولاد هي الفتنة التي تعيق التقوى الفردية فتنعكس شرا وفرقة (الفتنة بمستواها الثاني) على التقوى الجماعية ضمن الجماعة المسلمة نفسها، لأن هذا التزاحم على الحطام سيزرع التناحر بين القلوب.

ولنفرض أن الجماعة المؤمنة تجاوزت هذه العوائق وتآلفت أي الفتنة الأولى والفتنة الثانية، فما الذي يمنعها عن منع الفتنة الثالثة وهي فتنة الفساد العالمي؟ وقد أمر الله تعالى بمنعها بقوله:﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(الأنفال/٣٩). والجواب هو الضعف، فالضعف فتنة عظيمة تغري الظالمين بالتجبر وفتنة الناس، لذلك أمر الله تعالى بالإعداد: ﴿ وَأَعِدُّواْ

لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾(الأنفال/ ٦٠) وانظر كيف أن كلمة﴿ترهبون﴾ توحي بفعل القوة الوقائي، فأن تكون قويا يكفي لمنع الفساد!، لأن قوتك سترهب الظالمين وتكبح طغيانهم، أما ضعفك سيغريهم بالتطاول!.

وهذا ما استلهمه من هذه الآية من أمر فرعون وبني إسرائيل: ﴿ فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(يونس/٨٥). إن ضعفهم أغرى فرعون بفتنتهم والتجبر عليهم ففتنوه وملئه، ثم فتنهم، وإلا فلماذا يخاف القوي؟، إن بني إسرائيل كانوا قلة، شعبا ضعيفا تحت سلطة استبدادية قاهرة: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾(يونس/٨٣-٨٤)، بالله ماذا ستكون الفتنة هنا، إن لم تكن كبت الإيمان والبطش بأهله؟!، فلو كانوا أقوياء لأرهبوه فمنعوا فتنته لهم ألا يغريه ضعفهم بالتجبر عليهم، فيفتنهم عن دينهم، أين القوة التي تتقي فتنته فتخفض علوه، وتكفكف إسرافه، وتطمس على أنفه وفيه بالتراب؟.

ولقد استحضرت هذه الآيات من سورة يونس لأن الله تعالى يشبّه طغيان قريش في سورة الأنفال بطغيان فرعون: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الأنفال/٥٠-٥٢).

إن سنة الظالمين واحدة إلى يوم القيامة، وسيظل ضعف المؤمنين وعجزهم وتفرقهم هو السبب الفذ لطغيان الفساد وانتشار فتنته، وإنها لفتنة كبرى أن يكون الدين بقعة بشرية على هامش العالم والمجتمعات لأن أصحابه المؤمنين ضعفاء متفرقين يعيشون على فتات الحياة، بلا حول أو قوة. .

وأول القوة أن يكون المؤمنون صفا واحدا كالبيان المرصوص، ثم الاستعانة بكل الوسائل المادية والمعنوية التي ترهب الظلم وتقلم أظافره، إن القوة تعاون الجماعة المتقية على منع فتنة الذين ظلموا، وهذا التوحد والتعاون هو الذي يحقق قوتها فترهب أعداء الله وأعداءها، وإلا فلن يكون لرباط الخيل أي قيمة ما لم يجد قلوبا مترابطة تحسن الاستفادة منه.

ولقد أصبح رباط الخيل اليوم طائرات ومدرعات وبوارج وحاملات طائرات ودبابات وغواصات، وجامعات ومؤسسات بحثية ومدارس وروضات وأنظمة تعليم حديثة تعد أقوى العقول للاستفادة من الكون، لقد أصبح علوما مخيفة انتظمت كل ما في الأرض والسماء من آيات، فأين المؤمنون حقا ليعدوا هذه العدة التي تتحدى استطاعتهم؟.

والجواب: لقد ضاعوا والأسباب كثيرة، يحمل جزءا من وزرها عقولٌ دينية تنفخ في قلوب المسلمين منذ قرون عدة: أن التقوى بضعة طقوس لا تتجاوز بعض العبادات والسنن والفعاليات الاجتماعية، لقد فصلوا التقوى عن روح العزة والتمكين، لقد انحسرت حتى أصبحت مفهوما كنسيا بين العبد وربه يتقي به بعض الذنوب ولا يتجاوز تراقيه، أما مفهوم الفتنة فأصبح مخدرا رائعا ينأى بالمسلم إلى أقاصي جبال العزلة والسلبية!. وشعاره: إن الفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها، والحق أن المسلم نائم، ورحم الله من أيقظه!.

ثم تحذرنا سورة الأنفال من سنة خطيرة من سنن الفساد، وهي أن أهلها سيتوحدون، ويعدون العدد لقيادة الأرض وفق سبلهم، صادين عن سبيل الله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾(الأنفال/٣٧) ﴿وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾(الأنفال/٧٣) فأي

فتنة أعظم من حق لا يجمع أصحابه ويصلح ذات بينهم، أمام باطل أهله متناصرون!.

وتضرب لنا سورة الأنفال المثل الأعلى في التقوى التي ترتب قلوب الجماعة المؤمنة وصفوفها، وهو المهاجرون والأنصار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ **إِلاَّ تَفْعَلُوهُ** تَكُن **فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ**﴾ (الأنفال/٧٢-٧٣).

إن في الآيات التالية وصفا دقيقا لخلق الجماعة التي تقيم التقوى: فئة تشبعت بمعاني التقوى التي ابتدأتها سورة الأنفال من طاعة الله ورسوله والإنفاق في سبيلهما، فأصبحت تبحث عن الجماعة التي تعينها، فهاجرت ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾، وفئة أخرى حققت أيضا التقوى، فآوت الجماعة الأولى ونصرتها ﴿وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾، فكان التوحد نتيجة طبيعية، بعد أن انخلعت كل نفس من أنداد الأرض وأعلنت ولاءها لله ورسوله وطاعتهما، وهذا التوحد هو المرحلة الثانية

من التقوى التي ستؤهل المؤمنين لمقارعة الفساد العالمي، الذي يعمل جماعات أيضا: ﴿وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾، ثم تأتي جملة مثيرة حقا: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾..

فما هو الأمر الخطير الذي إذا لم تفعله انتشر الفساد في الأرض وسقطت الأمة عن مترتبة الخليفة الذي تخوفت الملائكة من فساده وسفكه الدماء؟.

ما هو هذا الأمر الذي سيجعل كل تقوى سخافات لا وزن لها ما لم تمنع الفتنة والفساد في الأرض؟..

لا أظن الجواب صعبا، إنه محور هذه السورة العظيمة، إنه الوحدة ونبذ الفرقة، وإصلاح ذات البين، الذي يبدأ بثلاث مراحل من تقوى على مستوى النفس تلد تقوى ثانية على مستوى الجماعة المسلمة، تلد تقوى ثالثة على مستوى العالم كله، إنها التقوى التي تثمر العمل الجماعي: إي إن لم تتحدوا وتقاتلوا صفا واحدا سيكون ذلك سببا لانتشار الفساد في الأرض.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(الأنفال/٣٩).

من الواضح أن الفتنة ستكون بتبعيض الدين فالفساد إن لم يلغ الدين كله، فسيرضى بوجود دين لكن ليس كله لله، سيرضى بأجزاء

من الدين لا تقلق حياته، إنها بضعة رسوم يقنع بها المؤمنون، ويقنعون أنفسهم أن تقوى الله أن يزهدوا في هذه الحياة، ولتكن الدنيا لغيرهم!.

أما الأجزاء الأخطر من الدين فسيفتن الناس فيها، إما بإلغائها والفتك بأهلها، أو تحويلها قشورا خاوية يأنس بشكلها دراويش التقوى، وما حقيقتها إلا خدمة للظالمين، وهذا ما أفهمه من قوله تعالى في موضعين من البقرة (والفتنة أشد من القتل)،(والفتنة أكبر من القتل):

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(البقرة/١٩١-١٩٣).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(الأنفال/٢١٧)

وقتال المفسدين في الأرض الذين لن يتركوننا وشأننا ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾ يحتاج أن نعد ما نستطيع: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ لنبطل (استطاعتهم) في ردنا عن ديننا، ولن يكون هذا بلا وحدة القلوب والأيدي والإعداد،لاتقاء سلسلة الفتن التي ذكرناها بما يقابلها من سلسة التقوى.

٤-أنتم أنتم كلماته:

و ثمة شيء آخر يتصل بمفاهيم التقوى والفتنة والنصر الإلهي، شيء يتعامل معه المسلمون تعاملا خرافيا لا علاقة له بقرآن أو بواقع، ولا ينفصل عن أزمة الفهم والعمل، لقد أشارت إليه سورة الأنفال أيضا في بدايتها، ثم ذكرته غيرة مرة في تضاعيفها: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(الأنفال/٢-٤).

ولنقف عند جملة ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ و﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً﴾: إذ تخاصم القوم كلٌّ يريد نصيبه، مذكرا ببذله في المعركة، وتأتي الآيات حاسمة أن هذه الأنفال ليست لكم، والتوكل يناقض قولكم، أنتم قاتلتم لكن من الذي أنجز هذا النصر -الذي كنتم أسبابه-؟ ومن توكل به؟.

إن التوكل هو شعورك الغامر أنك سبب بيد الله، يحق به الحق، يوم تتحقق أنت بكلمات القرآن، أليست هذه الصفات -التي ذكرتها سورة الأنفال- أليست كلمات قرآنية؟، لا شك في ذلك.. لكن عندما يتخلّق المؤمنون بها وتصير سيرة حياتهم، ويصيرون مؤمنين حقا، سيطلق لفظ (الكلمات) عليهم، سيصبحون هم كلمات الحق التي تضارع الكلمات القرآنية، لأن تواصيهم بالحق، يعني أنهم عملوا على تحويل الإيمان إلى حقائق، فأصبحوا نسخا متطابقة مع الكلمات القرآنية، وهذا لن يتحقق بلا عمل الجماعة، فتحولت كلمات القرآن بهم إلى واقع وتطبيقات عملية، فصاروا كلمات تمشي على الأرض، فاستحقوا أن يحق الله الحق بهم، ويقطع دابر الكافرين. ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾(الأنفال/٧-٨)..

إن إحقاق الحق لن يكون إلا بمؤمنين حقا.

وتأمل في هذه الآية جيدا: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(الأنفال/١٧)..يحزنني أننا لم نفهم من هذه الآية أننا (نحن) من سيقتل الله بنا الكافرين ويقطع دابرهم، نحن من سيرمي بنا أعداءه

وأعداءنا، هذه سنته في النصر، لقد رميت لكن الله رمى، ولقد قتلتهم ولكن الله قتلهم، فما الغرابة في ذلك؟!..

إن هذا هو عين التوكل الذي شددت عليه السورة غير مرة، الفعل لك وليس لك!، لأنك عندما تحقق مستويات التقوى كلها، ستصبح مؤمنا حقا، وتكون جنديا من جند الله المبثوثة في الكون، إنك ستتماهى مع قوى الكون المسيرة بأمر الله، كالنار والريح والماء والقوى الكثيرة في الكون، ليس لها من أمرها شيء، فالله خالقها ومجريها، وأنت منها، لكنه ابتلاك بالاختيار أن تتوكل عليه فتعمل له، أو تكفره، فهل تؤمن أن هذا الكون يتحرك وحده أم وراءه قوة مدبرة؟.

و إذا كان الله تعالى قد أيد موسى عليه الصلاة والسلام بقوة طبيعية كالبحر فقطع دابر فرعون ، فإنه أيد نبيه بالمؤمنين وقطع دابر قريش بهم: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنفال/٦٢) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنفال/٦٤)..وقف هنا: حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ..إن هذا الإتباع يعني أول ما يعني الوحدة مصداقا لهذه الآية: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(الأنفال/٤٦)..إن إتباع النبي وطاعته ستقي التنازع، وكذب وخسر كل من زعم أنه تابع لمحمد ﷺ ثم لا يعمل على رصِّ القلوب والأيدي!.

ثم يأتي التدخل الإلهي بعد أن يأخذ المؤمنون بأسباب القوة المعنوية والمادية في الوحدة والوسائل المادية الكثيرة،(القوة ورباط الخيل): ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(الأنفال/٩)..إن المدد يأتي زيادة على شيء آخر، أي إن المؤمنين بلغوا سقف الاستطاعة من العدة المادية والمعنوية فانطبقت عليهم سنة الله في الإمداد، و في تهيئة أسباب النصر الخارجة عن دائرة استطاعتهم. فاستحقوا أن يردف الله قوتهم المستطاعة بمدد من الملائكة، فهل ستظن أن الله سيمدك و أنت لم تتخذ أسباب النصر في الوحدة والقوة بجميع أشكالها؟..هيهات!، إن الله لا يصلح عمل المفسدين، لأن نكوصك عن مهمتك فساد ما بعده فساد﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾(الأنفال/٧٣).

و لا يشغبنَّ أحد علينا بهذه الآية: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال/٦٣)..ليخلي مسؤوليته من الإنفاق في سبيل تأليف القلوب، زاعما أن الله هو المؤلف بين القلوب، وهي كلمة حق، فالأمر كله بيد الله، لكن سنن الله اقتضت أن يعد البشر ثم يمدهم، وهذه الآية لن تخرج عن أخواتها اللواتي سبقنها، لترسيخ معنى التوكل وإفهام المؤمن الحق أنه هو السبب الذي يرمي الله به الله الباطل ويقطع دابر

الكافرين، وهو السبب الذي يجمّع الله به القلوب ويؤلف بينها، فهل يزعم زاعم أن النبي ﷺ لم ينفق في سبيل تأليف قلوب المؤمنين كالأوس والخزرج؟..هل سيتركهم لفرقتهم بذريعة أن الله من يؤلف بين القلوب، لا شك أن تقواه عليه الصلاة والسلام ستجعله يسعى لإصلاح ذات البين وتأليف القلوب، وهنا سيقول له البيان الإلهي لم تؤلف بين قلوبهم، إذ ألّفت، فالله ألف بين قلوبهم، كقوله تعالى:﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾(الأنفال/١٧).

فهل سنعي أن النصر مسؤوليتنا؟، و ألا نركن إلى فهم خرافي بذريعة الإيمان بالغيب!، إن الغيب أنزل إليك قرآنا فيه سنن النصر، و آخر ما أؤيد به هذه الفكرة، قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾(البقرة/٧٢-٧٣).

فعليكم النصر!، فلن تحدث معجزة لتنصرهم، لن يمدكم الله بالملائكة، قبل أن تمدوهم أنتم، هنا يتجلى معنى التقوى بالتكاتف ضد قوى الكفر المتعاضدة (بعضهم أولياء بعض)، والنصر لن يكون بلا

طاعة الله وتقواه باتقاء فتنة الدنيا من مال و وولد، ثم تشكيل مجتمع المؤمنين المتقي ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾، والأخذ على أيدي الظالمين من المسلمين الذين قد يشقون الصف، ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الأنفال/٢٥)، ثم الانتقال إلى حلقة التقوى الأوسع في العالم كله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(الأنفال/٣٩)، التي لن تكون بلا الإعداد الكامل للقوة: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ٦٠﴾(الأنفال/٦٠)

فهل سنذكر ونطيع الله ورسوله في سنن القوة والنصر؟ أم نخون كل ذلك؟، مهما كان أو يكن. أظن أننا نعيش نتيجة خيانتنا بجدارة بهذا الذل والخزي الذي ذقناه من أعدائنا مصداقا لهذا القانون القرآني: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ **فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ** وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال/٧١)، فكم خنّا الله تعالى ورسوله حتى أمكن منّا؟!.

٥–التقوى لبناء حضارة القرآن:

إن بناء حضارة القرآن سيمر حتما بحلقات التقوى التي ذكرناها، وكل حلقة تقوى تكتمل، تقابلها حلقة فتنة تندثر، وهذا ما حدث في المجتمع المكي الذي استحيي تقوى النفوس وزكاها (حلقة التقوى على مستوى النفس)، ثم في المجتمع المدني الذي بدأ عمليا بترسيخ تقوى الجماعة وتوحيدها (حلقة التقوى على مستوى الجماعة)، ثم تجاوز ذلك إلى التقوى العالمية في كبت قوى الطغيان في الأرض وقطع دابرها كفارس والروم.

ولما حصلت الانتكاسة الحضارية، فقد بدأت من البداية نفسها وسارت في الطريق نفسه، أي تراجعت التقوى في قلوب المؤمنين، وصاروا أشكالا لا وزن لها، متنازعين متكالبين على الأشياء، ففشلوا وذهبت ريحهم وأمكن الله منهم، فانحسر دور الأمة العالمي في منع الفساد، بل أصبحت من أسبابه المحزنة، فغرق العالم كله فيما نرى ونسمع اليوم، وتقول سورة الأنفال في ذلك: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(الأنفال/٥٣)، وكذلك كان!.

وتختم سورة الأنفال مشيرة إلى بداية الطريق الذي ذكرته في مطلعها، لتعيد تلك الجملة نفسها (المؤمنون حقا): ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ

وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(الأنفال/٧٤).

لن يجد الإيمان طريقه إلى الواقع ويصبح حقا يغير ما حوله، ما لم يؤمن الأفراد بعمل الجماعة وقوتها، فيهاجروا من أجل فكرتهم ويتجمعوا عليها، ويخدموها و يتناصروا من أجلها، ولن يكون هذا بلا الإعداد الذي يقوم على العلم في كل شيء، والقراءة في كل شيء، فقصة الخليفة بدأت بذكر تعليم آدم مفاتيح الكون، وآخر رسالة بدأت بأمر بالقراءة في كل شيء، فهذا هو طريق الإعداد الصحيح، في عالم تموج به شعوب امتلكت أعنة القوة التي تقوم على العلم والمعرفة في كل شيء، ولن يشفع لنا إدعاء ما لم نضارعهم فيما وصلوا إليه بل نسبقهم لنكون خلائف في الأرض، وليست قاعدة حتمية أن تكون المعارك بالسلاح، فالاقتصاد القوي والجامعات القوية وأنظمة السياسة والتعليم والعمران والتقنية، لها اليوم فتك السلاح، ستجعل عدوك يحترمك، وترهبه قبل أن يفكر بمد طغيانه، فدول اليوم تحقق مبادئها ومصالحها بما لديها من ثقل علمي واقتصادي وثقافي، ووراء كل ذلك قوة عسكرية جبارة، يكفي وجودها عن فعلها!.

بين يدي الخاتمة

أنهيت هذه الكلمات وبلدي لا يزال يُسام سوء العذاب، يذبح أبناؤه وتستحيي نساؤه.

فمن الملام؟، إني استعرضت سورة البقرة آية آية، فلم أجد لوما أو عتابا لفرعون على فساده، لقد جاء ذكره عارضا في سورة الاستخلاف!، وإنما وجدت أمراض شعبٍ لم يتبع سنن التمكين، شعبٍ يلبس مسوح الوحي، على حقائق من الطين، شعبٍ زيف دينه، فأخذ منه فخرا فارغا، وحقيقته عمل للتراب وما تحت التراب.

إن حديث البقرة عنه –الذي تجاهل دور فرعون المفسد– يعني أنه هو المسؤول عن انتشار الفساد والمفسدين، فكيف إذا صار جزءا من المنظومة المفسدة؟!، إن ذلك الشعب المريض إن لم يصنع فراعينه، فإنه يتيح الفضاء لهم، ويمنحهم البيئة المناسبة لينموا ويتكاثروا، لأن أمراضه وسلبيته لن تعينه على اتقاء فتنتهم بالعمل على قيادة الحياة وكبتهم في أضيق زواياها.

ووجدت صفاتٍ أخرى أراد الله المتقين بها، لم يخاطب الكافرين والمنافقين، بل خاطب المتقين المؤمنين..يا أيها الذين آمنوا....يا أيها الذين آمنوا...يا أيها الذين آمنوا..ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، وليس للفراعين أو الكافرين أو المنافقين... فمن هم المتقون؟.

ارجع إلى مفاهيم التقوى الثلاثة التي طال بياننا حولها، لتعلم أن التقوى رؤية للعالم كله، تجمع العلم بالكون وبالوحي، وتبدأ بأحوال قلبك وعمل يديك، وتنتهي بتشكيل المجتمع الذي يأخذ بكل أسباب القوة المادية والأدبية ليمنع فتنة الذين ظلموا ويحفظ الأرض من الفساد. وأي تقوى لا تجعل هدفها اتقاء الله بإصلاح ذات البين وتأليف القلوب والأيدي في عمل جماعي يعد كل قوة في فجاج الأرض والسماء، ليست من التقوى في شيء.

وها نحن كلنا نحصد تلك الثمار المرة من فتنة أصابتنا كلنا لأننا لم نتقها، فتنة الذين ظلموا منا وفتنة أهل الفساد في الأرض، وما ذاك إلا لغياب المتقين الأذكياء الذي يعدون العدة الكاملة، التي تمنع هذه الفتن قبل وقوعها، أو تردعها إن وقعت، وتغلب أهل الفساد المتكاتفين، فلا يتذرعنّ بالأقدار من أخذ بأقدر التنازع والضعف، فالقرآن بين ظهرانينا، وتكفينا سورة الأنفال وحدها﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾(الأنفال/٧٣). فلنعمل على غرس فسيلة التقوى من جديد و نتعهدها حتى تظل العالمين..

الخاتمة

يشير الواقع والإحصاءات إلى أن المسلمين– في هذا العصر– أقل الشعوب مساهمةً في العلم، ورحم المسلم بالكتاب مقطوعة ممنوعة، ثم هو – من بعد ذلك – يفخر بقرآن أول كلمة منه (اقرأ)!. ويفخر بنبيٍّ يأمره بالقراءة.

وماذا أقرأ؟...

إن القراءة منهج عقل ذكي، وقلب تقي، يكتشفان مغاليق الأنفس والآفاق باسم الله، ليقيما حضارة القرآن والإيمان، ويصنعا من الكتاب العدة التي تحمي القلوب من الباطل، ومن الحديد العدة التي تحمي حدود دولة الإيمان:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحديد/٢٥).

لقد أنزل الكتاب، وأنزل الحديد، فتفاعلك مع الكتاب بقوة، لابد أن يفضي إلى تفاعلك مع الحديد لأنه سياج الإيمان، فهل ستحمي

القسط الذي ستقوم به عن طريق الكتاب، هل ستحميه بالخطب والشتائم والدعاوى العريضة المريضة؟!.

ما أعجز الإيمان إذا كان بلا مخالب في غابات يعلو فيها زئير الوحوش!.

لذا لا تفرح ببضع صلوات وصدقات، وصيام، وأذكار، ثم تستند إلى كسلك وعجزك، منتظراً معجزة يأتي بها الغيب ليعيد مجد الأمة!.

وأجهل الجهل هو جهل الإنسان بنفسه، لذا على كل مسلم أن يسيح في أرجاءِ نفسه، منقباً عن مواهبه وملكاته، ليعرف أين يضعها، فهناك ثغر ينتظره، عليه أن يجاهد دونه، خدمة لدينه، وصوناً للأرض من المفسدين، فلكل فرد مهمة في دولة الاستخلاف، وخليفة بلا علم وتقوى، خليفة ضعيف لا يليق برب قوي، وما ينبغي له أن يقرأ باسمه ويعمل، والعمل هو عمل صالحٌ يستوعب كل شيء في هذه الأرض، فإن وقفت وراءه نية صادقة فهو صيام وصلاة وقيام، لكن الإسلام ابتلي بعقول نخيلة، حجرّت مفاهيمه، فانحسر الإيمان إلى بضعة عبادات وأخلاق أصبحت رسوماً شاهقة جداً، كبئر معطلة وقصر مشيد، يعجبك جسمها ورسمها، لكنها قفرٌ، لا تنبت كلأً، ولا تمسك ماءً!.

وأريد منك – باسم القراءة – أن تعرض محتوى نفسك على هذه الأسئلة التي تطالعني وإياك من وحي سورة البقرة، سورة الاستخلاف:

هل ستكون مستخلفاً ومحور حياتك، نفسك، أو عائلتك أو قبيلتك، أو المال أو المنصب أو أي عقيدة أرضية...أو ...أو... ويطول ذكر الأنداد من دون الله!.

فهل ستكون مستخلفاً وأنت لست متقياً؟.

هل ستكون مستخلفاً بدون إنفاق؟.

هل ستكون مستخلفاً وأنت قاطع للأرحام؟.

هل ستكون مستخلفاً وأنت تؤذي زوجتك وتأكل حقوق النساء؟.

هل ستكون مستخلفاً وأنت جاهل عاطل؟. لقد علّمك الله الأسماء، كما علم أباك، وأعطاك المواهب والملكات لكي تسلك طريقَ علمٍ يجعلك تسبح بحمد الله وتقدس له، وتقيم دولة الإيمان لتمنع الفساد في الأرض.

هل ستكون مستخلفاً بلا صبر وصلاة؟.

هل ستكون مستخلفاً وأنت خائنٌ للعهود مع الله ومع الناس؟.

هل ستكون مستخلفاً وأنت تطبق جزءاً من الإسلام وتكفر بالآخر كما فعل بنو إسرائيل؟.

هل ستكون مستخلفاً وأنت أميٌّ بمعاني الكتاب كما كان بنو إسرائيل؟.

الحقيقة أننا ظلمنا أنفسنا، وبدلنا ديننا، كما فعل بنو إسرائيل، لأننا ورثنا صفاتهم، إن المهمة ثقيلة ثقيلة، وقد قال الله تعالى لنا: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ

فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة/٢٨١).. وقد قال لهم من قبل:﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة/٤٨).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فيصل محسن العلي

٣ /شوال/١٤٣٣

الموافق: ٢٠١٢/٨/٢١